حجي جابر

رغوة سوداء

رواية

المتوسط

حجّي جابر

رَغوة سَوداء

رواية

حجّي جابر

رَغوةٌ سَوداء

الكتاب: رَغوة سَوداء (رواية)
تأليف: حجّي جابر
عدد الصفحات: 256 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-023-3
الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة © دار التنوير 2018

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إلى وليد محمد...
على حاله، الجَرَس الذي علّقتَه ليرنّ كلما نظرنا في المرآة...
غير أنّنا فقدنا ملامحنا!

... آخرُ الناجين من الذبح، صار يعبدُ خنجرًا!

عاطف خيري

(1)

كان يمكن لنهار السبت هذا أن يبدو عاديًّا جدًّا في أَديس أبابا.

تمامًا كأي يوم في ديسمبر؛ سماؤه قاتمة، وطقسه يميل إلى البرودة، وحاناته تستعدّ باكرًا لاستقبال حشود لا تُضيّع عطلة نهاية الأسبوع دون أنْ تُريق تعبها كلّه على مصاطب الراحة: استيلا، هينيكين، غينيس، كورونا، هرر... ومصطبة الكادحين: سانت جورج، التي ما إنْ حمل اسمها فريق كرة قدم، حتّى تضاعفتْ شعبيته قبل أنْ يُحقّق شيئًا.

كان يمكن ذلك، لولا ما يجري في اللحظة نفسها في جانب من المدينة، فيعطي هذا الوقت من العام، شيئًا من الفرادة.

خمس حافلات متتابعة تحيط بها عربتا شرطة، تغذّ السير، وسط نِثَار أمطار خفيفة، من نقطة التجمّع في ساحة مَسقل وسط أديس إلى ضاحية بولي حيث يقع المطار. اصطفّ على جانبَي الطريق الإسفلتية الموحلة، وطوال ستة كيلومترات، فضوليون، وناقمون غيارى، ومودّعون حزانى. المجموعة الأخيرة وحدها كانت تلوّح، فلا ترى إلّا انعكاس صورها المتكسّرة على زجاج الحافلات المعتم.

في الداخل كانَ الرجال والنساء وصغار السنّ، على حال واحدة؛

ابتهاج بالاصطفاء يعكّر مذاقه شعور الفَقْد؛ النشأة والأصدقاء، وإثيوبيا الأمّ. لكنّه شعور رقيق، استطاعت تبديده أغنية واحدة لمارثا كيداني، بدأها أحدهم على استحياء، فأخذ يردّدها الجميع بانتشاء، وهم يضبطون إيقاعها بالتصفيق والنقر على النوافذ:

«ها قد جاء اليوم أخيرًا

جاء... جاء اليوم

جاء جميلًا... منتصبًا لا يخشى الأقدار

يمسح تعب الماضي

جاء... جاء اليوم

جاء يودّع الأمس... ويبقى إلى الأبد

جاء... جاء اليوم».

الرجل الجالس إلى جوار النافذة في المقعد سبعة وثلاثين من الحافلة الرابعة، وَحْدَه كان خارج هذا الطقس.

يغطّي رأسه بقماش أبيض نهاياته زرقاء معقودة، بينما تحجب يده الموضوعة على وجهه ما تبقّى من ملامحه، ويحاول جهده تجاهل بدين نائم إلى جواره يميل عليه ويَسند رأسًا ثقيلًا على كتفه.

كان خلاف ما يجري أمامه، وفي الحافلات الأخرى، ينظر إلى الوراء؛ يستعيد رحلته الطويلة، ويُمنّي النفس أن تُكلّل خاتمتها بشاغله الوحيد:

النجاة!

(2)

عبثًا يحاول أنْ يغفو.

بكاء الأطفال من حوله، والموسيقى الصاخبة المتسلّلة من الخارج تتناوب على مسامعه بوتيرة مزعجة.

يتوسّل إلى النوم هربًا من نفسه، من طنينها العالي، فيصطدم بمن حوله ليعيدوه إلى واقعه في هذه الصالة الرياضية غير المسقوفة، والقريبة من ساحة مسقل، وهي تحتشد بالقادمين من غوندار، كمحطة في طريقهم إلى الوجهة الأخيرة بَدءًا من نهار الغد.

ساعات طويلة استغرقتها رحلة المجموعة الأولى، من أقصى الشمال إلى العاصمة. طرق معبّدة وأخرى ترابيّة مرّت عليها قافلة حافلات «تاتا»، وهي تحاذي تعرّجات الجزء الضئيل من النيل الأزرق. تتمايل الحافلة، ومع هذا تبقى الصورة من خلال النافذة ثابتة على حالها؛ أكواخ طينية، حيوانات هائمة، بشر على الحال ذاتها، رؤوس نصف حليقة، وأعين تراقب بحياد، قبل أنْ تعاود التحديق في الفراغ.

لا يغادر ذهنه مشهد الوداع.

الحشود المتحفِّزة للانقضاض على الحافلات الرابضة عند

المدخل، وهي تستمع بضجر إلى حاخام مسنّ يقرأ بتؤدة من أوراق تزدحم بين يديه النافرة العروق. صمت قليلًا يبحث عن كلمة ضائعة، فظنّ الناس أنه انتهى، أو أنّهم تحايلوا كي يضعوا حدًّا لانتظارهم فقط. تدافعوا على الأبواب، تاركين الحاخام يتلفّتُ حوله قبل أنْ يطوي أوراقه ويدسّها في جيبه.

يذكر كيف تسمَّر في مكانه ينتظر ظهورها.

لم يكن له أنْ يُغادر دون أنْ يودِّعها. لم يطلْ انتظاره، فقد لمحها تدور ببصرها تبحث عنه. أشار لها، فأسرعتْ نحوه فاردةً ذراعيها واحتضنته. أراد أنْ يقول لها كلامًا كثيرًا، أنْ يشكرها على أقلّ تقدير، لكنّه اختار الصمت في النهاية. هي أيضًا لم تنطق. شعر بأنفاسها الحارّة في رقبته، قبل أنْ يعلو صوتها بالنشيج. لكنّه ظلّ على سكونه. لم يبادلها مشاعر اللوعة، بدا فاترًا جامد الملامح، رغم أنّه كان منخورًا من الداخل، يودّ لو يعوي كذئب مجروح، لكنّه لم يفعل. أو لم يستطع ذلك.

حين هدأتْ قليلًا، نظرتْ في عينيه، أمسكتْ بيديه. عيناها المبلّلتان قالتا كلامًا كثيرًا، قبل أنْ تدسّ في جيبه مالًا. حاول أنْ يرفض لكن، كما دائمًا، كان إصرارها أكبر.

صعد إلى الحافلة واستقرّ في آخرها. كانتْ لا تزال في مكانها، مكانه سابقًا. لوّحتْ له هذه المرة مبتسمة. منحها ابتسامة باهتة، سرعان ما تلاشتْ مع تحرّك العربات متجاوزة البوابة الكبيرة.

في الخارج حشود أخرى، ما إنْ رأت الحافلات حتّى علا ضجيجها. جهدتْ الشرطة في إبعاد المتجمهرين الغاضبين وهم يحاولون عرقلة مسير القافلة. فتح بعض الركّابِ النوافذَ فوصلتْ

إليه الأصوات واضحة؛ «خذونا معكم»، «نحن يهود أيضًا»، «لعنة الله على المرتشين».

داس رجل على يده وهو يتلمّس طريقه، فأعاده من استغراقه في غوندار إلى ضجيج الصالة الرياضيّة. التفت إلى الساعة الكبيرة المعلّقة فوقه. كانت عقاربها تزحف بكسل نحو الثامنة. نهضَ فورًا، وقد استولتْ عليه فكرة أنْ يتجوّل في الجوار، أنْ يضيع في ليل أديس. أن يبتلعه ذلك الزحام فلا يعود يدري أين هو!

وجد ميدان مسقل يضجّ بفتيات الليل، والراقصين في الهواء الطلق، وأشجار الميلاد المزيّنة بالأضواء الملوّنة المتراقصة. تذكّر سابا وهي تُخبره كم يُحبّ الإثيوبيون الغناء. كان يظنّها تبالغ عندما قالت إنّهم يعيشون عليه، يعتبرونه لغتهم الأُم.

ترك الميدان على يمينه، وسار بمحاذاة البارات والمقاهي على امتداد الشارع، متجاهلًا نداء فتيات يعرضنَ عليه ارتياد محالهنّ. يشيح ببصره حينًا، ويتظاهر حينًا بعدم فهم الأمهريّة التي أتقنها في الجيش. يعرف، ككثيرين، كيف تتفنّنُ الفتيات هنا في الإيقاع بالعابرين، وتجريدهم من ممتلكاتهم دون مقاومة. هو لا يريد حتّى مجرّد اختبار مقاومة هذا السحر.

بدتْ أديس حيَّة على خلاف ما كان يسمع عنها طوال أعوام. لم يكن الإثيوبيون غارقين في التحفّز كما ظنّ. استغربَ كيف أنّ نهر الحياة يتدفّق دون حساب، بينما أوقف خصومهم في إرتريا كلّ شيء في انتظار الرصاصة الأولى. هنا لم يكن ثمَّةَ انتظار، كلّ شيء كان يمضي في طريقه فحسب.

تجاوز منطقة مزدحمة إلى أخرى بدتْ أكثر هدوءًا. أبطأ من سَيره،

وانشغل بقراءة أسماء البارات؛ الحبشة الكبرى، الإمبراطور، النصر. لم يتخلّص الخصوم إذن من التحفّز تمامًا، لكنّهم جعلوه يترافق مع الحياة.

استوقفه بار «إيديل»، بدا الاسم ملفتًا وهو يشير بالدَّارجة إلى المصير. اقترب يُحفّزه عدم وجود فتاة على بابه تلحّ على العابرين. لَمَحَ أعدادًا قليلة داخله تستمع لعزف حيّ. تجاوز المدخل بعد تردّد، فاستحوذتْ عليه العتمةُ التي تغمر المكان. منطقة العازفين وحدَها كانت مضاءة. استقبلته نادلة سمراء باسمة وهي تسأله إنْ كان معه مرافقون. فكّرَ في التراجع وهو يتذكّر قصّة السحر، لكنّ المغنية هناك على المسرح، كانت قد اصطادته.

«شخص واحد».

أجابها، وقد تسلّل إليه شيء من الزهو وهو يرى أنظار الفتيات تتّجه نحوه، بينما تقوده النادلة إلى زاوية أكثر إعتامًا في المؤخرة، لكنّها تطلّ على المكان بأسره.

ظهرتْ القاعة مكتظّة أكثر ممّا بدتْ من الخارج. صوَّب نظره ناحيةَ المغنية وهي تتمايل أمام ثلاثة عازفين. لم يسترْعِ انتباهَهَ أداؤها لأغنية بوب مارلي التي يُحبّها «One Love». كان فقط مَأخوذًا بشعرها القصير، ونظارتها دائريّة العدسات، وذلك البروز في صدرها، وقد أعاده كلّ ذلك إلى أيامه الطويلة في الجبهة، وفي كمشتاتو.

عادتْ إليه النادلة لتضع أمامه قنينة سانت جورج التي طلبها. سقط منها منديل، فسبقها إلى تناوله وهو يُخبرها أنّه يريد الاحتفاظ به، وقبل أنْ تتجاوز استغرابها مالَ عليها وسأل عن اسم المغنّية.

«ديبورا».

تبسَّم وهو يرى كيف أنّها تشبه اسمها فعلًا؛ نحلة، تلسعُ روحه برشاقة تمايلها.

دخل شاب إلى البار. مالتْ الفتيات تجاهه، فبدّدنَ آخر شعور لديه بالفرادة.

انتهتْ الأغنية، وانحنتْ ديبورا أمام تصفيق الحاضرين. لم يتفاعل معها. اكتفى بتجرّع نصف القنينة والتحديق في ملامحها؛ فستانها الأسود القصير مكشوف الظهر، وشعرها المتموّج، وابتسامتها الواسعة التي تقابل بها الإطراء كطفلة وهي تضعُ يدها على فمها بين الحين والآخر.

ما إنْ هدأ الضجيج حتّى عادتْ إلى الغناء، هذه المرّة غنّت أغنية محلّية. واصل انشغاله عن الأغنية بها. تساءل عمّن يكون عشيقها بين الثلاثة خلفها؛ أهو البدين، نافخ الساكسفون الذي لم يرفع عينيه عنها، ويُبادلها الابتسامات؟ أم تراه مَنْ يتصبّب عرقًا وهو يضرب بنشوة على الدرامز، ويبدو غارقًا في ذاته ومنعزلًا عن المكان؟ لِمَ لا يكون الوسيم المعتدّ بنفسه، عازف الجيتار وهو ينقّل بصره بينها وبين زميليه؟

لا يهم. خَلُصَ إلى هذه النتيجة، وهو يراها تتقدّم خطوة وترفع يدها قبالة وجهها لتتفادى الإضاءة المسلّطة عليها. كانت تنظر إليه. شعر أنّها تدقّق في ملامحه. سَرَتْ رعشة خفيفة في جسده. لا يعرف لِمَ قرّر فجأة أنْ يُغادر في منتصف الأغنية. ربّما لأنّه وجد مؤونة تكفيه بقيّة ليله. سَكَبَ ما تبقّى من البيرة في جوفه، وضع ثمنها على الطاولة، ونهض مغادرًا. سار نحو المخرج، تتبعه ديبورا بعينيها. وهو يرى ذلك في الزجاج العاكس أمامه. تملّكه الزهو، فترك المكان قبل أن يتيح لوافد جديد أن يبدّدَ شعوره هذه المرّة.

(3)

توقفت الحافلات تباعًا أمام مدخل الصالة الثانية المخصّصة للرحلات الدولية.

بقيتْ على حالها هذه زهاء ساعة قبل أن تأتي مجموعة من الحاخامات برفقة حرّاس بملابس مدنية، وتمرّ على الحافلات واحدة تلو الأخرى.

كان الرجل في المقعد سبعة وثلاثين من الحافلة الرابعة يراقب الوضع من مكانه، بقَدْر ما تسمح به الفراغات بين القطرات المتناثرة على النافذة. بدا واضحًا حرصه على ألّا يمنح الآخرين فرصة ملاحظة اضطرابه الذي يزيد من حدّته تعالي شخير البدين إلى جواره.

كان الوقت ثقيلًا وضاغطًا. ودَّ لو يستطيع إخراس كل الألسن التي تملأ الحافلة بالضجيج، ورأسه بالتوتر، لكنّ شيئًا آخر تكفّل بالأمر؛ فُتحتْ أبواب الحافلة الرابعة فبدّد ذلك صخب النسوة وأطفالهن، وعمّ صمت مفاجئ أيقظ البدين مذعورًا.

«شالوم».

«شالوم آفينو». ردَّ الركاب بشكل استعراضيّ على تحية أحد

الحاخامات الثلاثة فابتسم بعجب لإتقانهم التحيّة بالعبرية وهو يردّد «فليبارك الله غوندار». لكنّه ما إنْ راح يسترسل باللغة نفسها حتى اتّضح ألّا أحد يفهم ما يقول.

عشر دقائق استغرقتها خطبة الحاخام المتقطّعة بفعل الترجمة. بدا الأمر كأنّه تكرار لما قاله رجال دين محليون في ساحة مسقل، وقبل ذلك في غوندار، لكن مع نبرة اصطنعتْ الحماسة:

«أنتم على بُعد ساعات من تحقيق حلمكم بالعودة إلى أرض الميعاد، إلى أرض اللبن والعسل، إلى إسرائيل الكبرى، حيث تنتهي الآلام بالخضوع لمشيئة الربّ. أجنحة الحمامة، هذه الحملة المباركة تحيط بها صلوات كلّ فرد في البلاد هناك، حتى ينتهي شتات «بِيتا إسرائيل» ويعودوا إلى الموطن الأول. التعب الذي قابلتموه بصبر المؤمنين قبل الوصول إلى غوندار، انتهى إلى الأبد. ذلك لم يكن سوى امتحان من الربّ لمدى تعلّق أفئدتكم بالأرض المقدّسة. امتحان عُلّقتْ أقداره برقابكم منذ النزوح الكبير لـ(سبط دان) قبل أن...».

توقّف الحاخام وقد انتبه إلى تضاؤل الحماسة التي يقابَل بها حديثه، قبل أن يُداخله الشكّ في أمر آخر:

«تعرفون قطعًا ما يعنيه لكم سبط دان؟»

ووُجِه سؤاله بهمهمات تبحث عن الجواب الصحيح، قبل أنْ تستدير الرؤوس بيقين إلى الوراء وعين الحاخام تتبعها حتى استقرّتْ عند المقعد سبعة وثلاثين المحاذي للنافذة. لكنّ صاحب المقعد هرب من نظراتهم بإرْخاء عينيه وهو يسدل القماش على وجهه أكثر.

«بربكم! ألا تعلمون أنكم تنحدرون من الأجداد من (سبط دان) الذين نزحوا وتاهوا عن الأرض المقدسة؟ ماذا كانوا يُعلّمونكم في غوندار؟»

ابتلع الحاخام غضبه بعد صمت قصير قلّب فيه بصره بين الركّاب، وواصل خطبته وهو يجهد للعودة إلى نبرته الأولى:

«طال الكرب أرواحنا جميعًا، لكنّ الربّ جمع شتاتكم مجدَّدًا في غوندار حيث يبدأ المسير إلى الوجهة الأخيرة. هاعلياء.. هاعلياء. ليبارك الله كل عوليه حداش هنا».

توقّف الحاخام مجددًا وهو يهمّ بالسؤال، غير أنّ الركّاب سارعوا بالإجابة، وهم يحاولون مسح وصمة الجهل التي التصقتْ بهم، وأخبروه أنهم يعرفون أنّ هاعلياء تعني الصعود إلى إسرائيل، وأنّه قد طلب البركة لكل صاعد جديد منهم.

انتهى حديثه، وقد شعر ببعض الرضى، فأخذ يُبشّر بالحياة الرغدة التي تنتظرهم في إسرائيل. تدافع الركّاب لتقبيل يده، غير أنّه سارع إلى الخروج وتبعه رفيقاه، قبل أنْ يغلَق الباب خلفهم.

في الطائرة، كان الرجل الذي جلس سابقًا بجوار النافذة في المقعد سبعة وثلاثين من الحافلة الرابعة، لا يزال على اضطرابه. لا علاقة لذلك بالرجل البدين؛ فقد اختفى بين الزحام في صالة المغادرة، ولم يكن اضطرابه بسبب خلوّ الطائرة من المقاعد بحيث غدتْ كتجويف حوت ضخم حظي بمؤونة شهر من البشر والحقائب، قلّصتْ الهواء إلى حدّه الأدنى، ولا بسبب الذعر الذي أحدثه دخان أبيض انبعث من جوانب الطائرة الداخلية ظنّه الركّاب بوادر حريق قبل أن يتبيّن أنه هواء مبرّد أنقذ الصدور من الاختناق، ولا لاختفاء الحاخامات

واختيارهم السفر بطائرة أخرى. إنّما كان ذلك بسبب ما واجهه في نقطة التفتيش الأخيرة قبيل صعود الطائرة.

فقد مرّ وقت بعد مغادرة الحاخامات فُتحتْ على إثره بوابات الحافلات، واقتيدتْ المجموعة إلى قاعة داخلية قضتْ فيها الليل إلى أن حان أوان السفر قبيل الفجر. اصطفّ الناس في طوابير يتبعون رجل أمن قادهم إلى صالة يتوسّطها مكتب الطيران الإثيوبي.

«تزقاجو... ورَقتْ... ورَقتْ».

استجاب الصفّ الطويل لتوجيهات موظف المطار بتجهيز أوراقهم قبيل الوصول إلى نقطة التفتيش.

بيد مرتعشة، أخرج الرجل الذي كان يجلس جوار النافذة في المقعد سبعة وثلاثين من الحافلة الرابعة، ورقة من جيب بنطاله تحمل بياناته المذيّلة ببصمات أصابعه، والممهورة بختم الحكومة الفيدرالية لإقليم تغراي، إلى جانب ختم الجمعية الأمريكية لليهود الإثيوبيين والوكالة اليهودية للهجرة. تحسّس الأختام، مرّ بإصبعه على اسمه، أعاد قراءة اللغة المشبّعة بيقين عجز أنْ يجاريه. فعل هذا للمرة العاشرة أو أكثر، حتى حفظ كلَّ شيء في ورقته، دون أن يتجاوز قلقه.

بقَدْر ما كان يرغب في اجتياز البوابة الأخيرة، كانت قدماه تقاومان التقدّم مع كلّ فراغ يُخلّفه الواقف أمامه، كأنّهما تتوقّعان فخًّا يستدرجهما بخبث. كان يمرّر عينيه بشكل أُفقيٍّ كرادار خلال المساحة الضئيلة التي تركتها القماشة البيضاء المتدلية على وجهه. تعمّد ألّا تلتقي نظراته بأعين الحرّاس من حوله. كان يشعر أنّه يتوسّط بقعة صغيرة تتسلّط عليها الأضواء الكاشفة بشدة، فيما الجميع اتّخذوا أمكنتهم للفرجة عليه. حاول أن يتشاغل عن قلقه بالتربيت

على طفل بجواره حليق بالكامل عدا بقعة شعر تكوّمتْ في مقدمة الرأس، غير أنّه وجد يده تُفرغ توتّرها بالشد على شعر الطفل بقسوة جعلته يصرخ ويجذب أنظار الناس إليه.

حان دوره أخيرًا.

أمسك ضابط إسرائيلي بالورقة، وهو يُنقّل بصره بحدّة بين الصورة التي تعلوها، وبين ملامح الرجل بعد أن استجاب لطلب الضابط بإزاحة القماشة البيضاء عن رأسه تمامًا. بَدَتْ الملامح كاملة؛ في أواخر الثلاثين، قامته تميل إلى القِصَر بأكتاف مستقيمة، داكن البشرة، شعره قصير مجعّد متباعد، جبهته صغيرة بارزة، وأنفه الأفطس يحتلّ المساحة الأكبر من وجهه. استغرق التدقيق ثواني بَدَتْ دهرًا من العناء.

«هذا ليس منّا... ليس يهوديًّا».

صرختْ عجوز تجاوزتْ البوابة وهي تُشير ناحية الرجل، قبل أنْ تُطلق ضحكة لؤم ساخرة أبدتْ زوجًا وحيدًا من الأسنان يتوسَّط فكَّها العلوي. لم يحتج لوقت كثير حتَّى يتعرَّف عليها. جاهد كي يحتفظ بهدوئه وهو يواجه نظرة متشكّكة من الضابط وموظفي خطوط الطيران.

«ما اسمك؟»

بدا كأنّ الضابط اختار أنْ يعيد التدقيق من لحظته الأولى تحت وقع كلمات العجوز. بقَدْر ما كان سؤاله مباشرًا، شعر به الرجل غائمًا ومعقدًا حيث استغرق وقتًا ليفكّ طلاسمه، قبل أن يجيب بأحرف جاهدَ لتخرج مترابطة:

«داويتْ».

(4)

لم تكد الجيب شيروكي السوداء تتوقّف أمام المخيم حتى سارع الحرّاس إلى فتح بوابته التي تتوسّطها نجمة سداسية حديثة الطلاء، وحيّوا المرأة الجالسة خلف المقود بتذلّل مبالغ فيه. أنزلت زجاج النافذة، فتقدّم الثلاثة نحوها بهاماتهم المحنيّة يمدّون أكفًّا مبسوطة. وضعتْ فيها مالًا، وانطلقتْ إلى الداخل.

ظلّ الجالس جوارها يُتابع الحرّاس يُقبّلون ما بأيديهم بامتنان قبل دسّه في جيوبهم، وهم يعاودون إغلاق البوابة الكبيرة، دون أن يُثير وجوده انتباههم.

«لا تنسَ كلمة مما اتفقنا عليه».

أومأ مرافقها برأسه، وهو يفركُ بتوتّر كفّيه المتعرقتين.

طوال الطريق من الفندق إلى المخيم كانت سابا تُعيد على مسامعه تعليماتٍ حرصتْ على أن يحفظها عن ظهر قلب:

«ها قد عدتَ أخيرًا بعد أن أضاعكَ والدكَ إلياس قبل خمسة عشر عامًا في الطريق من مَكَلي إلى غوندار».

تُشدّد عليه ألا يُخطئ في نطق الأسماء، قبل أن تواصل:

«كان والدك لا يزال تحت وطأة فَقْد والدتك راحيل، حين غفل عنك قليلًا فوجد المهربون فرصة لاختطافك. قضيتَ الفترة كلّها مستعبَدًا لدى رجل اشتراك لرعاية مزرعته دون أن يسمح لك بمغادرتها حتى وفاته. كنتَ تسمع من والدك مرارًا عن تردده على فندق أباسينيا ليبيع السمن لصاحبته».

صمتَتْ قليلًا كأنها تبحث عن فكرة ضائعة، قبل أن تعدل عن ذلك:

«هذا يكفي... عدا ذلك سأتكفلُ بالباقي».

تجاوزتْ السيارة سقيفة معدّة للصلاة، ومضتْ في طريق رملية متعرّجة رديئة التعبيد على جانبيها تتناثر صخور ناتئة. اهتزاز الشيروكي العنيف، وعواء الكلب الناحل الذي يطارد السيارة، يبدّدان محاولات داويتْ للتماسك. كان يُنقّل بصره في المكان، ويحاول أن يَخلق أُلفة سريعة مع ملامحه؛ أشجار ضامرة، ومستنقعات نتنة، وبيوت قشّ مهترئة، ومصطبات طينية متشقّقة، وأطفال يلعبون الكرة بمرمى واحد من جذعَيْ شجرتين متقابلتين منزوعتي الأوراق، ونساء يَجبُنَ الطرقات حفاة بمآزر قصيرة بيضاء مائلة للصُفرة، وأردية مشدودة على رُضَّعٍ ملتصقين بظهورهنَّ.

توقَّفتْ السيارة عند سقيفة سعف تسندها حوامل خشبية، وتُسوّرها من الجهات الأربع أكياس رمل بعلوّ قدم. أطفأتْ سابا المحرك، والتفتتْ إلى جليسها تختبر استعداده، فمنحها ابتسامة طمأنتها. خرج رجلان يرحبان بالمرأة، وهما يدعوانها إلى الدخول. لاحظ داويتْ للمرة الثانية كيف أنه يصبح غير مرئي في حضرة سابا. لم يُزعجه ذلك. كان يتمنّى لو يظلّ كذلك حتى يتحقّق مراده.

في الداخل، تعمّد أن يجلس على المصطبة الطينية لصق مرافقته. أمامهما خمسة رجال يتدثّرون بأردية بيضاء واسعة. وقتها فقط اتجهتْ أعين الجالسين تجاه الشاب الذي ظلّ مُطْرِقًا إلى الأرض، وهو يشعر بوطأة النظرات تنهبُ أنفاسه. لم يُخفّف عنه ذلك الشعور إلا بدء سابا في الحديث:

«هذا هو ابنكم الذي حدّثتكم عنه. داويتْ ابن راحيل وإلياس، ردّه الله إليكم بعد ضياع طويل، ليحقّق مشيئته النافذة، فتبرد روح والديه في الملكوتْ. وقد تأكدتُ بيقين لا يعكّره شكٌّ أنّه ضالتكم التي تنشدون».

واصلتْ سابا مرافعتها بنبرة واثقة، تسردُ الأدلة مستندة إلى علاقتها الطويلة بإلياس الذي كان يأتي للتجارة ويقضي أيامًا في ضيافتها، يُخبرها عن حاله وحال عائلته التي تسكن مكلي، حتى شعرتْ أنّها باتت تعرف كل دقائق حياته معرفة تامّة، وهو الأمر الذي شهد أهالي غوندار جانبًا منه في حياة إلياس الأخيرة في المخيم. وبينما هي تحكي كان داويت يرقبُ بطرف عينه، أثر حديثها في وجوه الحاضرين وهم يوزّعون نظراتهم بينها وبينه.

***

حماستها له أعادته للحظة لقائهما الأولى، حين وصل إلى غوندار منهَكًا بعد أن قطع المسافة مشيًا من «إنداباغونا».

حينها اتجه فورًا صوب المخيم، حاول دخوله لكن دون جدوى، فواصل طريقه هائمًا، والعطش يكاد يقضي عليه. وجد نفسه قبالة فندق أباسينيا بملامح كالحة؛ لا تكاد قدماه المتقرّحتان تحمله، ويعلو جبهته جرح متخثّر، وملابسه الرثّة يشدّها رباط تتدلّى منه

زجاجة ماء فارغة. تجاوز بوابة المبنى البنيّ الأثريّ ذي الطابقين، ليلقى في مدخله سيدة خمسينية سُمرتها خفيفة، تعقد شعرها جدائل دقيقة تنتهي على كتفيها، وتستقرّ فوق الجانب الأيسر من شفتها التي تغطيهاثآليل متفاوتة الحجم. لم تنتبه له للوهلة الأولى، كانت تجلس خلف طاولة خشبية منهمكة في تقليب دفتر أزرق كبير. ظلّ يرمقها بنظرة منكسرة وينتظر انتباهها. رفعتْ رأسها فلم يفاجئها وجوده كأنها تراه دائمًا. أراد أنْ يتحدّث غير أنّه أحجم حين وجدها تعود إلى دفترها الأزرق باللامبالاة نفسها التي رفعت بها رأسها نحوه. مرّ الوقت مربكًا، قبل أن تُذيّل صفحة بتوقيعها وتُغلق الدفتر وهي تنادي على عامل ليجلب له شيئًا من المطبخ.

***

انتهتْ سابا من حديثها داخل سقيفة الرجال الخمسة، وسكتتْ تنتظر ردّهم. عمّ صمتٌ والأنظار تتّجه فيه إلى داويتْ. كان كبيرهم يضع قدمًا نحيلة على أخرى بجذع يميل إلى الأمام، ويَفرك تميمة تتدلّى من قلادة عاجية كبيرة تحيط برقبته، وهو يتفرّس وجه شاب بالكاد تظهر ملامحه لفرط إطراقه في الأرض، قبل أن ينطق:

«إنّه لخير عميم أن يُعيد الله لنا ابننا الغائب بعد أن فقدنا الأمل. يغمرنا الابتهاج أن يتحقّق ذلك على يديكِ التي اعتادتْ التفضّل علينا طوال جيرتنا لكِ. ولا يُداخلنا شكٌّ في تحقّقكِ من الأمر، غير أنّنا بحاجة للتحدّث إلى ابننا على انفراد».

بدا الارتباك على المرأة، بينما رفع داويتْ رأسه كلَّه للمرة الأولى. خطف نظرة إلى الرجل، قبل أن يلتفتَ إلى سابا كأنَّه يرجوها ألّا تتركه بمفرده. لكنَّها غادرتْ بعد أنْ ألقتْ عليه نظرةً، وهي تضغط

على كفّه بثبات. لم ينتظر الرجل حتى يعود داويتْ إلى هدوئه تمامًا: «حدثنا عن والدتك».

تنحنح داويتْ ليُفسح الطريق أمام كلماته المختنقة في حنجرته، قبل أن يتكلم.

أخبرهم أنّ أمه راحيل توفّيت بالسلّ قبيل مغادرتهم الأخيرة إلى غوندار، وأنها كانت تُساعد والده في إعداد السمن الذي كان يجوب به الأرجاء. أسهب في الحديث عن حنانها عليه، وعن علاقتها بجاراتها. المعلومة الأخيرة ارتجلها دون سابق تفكير. تقصّد أن يكون حديثه عامًّا ينطبق على كل الأمهات، قبل أن يتذكّر شيئًا أخيرًا أخبرته به سابا:

«أمي كانت مخلصة لعقيدتها اليهودية، رغم كل جهدها في إخفاء ذلك عن الجيران».

عاد كبير المجموعة إلى تميمته، لكن هذه المرة بحركة متوتّرة انتقل أثرها إلى داويتْ فعاد إلى إطراقه بأنفاس متلاحقة.

«ليبارك الله تلك الأم التي حرست إيمانها بين الضلوع، وليبارك ذرّيتها».

همهم الجالسون «آمين». رفع داويتْ رأسه على وقع ما سمع، لكنّ الرجل عاجله بسؤال بدا كأنّه تذكره الآن:

«يا ليقينها... هذا يعني أنها حُرمتْ طوال تلك السنين من اسمها اليهوديّ... بالمناسبة، ماذا كان اسمها في شريعتنا؟»

صُفع داويتْ بالسؤال. التفتَ يبحث عن سابا لتُنقذه. تعرّق وهو يحرث ذهنه ليبحث عن مخرج لسؤال لا تحتمل إجابته التخمين.

كان السائل يتَبسّم بخُبث، وهو يلمح سؤاله يلتفُّ على عنق الشابّ كأفعى جائعة. وحين تأكد أنّه لا يملك إجابة طلب من أحد الرجال أن يُنادي على سابا، وهو يميل على مرافقيه ويتحدث معهم بلغة لم يستطع داويتْ فهمها، بينما يهزّون رؤسهم موافقين.

دخلتْ المرأة واللهفة تطفر من عينيها. كان داويتْ مقرفصًا يدفن رأسه بين ركبتيه بخذلان، وهو يسترجع رحلة طويلة منهكة لم يشأ لها أن تنتهي أمام جدار بدا أنه لا يمكن النفاذ منه. أوشك على الصراخ، ألمًا وتحسّرًا وغضبًا، لكنه عوض ذلك كله ظلّ ساكنًا على حاله. جلستْ جواره تُنقّل بصرها بينه وبين الحاضرين، وهي تترقّب القرار.

«ليباركك الرب ويزاريتْ سابا. إعادة ابننا داويتْ فضل لن تنساه بيتا إسرائيل. سنُصلّي، كما نفعل دومًا، كي يشملك الرب بعطوفاته. أخيرًا سيرتاح إلياس في الملكوت، ومثله ستفعل زوجته... راحيل».

ضغط الرجل على الاسم الأخير وهو يلتفتُ إلى داويت بالخبث ذاته، كأنه يُخبره كم كان الجواب قريبًا منه، دون أن يتمكّن من الإمساك به.

رفع داويتْ رأسه غير مُصدِّق قبوله في المخيم، بينما بادرتْ سابا إلى احتضانه وهي تُهنّئه بحبور.

***

هذا لم يكنْ حالها ذلك اليوم، حين عاد إليها بعد أن فرغ سريعًا من الطعام الذي جلبه العامل من المطبخ.

كان يأمل أن تُكمل معروفها وتوفّر له عملًا لديها، غير أنّها صدّته بحزم وهي تُجيبه بتهكّم، أنها لو شغّلتْ كل من يأتيها سائلًا لوجدتْ غوندار بأسرها في فندقها.

خرج من أباسينيا خاليًا إلا من وعد أن يجد طعامًا كلما عصره الجوع. لم يكنْ ذلك كافيًا، فبدون العشرة آلاف بِرّ التي فقدها، لن يصل إلى مراده.

هام في الشوارع لا يملكُ وجهة يقصدها. شعر بضآلته وهو يجوب القلاع الأثرية الشامخة على التلال. إلى جواره تعبر مجموعات السوّاح الأوروبيين دون أن يُثير انتباههم. بدا منسجمًا مع المدينة العتيقة بتناقضها السافر؛ كأنما يجب أن تظلّ فقيرة منزوية حتى يستمرّ مرور الأغنياء بها.

مرّ أمامه قطيع أغنام يسوقه راعٍ. اقترب منه يسأله تشغيله، لكنّ الراعي تجاهل سؤاله وواصل طريقه. كان في سباق مع الوقت، وجيوبه الخالية تُنذر بخسارة كل شيء.

قرّر أن يعود إلى المخيم ثانية، رغم أنّه لم ينسَ ما حدث له لحظة محاولته الدخول أول مرة؛ حينها كان قد سار بمحاذاة الأسلاك الشائكة التي تستند على صخور متراصّة تحجب ما وراءها حتى بلغ البوابة الكبيرة. لم يكد يقف قبالتها حتى خرج إليه حارس يحمل عصا طويلة يطلب منه المغادرة بغلظة. رجاه أن يسمح له بالدخول ليقابل المسؤول لأمر مهم، لكنّ الحارس نَهرَه وهو يُشير له بالابتعاد. وقبل أن يُدير ظهره تمامًا أرشده إلى فندق أباسينيا:

«إذا كنتَ تبحث عن الطعام... هناك ستجد مبتغاك. ويزاريتْ سابا لا تردّ سائلًا».

في هذه المرّة، تعمّد ألّا يلمحه حرّاس المخيّم كيلا تتعسّر أموره. ظلّ على مقربة من البوابة يتلصّص من بين الفُرجات التي تتيحها الصخور المتراصّة. لمح حشدًا تحت سقيفة يؤدون ما يُشبه صلاة

جماعية. كانوا وقوفًا يهزّون جذوعهم إلى الأمام والخلف، بالكاد تظهر وجوههم وقد غطّتها أقمشة بيضاء بنهايات زرقاء، بينما يتجّول بينهم رجل يحمل مجلّدًا ضخمًا تنتهي دفتاه المفتوحتان بعصوين رفيعتين يلتفّ حولهما الورق. في البداية لم تُتح له المسافة أن يستمع إلى التراتيل، قبل أن يعلو التصفيق ويصله واضحًا بنغمته المنتظمة. مرّت بجانبه عربة تقودها امرأة أخرجته من طقس الصلاة الذي يتابعه. كانت هي؛ مالكة الفندق التي نهرته الآن. لحقها ببصره حتى توقّفتْ أمام البوابة. تقدّم قليلًا ملتصقًا بالسياج فرأى الحرّاس يُحيّونها بإجلال قبل أن تعبر إلى الداخل. وقتها أدرك أنّ مصيره معلّق بيد تلك السيدة التي أخذتْ تختفي بعربتها عن ناظره في طريق رملية متعرّجة رديئة التعبيد.

***

هي العربة ذاتها التي يركبها الآن برفقة السيدة ذاتها، سابا، وهي تتمايل على صوت إستير الذي ينبعث من الراديو عاليًا:

«لماذا لا تزال تلك النجمة في مكانها يا حبيبي؟

لماذا لم تغادر مثل الأخريات؟

هل يخطر ببالك هذا السؤال مثلي؟

هي كانت شاهدة حبنا الوحيدة

وشهود الحب أحباب أيضًا».

كانا يجوبان المخيم بحثًا عن مكان يسكن فيه. حكى لها عمّا جرى في السقيفة أثناء غيابها القصير، فأطلقتْ ضحكة أثارتْ استغرابه. التفتتْ إليه، وقابلتْ ملامحه الحائرة بضحكة أكبر وهي

تميل برأسها على مقود السيارة، قبل أن تخفّض من صوت إستير:

«لقد نال منك لأنك لم تكن تعرف أن راحيل هنا، اسم مسيحيّ ويهوديّ على السواء. عمومًا هذا لم يكن مهمًا».

صمتتْ كأنّها تودّ أن تُضفي على حديثها تشويقًا، قبل أن تُضيف:

«كل ما حدث تحت تلك السقيفة كان مرتّبًا له».

ألجمته الصدمة، فعجّلتْ سابا بتوضيح الأمر، وهي تقاوم ضحكتها:

«اتفقتُ مع كبير المجموعة على كل ما رأيته أمامك، وكان شَرْطُه الوحيد ألا أخبرك كي يبدو كل شيء طبيعيًّا، فهو لا يريد أن يشيع أنّهم يُدخِلون الناس إلى المخيم مقابل عشرة آلاف بِرّ، ولهذا فمن جانبي بالغتُ في إظهار مشاعري كما رأيت. الآن، أرجوك أن تحتفظ بكل ذلك سرًّا، حتى لا تُفسد الأمر».

لم تكد تُنهي جملتها حتى استوقفها رجل يُشير إلى بيت صغير من القشّ بدا مناسبًا. نزلتْ سابا تعاين المكان، بينما تعالى شعور داويتْ بالغيظ، وهو يتذكّر كيف أتلف ما جرى في السقيفة أعصابه. أغمض عينيه وأسند رأسه على ظهر المقعد، بينما يموج ذلك الرأس بمشاعر متقابلة. كان يُنهكه هذا العسر الذي يحيط بحاله، وهذا التوتر الذي يصاحب خطواته، كأنّه ينتشلها من وحل كثيف في كل مرة. تمنّى أن يُجرّب ولو مرة واحدة طريقًا محايدة، لا تعطيه، لكنّها في المقابل لا تثقل روحه وجسده بالرهق. استغرق في تأمله قبل أن تخرجه منه سابا وهي تنادي عليه:

«ألن تأتي لترى بيتك الجديد؟»

(5)

هبطتْ الطائرة المزدحمة بالناس وبأحلامهم مع الضحى في إسرائيل.

لم تكد تلامس الأرض حتى تدافع الركّاب نحو مقدمتها، كل يسابق ليحجز مكانًا له ولحقائبه ولأطفاله المتشبثين به أو المحمولين على أكتافه، غير آبه بتعليمات طاقم الطائرة التي تطلب منهم لزوم أماكنهم لحين التوقف التام. لم ينتبه أحد لطرافة الطلب في طائرة دون مقاعد. في الطريق كادوا يسحقون داويتْ الذي تقهقر حتى أصبح وحيدًا في المؤخرة. بينما تسير الطائرة ببطء على المدرج ينظر من النافذة إلى المبنى الدائري الذي تتفرّع عنه أربعة أذرع، ويتوسّطه العلم الإسرائيلي إلى جوار اسمه المكتوب بأحرف بيضاء ضخمة:
Ben Gurion Airport

توقّفتْ الطائرة تمامًا فعمّ الاضطراب والركّاب يلتصقون أكثر بالمقدمة، ويطرقون على الباب. لكنّ الوقت طال دون أن يحدث شيء. تسلّل الضيق إليهم، وأخذ شكلًا احتجاجيًّا مع زيادة الطَّرَقات الحانقة على الباب، إلى أن بدأ أحدهم بالغناء بصوت عالٍ، فخفّ الضجيج. رمقه من في المقدمة بنظرات وعاودوا الطَّرْق. واصل الغناء فانضمّت

إليه مجموعة أخذتْ تكْبر حتى ارتجّ المكان بالنشيد. لم يكن الغناء لغة فرح فقط، ها هو الغضب يتمدّد في الصدور ويظهر على الوجوه.

«إنه اليوم المنتظر... اللحظة المنتظرة

هاعلياء...

لا مكان للأمس هنا... لا مكان للغد هنا

هاعلياء...

السنة القادمة يا أورشاليم قد حلّت

هاعلياء...

إنه اليوم المنتظر الذي يحمل في أحشائه

كل الأزمنة».

فُتِحَ الباب أخيرًا، فابتلع الناس أصواتهم، لكنه للمفاجأة لم يكن الباب حيث يحتشد الركّاب، بل ذلك المواجه لداويتْ في مؤخرة الطائرة. صعد موظفان وأشارا إلى الرجل بالنزول. شعر بالارتباك. بقدر ما أراد هذه اللحظة بقدر ما يخافها. على الأقل هو لا يريد أن يكون أول من يصل. الوصول صنو الانتهاء. انتبه الركّاب لما يحصل فعاد التدافع في الاتجاه الآخر. هنا وجد داويتْ فرصته في أن يتقهقر. تنحّى وظلّ يراقبهم. بعجلة كانوا ينزلون السلالم، ثم يخرّون سُجّدًا ما إن تطأ أقدامهم الأرض. رأى رجلًا انشغل عن السجود بإجبار طفليه على تقبيل الأرض الخرسانية. سيدة همّتْ بالسجود لكنها تذكّرتْ حقيبتها القماشية المتورّمة، فحشرتها تحتها وسجدتْ تحتضنها. آخرون كانوا يرفعون جباههم قبل أن تلامس الأرض، ويواصلون الركض باتجاه الحافلات الرابضة أمامهم.

هبط داويتْ السلالم ببطء. كان ينزل بقدم ثم يُتبعها الأخرى على الدرجة نفسها. ومع هذا ودّ أن يتوقّف قليلًا. كان يلهث من التعب، كأنّه يتجاوز السلالم قفزًا. حين وصل إلى الأرض، كانت الحافلات قد امتلأتْ بالركّاب. كانوا جميعًا يرقبونه، يستعجلونه بالأحرى. نزل على ركبتيه، التفتَ إليهم، قبل أن يميل بوجهه ويُقبّل الأرض. لا يعلم كم ظلّ على هذه الحال، لكنّ السخونة التي لامستْ جبهته عادتْ به إلى رحلته الطويلة؛ إلى غوندار تحديدًا.

***

يومه الأول في المخيم بدأ متقلّبًا.

خرج يتفقّد المكان. هذه المرة كساكن فيه، كجزء أصيل منه، وليس عابرًا متطفّلًا. أعجبه هذا الشعور. ليته إذن يستطيع البقاء هنا إلى الأبد. هكذا بدأ يُفكّر.

«ابتعد من هنا يا محتال».

انتفض مذعورًا وهو يحاول تفادي ماء آسن قذفته في اتجاهه جارة عجوز بملابس متسخة مهلهلة. ابتعد مسرعًا، بينما أطلقتْ العجوز ضحكة لؤم ساخرة أبدتْ زوجًا وحيدًا من الأسنان يتوسّط فكّها العلوي.

تقزّم شعوره بالرضى عن المكان قليلًا. هل كان هذا ما حذرتْه منه سابا قبل أن تغادر البارحة؟

عجوز خرفة واحدة لن تُضيف إلى متاعبه الكثير. هذا ما سلّى به نفسه وهو يتذكّر سابا تخبره أنّ الأمر لن يكون سهلًا، وأنّ عليه أن يكون صبورًا حتى يحين موعد مغادرته. طلبتْ منه أن يحاول وسع طاقته ألا يلفت الانتباه، وأن يتجنّب الناس بخلاف أماكن الدراسة

والعبادة. اطمأنتْ على محل إقامته، وضعتْ في يده مالًا. حاول الرفض، لكنّها أصرّت، وهي تُخبره أنها ستعود لزيارته كلما وجدتْ وقتًا لتعوّض صرامة التعليمات التي تمنع على الساكنين التجوّل خارج المخيم.

تُغدق عليه هذه المرأة الأفضال منذ اللحظة التي كاد يَهلك فيها وهو يُطفئ حريقًا شبّ في أحد مرافق فندقها في ليلة ظلماء.

حينها كان قد غادر بيت القشّ الذي يتشاركه مع راعٍ مقابل أعمال شاقّة في حمل الحطب وحراسة الماشية من الذئاب.

خرج يتسكّع دون وجهة معلومة، وهو منشغلٌ بكيفيَّة جمع المبلغ المطلوب. لمح لهبًا يتعالى من ناحية فندق أباسينيا. ظنّه في البداية شواء في الهواء الطلق اعتاده السوّاح الغربيون، قبل أن يترافق ذلك مع صرخات فزعة. هذا ما كان يعيده على مسامع الناس، وهو يُغذّي فضولهم لمعرفة ما جرى تلك الليلة.

كان يُخبرهم كيف هرع فورًا إلى المكان ليجد ألسنة اللهب تُنير الباحة الخلفية للفندق، وعددًا من العاملين يحاولون إطفاء الحريق المندلع في غرفة منعزلة. دون تردد اندفع ليتقدَّم الجميع محاولًا إطفاء النار. أخذ يجمع الرمل بكفّيه ويقذفه على اللهب. حاول مرارًا غير أنَّ ذلك لم يكن مجديًا. عاد يبحث عن وسيلة أخرى ليجد أنبوبة إطفاء ملقاة بين الأشجار القريبة. بدا ذلك غريبًا، لكنَّه لاحقًا كان الدليل لدى مالكة الفندق على أنّ الحريق فعل مدبّر، فمن أشعل النار تخلّص من أنبوبَتي الإطفاء قبل الشروع في فعلته.

فتح خرطوم المسحوق الأبيض تجاه النافذة التي تنبعث من جوفها النيران. كان ذلك عديم الجدوى ما لم يقترب أكثر ويواصل

ضخ محتوى الأنبوبة بكل قوة. شعر بحرارة اللهب تشوي وجهه. لكنه لم يتراجع خشية امتداد النيران وفقدان السيطرة عليها نهائيًا. أمام الحرارة العالية، والإنهاك الذي بدأ يبتلع طاقته بوتيرة متصاعدة، كاد يستسلم، غير أنّ آخرين انضموا إليه في اللحظة الأخيرة يحملون أنابيب إطفاء، وراحوا يساعدونه. تقهقرتْ النيران حتى خمدتْ أخيرًا بخلاف خيوط دخان نحيلة أخذت تنبعث بفتور من الركام المتفحّم، قبل أن تتلاشى نهائيًّا.

كان هذا ما شاهده الحاضرون بكثير من التحفّز والإعجاب، وما سمعه من فاته الحدث الكبير في غوندار.

لكنَّ ثَمَّةَ وجهًا آخرَ لما جرى يجعل داويتْ يُحسّ بالذنب كلما تمادتْ سابا في إبداء امتنانها تجاه ما فعله. هذا الشعور سرعان ما يتبدّد وتحلّ مكانه أعذار تُرضيه؛ فهو لم يكن يملك طريقة أخرى لبلوغ مراده أمام رفضها الدائم تشغيله، وهي وإن كانت قد أطعمته فإنّها فعلتْ ذلك بفائض طعام كانت سترميه في كل الأحوال.

ففي الأيام الأولى لوجوده في المدينة كان الوقت يخنقه دون أن يجد عملًا يجني من خلاله الآلاف العشرة المطلوبة لدخول المخيم. قبل أن يهتدي إلى حيلة كانت نتيجتها تفوق ظنونه.

ظلّ يراقب أباسينيا، حين أدرك تمامًا حظوة صاحبته لدى مسؤولي المخيم. حفظ مخارج الفندق، وأعداد العاملين فيه وأوقات ورديّاتهم. لاحظ أنّه يكون بعد منتصف الليل في أكثر حالاته هدوءًا مع أقلّ عدد من العاملين. تسلّل إلى باحته الخلفية التي يطلّ عليها مستودع لأدوات النظافة. كانت النافذة يسيرة الفتح ما سهّل مهمته. انتزع أنبوبَتَيْ إطفاء الحريق المثبتَيْن على الجدار وعاد بهما إلى

مكانه بين الأشجار. حين اطمأن إلى أنّ حركته لم تثر انتباه أحد، حشا عبوة ماء فارغة بقماش مبلّل بالكيروسين وتقدّم ببطء ناحية المستودع يتلَفّتْ حوله بتحفّز. صدر صوت حادّ أفزعه وأعاده ركضًا إلى مكانه قبل أنْ يتبيّن أنّها قطّة مذعورة.

مرَّ وقتٌ استعاد فيه جسارته ليكرّر الخَطْو تجاه النافذة. حين بلغها كان كمن يختبر جدّيته للمرة الأخيرة؛ انتظر قليلًا، أغمض عينيه، سحب هواءً ملأ به صدره، وأفرغه على مهل، ضغط على عبوة الكيروسين، ثم حسم أمره. أشعل طرف القماش النافر من فم العبوة وألقاها داخل المستودع وعاد سريعًا يراقب بقلق ظلال اللهب المتعاظم تعبر وجهه في طريقها لغمر كل شيء.

انتبه روّاد الفندق فبدأ الصراخ في التعالي. حين بدأ الناس في التجمّع أيقن داويتْ أنّ لحظته حانتْ، فخرج أمامهم ينثر التراب على النيران وهي تُخرِجُ لسانها يتطاول عبر نافذة المستودع. تبعه آخرون في جهود عابثة. كانتْ سابا قد وصلتْ أخيرًا تلتحف رداءً والفزع بادٍ عليها. تظاهر داويتْ بالبحث عن وسيلة أخرى يُطفئ بها النيران حتى خرج بإحدى إنبوبتَي إطفاء الحريق وأخذ يفرغها بشدة على النافذة. تراجع الناس وأخذوا يراقبون الرجل يتقدّم غير آبهٍ حتى لحقتْ به مجموعة تحمل أنابيب أخرى فاستطاعوا السيطرة على الحريق بعد أن أتى على المستودع بأكمله لكن قبل أن يصل إلى حيث غرف النزلاء.

جلس داويتْ على الأرض يسعل منهَكًا، تلتصقُ بوجهه وذراعيه طبقة دخان فاحمة. هرولتْ إليه سابا تُقبّله وتُغدق عليه عبارات الامتنان وتُقدّم له الماء، وتطلب منه أن يستريح وهي تُخبره أن

الطبيب في الطريق. ثم بعد أن انتهى كل ذلك دعته ليقضي ليلته في الفندق.

في اليوم التالي، وبعد أن تناول أدويته، قضى النهار بأكمله ممددًا على سرير مريح، بقميص أزرق مقلم أهدته إياه صاحبة الفندق. على طاولة أمامه تستقرّ سلّة فواكه تشغل المائدة بين الوجبات، بينما تتردَّد عليه مالكة الفندق لتسأله في كل مرة إن كان يرغب في شيء آخر، وهي تكّرر كلمات الشكر المختلطة بشيء من تأنيب الضمير عما بدر منها سابقا. كانت سابا كمن غيّر جلده بالكامل، نزعتْ عنها تلك الملامح الفاترة التي استقبلته بها، وأبدلتها بأخرى تشبه لهفة الأمهات.

تحوّلتْ إلى جدّة ثرثارة، حكتْ له عن نفسها، وعن المكان وعن العاملين فيه. أخبرته أنها قَدِمتْ منذ عقدين إلى غوندار برفقة زوجها الذي اشترى مبنى متهالكًا وأعاد ترميمه ليحوّله إلى أهم فندق في المدينة. قالت له إنَّ الأمور مرّت بسهولة في وجود الزوج وحتى بعد رحيله قبل أعوام قليلة. فسَّرتْ ذلك أنَّها من قومية الأمهرا فيما سكّان غوندار في غالبيتهم من التغراي. التفتتْ إلى داويتْ لترى إن كان فهم ما ترمي إليه، حينها اضطرتْ للشرح أكثر:

«يشعر الناس هنا بتبجيل أكبر لقوميتنا، ربما بسبب عددنا، أو لأننا حكمنا طويلًا، أو لسبب لا أعرفه».

جهد داويتْ كي لا يظهر عليه أثر كلامها وهو يعرف تمامًا أنّ الضعيف لا يستمر في بذل التبجيل ما لم يلق ذلك هوى لدى القويّ المتسلّط. لكنَّه في الآن نفسه استغرب أن تكون صريحة معه إلى هذا الحد.

حين فرغتْ أرادتْ أن تسمع منه، فبدأ يحكي بتردد حكايته الطويلة. ليس كما جرتْ بالضبط، لكن كما أراد لها أن تبدو وفي ذهنه

أن هذه فرصته للنجاة... خلط ما يكفي من الحقيقة بالضروريّ من الكذب. أخبرها أنّ ديفيد هو اسمه الذي تركه خلفه ولا يريد العودة إليه، وأنه إرتريّ غادر بلده مقهورًا إلى مخيّم إنداباغونا للاجئين في تغراي بعد أن باع ما يملك ليدفع ثمن تهريبه. قابلتْ حديثه بملامح متشكّكة، قبل أن تعتذر وتطلب منه أن يكمل. أصرّ أن يعرف ما جال بخاطرها، فأخبرته أنها منذ اللحظة الأولى تعرف أنه إرتريّ، فلكنته ليستْ أصيلة، وقد قابلتْ كثيرين ممن يتحدثون الأمهرية بهذه اللكنة وجميعهم تعلموها في العسكرية الإرترية.

ابتلع داويتْ المفاجأة وهزّ رأسه موافقًا، وقد فَهِم سرّ صراحتها معه، لكنَّه خشي أنّ ما ذكرته أقلّ ممّا تعرف. عاد إلى حكايته، قال لها إنّ الحياة العادية، لكن الآمنة في الوقت عينه، كانت أقصى أمانيه، ليفاجأ بالمخيم وقد أصبح جحيمًا آخر، خاصة بعد أنْ عجز عن دفع ما عليه للمهرّبين الذين لاحقوه مطالبين بأموالهم، قبل أنْ يتحوّل الأمر إلى التهديد بالقتل. هرب منهم إلى غوندار وكلّ همّه أنْ يجمع مالًا يُعينه على الالتحاق بمخيم الفلاشا ومن هناك يسافر إلى إسرائيل قبل أن يتمكّن منه مطاردوه.

صمت قليلًا قبل أنْ يعترف لها برغبته في دفع رشوة ليتم قبوله. خشي أنْ يأتي كلامه بغير ما يتمنّى، لكنّه اختار أنْ يتجه صوب هدفه بوضوح ما دام أنّها اختارت الطريق ذاته. كما أنّه كان يعوّل على شعورها الكبير بالامتنان الذي أبدته وعلى استعدادها لمساعدته. وقد حدث، إذ تجاوزتْ سابا عمّا يخشاه، لكنها توقفتْ عند أمر آخر:

«هل تظنّ أنّ المال وحده هو ما يحول بينك وبين غوندار؟»

تحفّز الرجل ونظر في عينيّ سابا يرجوها أن تشرح أكثر.

«بوابة المخيم تفصل بين عالمَيْن. في الداخل لغة مختلفة وديانة لا تعرف عنها شيئًا، وأناس لا تُشبههم. أنت حتى لا تعرف أنك تُسيء إليهم حين تُناديهم بالفلاشا، وهي صفتهم قبل العودة إلى ديانتهم، حين كانوا أغرابًا يعتنقون ديانة إسلامية أو مسيحية أو وثنية. هم يُسمّون أنفسهم بيتا إسرائيل».

أرخى داويتْ رأسه، وقد تملّكه الغمّ، لكنّ سابا عادتْ لتفتح كوة أمل:

«إذا قضيتَ معي ما يكفي من الوقت قد أستطيع تعليمك ما تحتاجه لدخول المخيم، وستكون فرصة لتجمع المال اللازم أيضًا».

سأل داويتْ عن الوقت متعلّلًا بخشيته من المهربين، فجاءه الرد سريعًا:

«هذا يعتمد عليك. لكنّك هنا ستكون في حمايتي دائمًا ولن يقترب منك أحد».

تمنّى ألّا تكون سابا هي الشخص الوحيد اللطيف معه في غوندار. هكذا كان يفكّر وهو يواصل طريقه متجاوزًا العجوز اللئيمة، بينما يمسح ما علق به من الماء الآسن.

قصد مكتب التسجيل الذي يتوسّط المخيم. قابله الموظف بابتسامة وهو يسأله عن اسمه. لكنَّه لَمَّ ابتسامته الواسعة واستبدلها بتكشيرة كبيرة ما إن سمعه يجيب: «داويتْ إلياس».

بطريقة آلية منحه أوراقًا كثيرة يضع عليها بصماته، وهو يرمقه بنظرات حادّة. التقط له صورة، وأرشده إلى مواعيد دروس العبرية والدِّين. همّ داويتْ بالمغادرة فجاءه صوت الموظف وهو يتصنّع اللامبالاة ويرتّب أوراقًا على مكتبه:

«كم دفعتَ لتكون هنا؟»

فوجئ داويتْ بالسؤال، وتحيّر كيف وصل سره الكبير إلى موظف التسجيل.

دخل رجلان المكتب فبادر الموظف إلى الترحيب بهما وهو يطلبُ من داويتْ بنبرة تعمّد أن تبدو حانية، الالتزام بجدول الدروس ليعوّض ما فاته. قبل أن يُردِف:

«عليك قبل هذا أن تمرّ على الكنيس. هناك ينتظرك الحاخامات».

خرج داويتْ قلقًا من ذيوع ما كان يظنّه سرّا. خشي أن يعتقد الرجال الخمسة أنَّه من نشر الخبر. لن يكون حينها قادرًا على إثبات العكس. بخطوات ثقيلة حمل أرواقه وقصد المعبد.

سور منخفض يحيط بمبنى أبيض متهالك رغم حداثة طلائه. في ساحته الخارجية ظهر له عدد من رجال الدِّين. تقدّم تجاه الباب، لكنّه توقّف عند عتبته. حاول تهدئة نفسه وهو يتذكّر الوقت الذي قضاه برفقة سابا يتجهّز لما سيلاقيه هنا. تذكّر حين أخبرته أنّ جميع مَن بالمخيم يُنظر إليهم كعائدين إلى اليهودية بعد أن حرفتهم أوضاعهم السابقة إلى ديانات أخرى، لذا يمرّون بطقوس تطهّر إلزامية، ويتم تعليمهم الحد الأدنى من الشريعة اليهودية تحضيرًا لرحلتهم إلى أرض الميعاد.

دلف إلى الداخل أخيرًا. ساحة رملية تنتهي بالمبنى الأبيض تبرز في نهاياته العليا مجسّمات لشمعدانات جبسية مصبوغة بالأصفر. في الأسفل كانت هناك ثلاثة مداخل وقف أمامها محتارًا. خرجتْ من إحداها امرأة تلتحف رداء يغطّيها بالكامل وهي تسترق النظر إليه وتحثّ خطاها باتجاه غرفة جانبية. بقي أمامه مدخلان. اختار أكبرهما. كاد يدخل قبل أن يأتيه صوت من ورائه:

«ميكيفيه؟»

أومأ داويتْ موافقًا، فأردف رجل الدِّين: «التعميد من الباب الآخر»، وهو يتفرّس ملامح الوافد الجديد، والأوراق التي يحملها حتى غاب عنه في المبنى. في الداخل استقبله حاخام أخذ منه ورقة ممهورة من مكتب التسجيل وطلب منه البقاء جانبًا. بدا المكان كحمّام عموميّ بأبواب عديدة تفوح منه روائح معقّمات وتغمره رطوبة عالية، بينما تتردَّد أصوات مياه ترتطم ببلاط المكان.

«داويتْ إلياس».

تبع مصدر النداء. أمره الحاخام بالاغتسال وتنظيف أسنانه وتقليم أظافره، قبل العودة إليه مجدَّدًا. حين انتهى تَبِعَ رجل الدِّين إلى إحدى الغرف ليجد حوضًا طينيًا بعرض مترين مملوءًا إلى آخره بماء ينبعث منه بخار ساخن، وعلى جانبيه أربعة حاخامات آخرين، سرعان ما انزوى ثلاثة منهم خلف ستار يحجبهم عن القادم للتعميد ويُبقيهم على اتصال مع رفيقهم الرابع. لم يكد يستوعب داويتْ المكان حتى طلب منه الحاخام أن يخلع ملابسه، وأي أقراط أو خواتم يرتديها. كان على علم مسبق بما هو مقبل عليه. وضع رداءه ليُصبح عاري الصدر، لكن الرجل أشار إلى بنطاله أيضًا. أخرجه سريعًا وَهَمَّ بدخول الحوض غير أنّ الحاخام طلب خلع آخر قطعة تستر جسده. تردد داويتْ قليلًا وقد أدرك قصور معرفته، قبل أن ينصاع أخيرًا ويخلع سرواله الداخلي، وهو يغطي بيده ما بين فخذيه. مجددًا أراد أن يغمر نفسه في الماء كي يُداري عريه لكنّ رجل الدين أوقفه، وهو يأمره برفع يده. كان واضحًا أنه يريد رؤية ما يجتهد في محاولة إخفائه. رفع يده ببطء بعد أن أغمض عينيه.

«حسنًا... سبق له الختان».

نطق بها بنبرة ساخرة، وهو يلتفتُ صوب البقية خلف الستار قبل أن يُتمتم آخر بإشفاق:

«لا بأس. المهم أنه عاد إلى ملّته أخيرًا».

نال ما يُشبه الإشارة له أن يغطس في الحوض، فسارع ليستر عُريه. بدا الحاخام حريصًا على أن يغمر الماء كل بقعة في جسد المُعَمَّد، فكان يطالبه بتكرار الغطس، بينما اكتفى داويتْ وهو يستعجل الخروج بغمر عنقه وملامسة ذقنه للماء، قبل أن يقوم رجل الدين أخيرًا بدفع رأسه إلى الأسفل بقوة والإبقاء عليه مغمورًا كاملًا، وهو يتلو الشهادة بنبرة تعلو بتسارع ضاغطًا على الأحرف الأخيرة:

«اعلم يا إسرائيل... الربّ إلهنا ربّ واحد... أحببْ الرب إلهك من كل قلبك ونفسك وقوتك... اربطها علامة على يدك ولتكن عصابة بين عينيك. اعلم يا إسرائيل...».

انتفض داويتْ رافعًا رأسه وهو يسعل وينثر الماء عن فمه وأنفه بعد أن بلغ تحمّله منتهاه. ضحك الحاخامات قبل أن يكمل رجل الدِّين صلاته على عجل، ويُبشّره بانتهاء «البيكيفيه» وبداية عودته إلى دِيْن الأسلاف بعد سنوات التيه.

***

كان يستعيد كل ذلك كومضات خاطفة، حتى فَقَدَ شعور جبهته بسخونة أرض المطار، فأدرك طول مكوثه ساجدًا. لكنّ ذلك لم يكن وحده السبب الذي نبّهه؛ فقد أحسّ بقدم تكاد تلامسه. رفع جبينه فكان حاخام مُستبَزّ الملامح يقف فوق رأسه تمامًا، وقد نفد صبره.

(6)

بالكاد وجد مكانًا لقدمَيْه قرب المخرج في الحافلة الأخيرة، حتى أُغلقتْ الأبواب من خلفه وهي تصدر صريرًا خافتًا.

قرأ حنقًا في عيون من حوله وقد انتظروا قدومه كثيرًا.

أحدهم في المقدمة تلفّظ بكلمات استطاع داويتْ أن يلتقط منها ما يفيد أنّه بالغ في التمثيل، آخر إلى جواره تعمّد أن يقابل التعليق بالضحك في وجهه. أما هو فقد اختار أن يتجاهل كلَّ ذلك ويُعطي ظهره للسائق ليقابل واجهة زجاجية واسعة. كان الحاخام الذي أمره بالنهوض عن أرضية المطار قد استقرّ في المقعد الخلفي لسيارة سوداء واسعة ما إن تحركتْ حتى تبعتها الحافلات الرابضة في مدرج مطار بن غوريون.

ببطء كانت القافلة تسير على الأرضية الرمادية كثيرة الشقوق يقابلها اهتزاز يسري في جسد الحافلة حتى يصل إلى العامود الذي يُمسك به داويتْ، وهو يُطالع اتساع المسافة التي تفصله عن الطائرة التي جلبته من إثيوبيا. لم يتفهّم شعوره حيال هذه الأمتار التي تباعد بينه وبين ماضٍ كان حتى قبل ساعات هو الحياة الوحيدة الممكنة. ببطء توقفتْ الحافلة فبدا ذلك مفاجئًا لفرط ما اصطدم الركاب

ببعضهم. نَظَرَ خلفه جهة السائق، كانت الحافلات جميعها متوقفة تتنظر عبور طائرة حطّتْ الآن، قبل أن تواصل التقدم بالبطء ذاته. كان غريبًا أنه يحتاج للالتفات خلفه ليعرف إلى أين يمضي.

توقفتْ الحافلات أمام صالة تحمل الرقم 24 على مدخلها يقف رجال أمن وحاخامات. مال الركّاب تجاه الباب فوجد داويت نفسه محشورًا بين الزجاج والأجساد المتدافعة، دون أن يتمكّن من التملّص.

فُتحتْ أبواب الحافلات في وقت واحد. تفادى السقوط بكثير من الجهد لفرط ما تعرّض للدفع، قبل أن ينتظم في طابور انصياعًا لأوامر أمن المطار. شعر بالراحة وقد تمكّن من التأخّر قليلًا مستغلًا تحايل البقية ليتقدّموا عليه في الترتيب. كان في المقابل يتحايل كي يُمكّنهم من ذلك دون أن يبدو متعمّدًا. التفت خلفه فوجد امرأة مع طفليها، أشار لها أن تأخذ مكانه، تقدّمت وهي تشكره بامتنان. فكر أن عليه ألّا يبالغ في التراجع حتى لا يلفت الانتباه، لكنه اضطر مجددًا أن يسمح لمن خلفه بالتقدم عليه بمجرد أن لمح جارته العجوز صاحبة زوج الأسنان الوحيد الذي يتوسّط فكها العلوي تمرّ إلى جواره وهي تحاول اصطياد مكان متقدّم. ها هو يُطبّق تعليمات سابا التي ما فتئتْ تطلب منه أن يتجاهل العجوز حتى يُحقق مراده.

***

لكن العجوز لم تكن وحدها من يتربّص به، لوهلة شَعَرَ أن غوندار بأسرها تعرف سرّه وتستمتع بإيذائه كلما كان ذلك ممكنًا. لهذا، ورغم مرور وقت على وجوده في المخيم لا يزال يُسرع الخُطى إلى وجهته وهو يتلفّتُ حوله خشية تعرّضه للأذى بعد أنّ مرّ بتجربة سيئة

في أسبوعه الأول فقط. يومها كان في طريقه إلى درس اللغة العبرية. وكان يسير باسترخاء والوقت مبكر على موعد درسه. وجد صبية يلعبون الكرة فتوقّف يُشاهدهم وهو يبتسم لمهارات يُبديها أحدهم. انتبهوا لوجوده فتوقفوا عن اللعب وهم يُشيرون إليه. أشار لهم محيّيًا وقد اتسعتْ ابتسامته، لكنَّه فوجيء بهم يلتقطون الحجارة ويركضون نحوه. لم يكن على يقين من نواياهم حتى قذف أحدهم بحجر كبير تجاهه، فركض وسْعَ طاقته والحجارة تتناثر من حوله. أصابه أحدها في كتفه دون أن يُجبره ذلك على التوقف. حين ابتعد توقّف الصبية وهم غارقون في الضحك. لكن داويتْ، وبسبب خوفه، لم يتوقّف إلا حين غاب عن أنظارهم تمامًا. كان يستجمع أنفاسه بينما ظهر إلى جواره رجلٌ يلتحف رداء مهلهلًا وعلى وجهه ابتسامة شامتة سرعان ما تحولتْ إلى ضحكة مكتومة. شعر داويتْ بالغيظ. اقترب يسأله، لكنّ الرجل دفعه بغلظة وهو يصفه باللص.

طرق على الباب وهو يُصلح من هندامه.

كان قد تأخر قليلًا وقد اكتشف أنه ركض في الاتجاه المعاكس لمكان الدرس، فأخذ يتسلّل عائدًا من بعيد كي لا يلمحه الصبية مجددًا. حين مرّ بموازاتهم، كان يرمقهم بطرف عينه وأراحه كثيرًا أنَّهم كانوا منغمسين في اللعبة بالكامل.

أشارتْ له المعلمة فتوجّه لمكانه وهو يشعر بالعيون تلاحقه. بمجرد أن جلس على كرسيه الخشبي المثقوب واصلتْ المعلمة ما كانتْ قد بدأته قبل قدومه فانزاحتْ العيون عنه إليها:

«حسنًا... كيف نعبّر عن موافقتنا؟»

«كِنْ». أجاب الدارسون بصوت واحد. كانوا قرابة العشرة من أعمار متفاوتة. كلهم عائدون جدد إلى اليهودية.

«الرفض؟» سألتْ.

«لُو».

شرع داويتْ في كتابة ما سمع. حين رفع رأسه وجد المعلمة في انتظار أن يفرغ من الكتابة حتى تواصل. بدتْ شديدة اللطف معه منذ درسه الأول، حين لاحظتْ حماسته الشديدة لإتقان اللغة. علم أنها قادمة من العاصمة حيث تعلّمتْ العبرية في الجامعة هناك. زملاؤه لم يكونوا باللطف نفسه. صحيح أنهم لم يُسيؤوا إليه، لكنَّهم في المقابل لم يُظهروا أيّ نوع من التودد. كانت نظرات الارتياب كحائط صدّ أمام محاولاته التقرّب منهم.

خطَّتْ المعلمة بالأمهرية على اللوح الأسود: لطفًا، شكرًا، شكرًا جزيلًا، أهلًا بك. تركتْ مساحة أمام كل كلمة، قبل أن تلتفتَ إليهم وتبدأ في التمهيد لدرس عبارات الترحيب. لأول مرة يشعر داويتْ بقيمة تلك الأوقات المملّة الإجبارية في فندق سابا، حين أجبرته على تعلّم أكبر قدر من العبرية.

«بكاشاه... بكاشاه».

ردد الدارسون وراء المعلمة بينما تكتب الكلمة العبرية في المساحة أمام كلمة لطفًا. ثم انتقلتْ إلى بقية الكلمات:

«تودا... تودا».

«تودا رابّاه... تودا رابّاه».

«عال لو دافار.. عال لو دافار».

استغرق داويتْ في الكتابة بينما تتنظره المعلمة. حين تأخر سألته بالعبرية: هل انتهيتْ؟

«سليخا».

علتْ الدهشة ملامح المعلمة من رد داويتْ التلقائي باللغة نفسها. ومثلها كان بقية زملائه في الصف. أمّا هو فقد ابتسم مرتبكًا قبل أن يشرح لها أنه يقضي وقتًا أطول في البيت يتعلّم كلمات جديدة، وأنّ كلمة «عذرًا» بالكاد حفظها بالأمس، لكنَّه متفاجئ لتسللها السريع إلى لسانه.

حين انتهى الدرس وبدأ الجميع في المغادرة، استبقته المعلمة لتخبره أنّها وبسبب حرصه ومثابرته ستكتب توصية ليتم الاعتناء به أكثر في دروس «الأولبان» في إسرائيل. شكرها بتلعثم قبل أن يرجوها ألّا تفعل. أقنعها أنه يود تعلّم اللغة دون أن يحظى بأي تفضيل، وأنّ هذا يساعده أكثر. وحين وجدها قد ركنتْ إلى رأيه تمامًا، انتقل إلى أمر آخر:

«هل يمكن لكَ أن تمنحيني قلمك هذا؟»

دون أن تفهم المعلمة المغزى بادرتْ إلى تحقيق رغبته، بينما خرج مرتاحًا لتجنّبه مأزقًا كان سيضيف له متاعب أكثر، وهو لا يزال يعاني من شيوع قصته في المخيم. في الطريق كان يمرّر يده على القلم بلذة آخذة في التزايد.

«كيف مضى اليوم؟»

وجد سابا في انتظاره تسأل بملامح باسمة. خَيَّرَتْهُ بين أنْ يستقلا السيارة أو يتمشيا على الأقدام. انحاز إلى الخيار الثاني، وشرع يحكي ما جرى معه خلال اليوم، بدأ بدروس اللغة، ثم حكى لها عمّا حصل له مع الصبية المؤذين، وأخيرًا تَصَرُّف جارته العجور اللئيمة. تذكر أنه نسي شيئًا بمجرد أن لمح رجلًا يعرفه. كان هو الرجل صاحب الرداء المهلهل والابتسامة الشامتة الذي وصفه باللص. لكنَّه هذه المرة، وحين وجد داويتْ برفقة سابا، انحنى لهما بإجلال وهو يردد: سادتي... سادتي.

وضعتْ سابا في يده مالًا فقبّل يدها بتذلّل، ثم انتقل ليقبّل يد داويتْ الذي تفاداه غير مصدّق أنه الشخص نفسه.

تجاوزاه، ومع هذا ظلّ داويتْ يتلفّتُ خلفه. حين انتهى الرجل من تفقّد العطية رفع رأسه فالتقتْ عيناهما. هنا لمح داويتْ شيئًا من تلك الابتسامة وقد بدأتْ في التشكّل.

حين نقل لها دهشته من تصرّف الرجل قابلتْ ذلك بنصف إجابة، وهي تمضي تجاه مصطبة طينية:

«هكذا هي الحياة هنا».

مع الوقت تمكّن من إكمال جواب سابا؛ الناس هنا جميعهم مثله ينشدون النجاة بكل طاقتهم، ولا يهمهم مَن يسقط وسط الطريق. يُطَأطئون الرأس لمَن فوقهم، ولا يُضيّعون فرصة إذلال من دونهم. النجاة أحيانًا تحدث بانكسار الآخرين أكثر منها بسلامتنا من الضرر. لكنّ هذا لم يأتِ عبثًا، إنه نوع من الحماية، وخشية من الانكشاف.

يذكر تمامًا حين فرغ من درس الدِّين وغافلَ الحرّاس ليغادر المخيم تحت وطأة شعوره بالاختناق من البقاء بين أسواره ليلًا ونهارًا. طلب من سابا أن تساعده على الخروج غير أنها رفضتْ أن يخرق أهم شرط في منحه حق العيش في المخيم، وأن يعرّض مصيره كله للفشل. تظاهر بالاقتناع حتى همّت بالمغادرة فاندسّ في المقعد الخلفي لسيارتها، وهو يغطّي نفسه بردائه الأبيض حتى بلغتْ فندقها. هناك نزل بخفّة وأسرع بعيدًا. كان بحاجة لهذه الفسحة، ضاق بالعيون الناهشة، بالشتائم تتنكّب طريقه أيًا كانت الوجهة. أراد أن يسير دون أن يلفت انتباه أحد، أن يعود مجهولًا بعد أن تأكد أن جميع مَنْ بالمخيم يعرفون قصته ويشعرون تجاهه بالحنق.

سار في شوارع المدينة مستعيدًا لحظة قدومه الأولى، لكنّ الحال تغيَّرت كثيرًا. صحيح أنّه ليس مرتاحًا تمامًا، لكنّه لم يعد ذلك الشريد الذي لا يجد مأوى يضمه. ملأ صدره بالهواء، وقد بان أمامه المشوار الطويل الذي قطعه بين تلك اللحظة واقترابه من الرحيل إلى إسرائيل. رفع رأسه إلى السماء يودّ احتضان المدى أمامه غير أنه سرعان ما خفضها ليتجنّب حجرًا رُمي باتجاهه:

«ابتعد من هنا يا عبد».

كانوا مجموعة من الرعاة يجلسون على تلّة صغيرة فيما ماشيتهم ترعى على مسافة غير بعيدة منهم. استغرب داويتْ فعلتهم، لكنه لم يجد فرصة ليفكر في استغرابه، إذ لاحظ أنهم يهمّون بالتقاط حجارة أخرى، فغادر مسرعًا تقوده خطواته إلى فندق سابا. تردَّد قليلًا قبل الدخول، لكنّه لم يجد خيارًا آخر. حين رأته استغرقتْ في الضحك، بينما كان يعتقد أنه سيثير غضبها.

«لم أتوقع أن تعود بهذه السرعة».

أخبرته أنها كانت تعلم باختبائه في سيارتها، وأنها لم ترد أن تقف في وجه إصراره، ووجدتها فرصة أن يرى بنفسه لماذا لا يراد لأحد من بيتا إسرائيل أن يغادر السور.

«هل آذوك كثيرًا؟ أشعر بالذنب لأني تركتك تذهب بردائك هذا الذي لا يلبسه بهذه الطريقة إلا أهالي المخيم».

شعر داويتْ بالغيظ يتسلّل إلى نفسه عوض خشيته من إغضابها. سألها لماذا يعامل أهل المدينة بيتا إسرائيل بهذه الغلظة. أجابته بأنه خليط من شعور بالحسد والازدراء، فمن جهة، وعبر الزمن، لا كرامة ليهوديّ هنا. ومن جهة أخرى الجميع يتمنون أن يجدوا نصف ما

يجده بيتا إسرائيل من غذاء وعناية. أراد أن يسأل أكثر لكنه انتبه أنه قد أصبح يتحدث بلسان المخيم ضد الآخرين، وهو بالكاد يجد فيه كرامة ومأوى.

***

«هل أصبح الوضع أفضل الآن؟»

سألته سابا وهما يجلسان على المصطبة الطينية يراقبان نسوة يجهدن في قطع جذوع شجرة عارية بفؤوس صدئة. أشهر طويلة مرّتْ على وجوده في غوندار، وقد اقترب موعد مغادرته كثيرًا. لم يتغيّر شيء، كثيرون يعاملونه بقسوة، وآخرون يتجاهلونه، وقد يهربون منه، لكنّ مناعته صارتْ أُقوى. أحيانًا يبتسم متجاهلًا ويمضي، وأحيانًا يحاول التصديّ لمن يعتدي عليه. يكاد يُتقن العبرية، ليضيفها إلى العربية والأمهرية والإنجليزية التي تعلّمها في الميدان، بينما لم تُضف له دورس الدِّين كثيرًا عمّا تعلّمه من سابا قبل التحاقه بالمخيم. يشعر بأُلفة مع المكان رغم كل شيء، لكنَّه يرتعب لفكرة ألّا يغادره إلى إسرائيل. يحبّ سابا لكنه يعرف تمامًا عيوبها، يعرف أنها لم تكن لتلتفت إليه لولا اعتقادها أنه أنقذ فندقها. يشعر أنها رأتْ فيه غرضًا ليس إلا. وهو يخشى أن ينفد رصيده لديها قبل موعد سفره.

هو يكره الناس هنا، لكنه يتفهّم حاجتهم إلى النجاة. يشعر ويرتعب ويحبّ ويعرف ويخشى ويكره ويتفهّم، لكنّه حين أراد أن يجيب على سؤال سابا، تجاهل كل ذلك واكتفى بنصف إجابة أيضًا:

«إلى حد ما».

وضعتْ النسوة الفؤوس جانبًا وتحلَّقْنَ على الأرض قبل أن

تبدأ إحداهنّ في الغناء ليتبعها البقية والأكفّ تضبط الإيقاع وترفع من وتيرته. بدأتْ سابا تطرق على المصطبة في انتشاء وهي ترافق الكلمات بهزّ رأسها، قبل أن تلتفت إلى داويتْ الذي كان يراقبها باسمًا:

«لا بدَّ أنّكَ انتبهتَ إلى أنّ الناس هنا يتصبّرون بالغناء. يغنّون حين يحزنون، وحين يفرحون، وحين لا يجدون شيئًا يفعلونه».

أَومأَ داويتْ موافقًا فأتاح لسابا أن تواصل الحديث:

«هم يؤمنون أنّ الغناء لغتهم الأم، وأنهم لم يستبدلوه بالكلام إلا حين تاهوا وخالطوا الآخرين، لذا كلما غنّوا اقتربوا من حالتهم الأولى. الغناء يعود بأرواحهم إلى أورشاليم، إلى أرض الميعاد قبل أن يتحقق ذلك لأجسادهم».

***

ها هي أرض الميعاد أخيرًا، هل سيتوقفون عن الغناء إذن؟

خطر هذا السؤال لداويتْ وهو يجد نفسه وسط صفوف تتقدّم صوب قاعة فارغة تنتهي بأكشاك موظفي جوازات مطار بن غوريون الذين يفحصون بكثير من الصبر المضجر أوراق القادمين ويختمونها ليتيحوا لهم العبور نحو باب زجاجيّ يفتح على مكان يموج بالناس من سحنات مختلفة.

خفق قلب داويتْ بشدة وهو يرى الحشود في كل الاتجاهات. بدا المكان مختلفًا كثيرًا، بدا لائقًا جدًا بالحياة التي كان ينتظرها دون أن يكون قادرًا على تخيّلها يومًا. هذه هي إذن الحياة الأخرى، الحياة المنتظرة، وقد جاءتْ الآن.

(7)

وضع الحقيبة في الجهاز بخفّة، وانطلق يلتقيها في الجهة الأخرى، غير أنّ الجندي قبالته أشار له بالعودة وهو يتفرّس في الشاشة أمامه. تحرك السير في الاتجاه المعاكس فعادت الحقيبة، والكل ينظر إليها وإلى صاحبها بريبة. تحرّكتْ مجددًا وغابت في صندوق التفتيش الآلي. عَبَرَ الرجل ينتظرها في الجانب المقابل، لكنّ الجنديّ أعادها من حيث أتت مجددًا. أراد أن يسأل فوجد الجنديّ قد انشغل بالحديث إلى زميله. تقدّم قليلًا فتلقّى إشارة صارمة بالبقاء مكانه. التفت إلى زوجته فوجدها قد تجاوزت التفتيش وظلّتْ تنتظره بقلق.

كان الصف من بعده قد استطال، وبدأتْ أصوات التململ تعلو، فما كان من الجندي إلا أن أمره بالتنحيّ جانبًا ليخضع حقيبته لتفتيش يدويّ، وأشار لمن بعده بالمرور. مرة أخرى، نظر الرجل إلى حيث تقف زوجته. كانت شاهدة على ما يجري، ترصَّد إذلاله في عيون المسافرين من حوله، فيما جنديان وبحذر شديد ينثران محتويات الحقيبة على الملأ، وهما يرمقانه بنظرات متشكّكة.

«تفضّل».

استفاق داويتْ على صوت جنديّ بعد أن كان منشغلًا بما

يحدث للعربيّ في المسار المجاور. خشي أن يلاقي مصيره، وهو يضع حقيبته بتردد في جهاز التفتيش الآلي، وينتصب متحفّزًا ينتظر عبورها ببطء وهو يتمعّن في ملامح رجل الأمن التي ظلّت على هدوئها. أمسك حقيبته والتفت إلى الجنديّ يترقّب قراره، فوجده يُشير لمسافر آخر بالعبور.

عاد بنظره إلى العربيّ. كان لا يزال على حاله، يقرض أصابعه بتوتّر وهو يرقب أغراضه تتناثر، قبل أن تأتيه الإشارة أخيرًا بلملمتها، فيما المسافرون إلى جواره يعبرون واحدًا تلو الآخر دون أن يستوقفهم الجهاز أو الجنديّ.

شعر داويتْ بالتعاطف مع الرجل. ربما لأنه يعرف تمامًا طعم الإذلال، وقد جرّبه في بلده أول مرة قبل أن يعتاد عليه في مخيم إنداغابونا الذي وصله وهو يتقافز من السعادة رغم إنهاكه في رحلة هروب طويلة من «الوادي الأزرق»إلى شمال إثيوبيا.

***

كانت رحلة يائسة لا تحتمل سوى خاتمتين؛ إما الوصول إلى الوجهة الأخيرة، أو القتل على يد رجال الأمن. ومع هذا فقد أقدم عليها «داود» حين تساوى عنده الموت والحياة في معسكر التجنيد الإجباري. لذا حين عبر الحدود، برفقة عشرات، كان على خلافهم تمامًا؛ فقد توقّف لينظر وراءه. أراد أن يستشعر حقيقة النجاة، حقيقة مفارقة الإذلال إلى الأبد. هناك خلف تلك الجبال البعيدة التي استنفدتْ طاقته وهو يتسلّق بعضها ويلتف خلف الآخر، تقع إرتريا. ليس ثَمَّةَ حنين داخله على الإطلاق. كان الحنين يتساقط من روحه مع كل خطوة يخطوها في الاتجاه المقابل. كان يتطهّر بالبعد عن

الوادي الأزرق، يُفرغ رصيده من القهر في محاولة العودة إلى روحه قبل أن تلتصق بها النتوءات والندوب.

«هيا... بسرعة... من هنا».

على مدخل انداغابونا كانت ثَمَّةَ حاجة أخرى للنجاة، هذه المرة من جنديّ إثيوبيّ يرشد القادمين بسوطه للاصطفاف بطريقة صحيحة. أخطأ السوط داود لكنه أصاب امرأة خلفه حرمتها المفاجأة فرصة الهرب بعيدًا. اصطفّ الجميع بشكل حلزوني أتاح استيعاب أعداد كبيرة أمام مكتب التسجيل، بينما كان الجنديّ لا يزال يمارس متعته في تقويم الصفوف، أو بعثرتها إذا استقامتْ بمعزل عنه، ويتفنّن بساديّة في رسم انحناءاتها بسوطه الثقيل.

كان مكتب التسجيل بمثابة بوابة للمخيم المترامي الجهات. خلفه تتناثر خيام متفاوتة الأحجام غالبها مهترئ حيث لم يعد سهلًا رؤية الشعار الأزرق المطبوع على واجهاتها يشير للمفوضية الأممية لشؤون اللاجئين.

يمرّ الوقت دون أن يأتي دور داود، مع الحشود الكثيفة التي تصطفّ أمامه، وبطء إجراءات مكتب التسجيل، والشمس التي تعامدت فوق الرؤوس مباشرة. جلس على الأرض، تشاغل برسم دوائر اعتباطية على الرمل، مرّر يديه على السوار الصوفي الذي يتعاقد فيه اللونان الأبيض والأسود حول معصمه. أغمض عينيه، رأى سوادًا، فتحها فأوجعته الشمس التي كانت تنتظره عند الحدقات. وضع رأسه بين ركبتيه، رفعها، أعادها ثانية، ولم يتغيّر شيء، لا يزال بعيدًا عن مكتب التسجيل.

«لا تخبرهم أنك مسلم».

قاوم داود فضوله كي لا يلتفت إلى مصدر الصوت الخفيض. بقَدْر ما أراد أن يتابع حوار شابّين خلفه، خشي أن يمنعهما انتباهه من المواصلة.

«منظمات الهجرة لن تلتفت لملفّك. سمعت هذا كثيرًا. سيخلقون الأعذار دون إخبارك بالسبب الحقيقيّ».

كان داود يعرف أنّ إنداغابونا مجرد مخيم استقبال، وأنّ ثمة فرصة ضئيلة لإعادة التوطين في دول أوروبية، بينما يتوزع البقية على مخيمات دائمة داخل إثيوبيا، وهذا ما جعله يتمنّى لو يشارك في الحوار، لو يستفسر أكثر، لكنّ الحديث الهامس كان علامة على سريّته. عمّ صمتٌ، وداود يخشى أن يكون الحوار مستمرًا دون أن تلتقط أذناه نبرته المنخفضة.

«وما العمل؟»

أنقذه سؤال الشاب الآخر، واستنفر حواسّه. استغلّ تعديل جلسته ليكسب بضعة سنتيمترات إلى الوراء، وظلّ متأهبًا ليسمع الإجابة التي تأخرتْ قليلًا قبل أن تأتي:

«افعل مثلي. لقد تخلّصتُ من أوراقي الثبوتية، واخترتُ اسمًا مسيحيًا».

قبيل الغروب، كان داود يقف أمام مكتب التسجيل، ينفض ما علق بملابسه، وهو يستمع إلى السؤال الموجّه له. أطرق يتأمل الخانة الخالية، والقلم الأزرق المصوّب عليها، رفع نظره قليلًا إلى اليد السمراء النافرة العروق، ومنها إلى الوجه الغاضب الذي ينتظر الإجابة. كرّر الموظف سؤاله بحنق، فيما داود يمرّر يده من جديد

على السوار الصوفيّ الذي يتعاقد فيه اللونان الأبيض والأسود، قبل أن يملأ الموظف خانة الاسم وفق ما سمعه:

«ديفيد».

***

«بوه ناليخ».

تبعت المجموعة القادمة من غوندار إشارة فتاة ترتدي بزة سوداء وتحمل لافتة مكتوب عليها «بيتا إسرائيل» بالعبرية والأمهرية. كان الحشد يسير ويتخبّط ببعضه وهو مأخوذ بمتاجر الهدايا والمشروبات الكحولية، قبل أن تسرقه الأعمدة الذهبية الشاهقة تسند سقفًا تتناثر عليه كرات بلّورية تضيء صالة القدوم في مطار بن غوريون. هذه الكتلة البشرية السوداء المذهولة بدتْ قادمة من حقبة سحيقة، وأثارت اهتمام العابرين الذين توقفوا على الجانبين للفرجة، فيما أخذ بعضهم يلتقط الصور.

داويتْ كان في الوسط، يُحكم غطاء رأسه كي يحجب أكبر قَدْر من ملامحه. لم يتخلّص بعد من إحساسه بالانكشاف، ولا يزال يشعر أنّ ملامحه تجذب الأنظار إليه، تُنادي على العابرين لتخبرهم أنّ اللصّ هنا، وبحوزته كل الأدلة على جرائمه.

سارتْ المجموعة في طريق نصف دائري انتهتْ بباب زجاجي ما إن فُتح تلقائيًا حتى تعالت الصرخاتْ وعمّ الضجيج. لم يتبيّن داويتْ ما كان يجري. الكثير من الأضواء الخاطفة تنبعث من كاميرات الصحفيين، وقوات الأمن تفصل بين فريقين، أحدهما يرحّب على استحياء بالقادمين، والآخر أكثر جرأة، يصرخ ويحمل لافتات تدعوهم للعودة بأمراضهم من حيث أتوا.

ارتبكتْ المجموعة، أراد بعضهم العودة إلى الداخل، غير أنّ المنظمين أمروهم بمواصلة السير.

«لما تبارتس؟ لما تبارتس؟»

اخترق صراخ فتاة بيضاء أذن داويتْ، وهي تسأل بحرقة عن سبب مجيئهم إلى بلادها. التفتَ إليها، فوجدها تنظر إليه بحدة، اختارته دون غيره لتصوّب عليه نظراتها الغاضبة. لم يعد يسمع صراخها، كان يتتبع عروق رقبتها الخضراء المنتفخة، وهي محقونة بالحقد. حين وصل أقرب نقطة منها، أشاح ببصره، وأسرع يتخطّاها تاركًا صراخها يحاول اللحاق به. ما إن ابتعد قليلًا حتى التفتَ يُعاين ما يجري خلفه، فاصطدم بحقيبة وأوقعها من يد صاحبها الذي سرعان ما دفعه وهو يشتمه، قبل أن يميل على سيدة بجواره وهو يتذمّر:

«هالعبيد عبّو البلد».

دون أن ينطق، رفع داويتْ يديه قرب رأسه معتذرًا وهو يبتعد مسرعًا، قبل أن تستوقفه ملامح الرجل؛ فقد كان هو نفسه ذاك العربيّ الذي فتشه الجنود بطريقة مهينة.

حين استدار يواصل طريقه ليلحق بالمجموعة، وقع بصره على لوحة زرقاء تُنير بأحرف عبرية وعربية وإنجليزية بارزة:

«مرحبًا بكم في إسرائيل».

(8)

«أسناسا... أسناسا».

فتح ديفيد عينيه بانزعاج وهو يتفادى بكفّه شمس الصباح، ويزيل عن وجهه وشعره التراب العالق بهما. لم يفهم سبب صراخ رجل فوق رأسه ومطالبته بالنهوض، حتى وهو يراه يكرّر ذلك مع النائمين إلى جواره.

كان قد قضى ليلته في العراء مع آخرين، لأنّ الموظف المنوط به توزيعهم على الخيام غادر مع الغروب. طاف المكان يبحث لنفسه عن زاوية تؤويه، غير أنّه كان يصطدم في كل مرة بالخيمة ممتلئة عن آخرها باللاجئين. أخيرًا وجد داخل خيمة صغيرة مساحة شاغرة تتسع بصعوبة لجسده الضئيل. ما إن تمدد حتى بدأتْ تتعالى الاعتراضات على وجوده. لم يُتح له الضوء الخافت تبيّن الوجوه. لم يكن على يقين إن كان هو المقصود. حاول تجاهلهم، لكنّ وتيرة الاحتجاج تصاعدتْ. كانت الأصوات تأتيه من كل اتجاه. ما إن أدرك أنها اعتراض على وجوده نهض من مكانه فأخذت الأصوات تخفت إلى أن توقفتْ وعمّ الصمت مع مغادرته للخيمة.

لم يدرِ ما يفعل. خطر له أن يواصل البحث عن خيمة شاغرة، غير

أنّ التعب كان قد استنفده وأقعده عن تكرار المحاولة. اختار خيمة قريبة، كوّم الرمل بمحاذاتها، وأسند رأسه عليه. لم يمضِ وقت حتى بدأ يلحظ آخرين يتمددون إلى جواره. دخل في لعبة مع نفسه؛ كان يعدّ كل من ينضم إلى المكان، إلى خيمته الوهمية المسقوفة بالسماء، أربعة، خمسة، سبعة، عشرة... غاب في النوم دون أن يُكمل لعبته، لكنَّه الآن حين التفت حوله عرف أنه كان يمكن للعبة أن تستغرق الليل كله.

«خذ... البس هذه».

ارتدى ديفيد قميصًا أخضر كان نصيبه من القمصان الملوّنة التي يرمي بها شخص يعتلي شاحنة مكشوفة تطوف إنداغابونا. لم يمرّ وقت حتى رأى كاميرا التلفزيون تطوف في المخيم وتجري مقابلات عشوائية مع لاجئين صَدَفَ أن كانوا متجّمعين قبل قدوم الكاميرا يستمعون إلى توجيهات أحد مسؤولي المكان. رفع ديفيد ياقة القيمص فحجبت جانبًا من خدّيه، وغادر يتجنّب محيط الكاميرا.

قصد الموظف المسؤول عن توزيع اللاجئين على الخيام. حين رآه يشرع في البحث عن الخيام الشاغرة في سجلاته، لم يفتْه أن يشير عليه بوجود مكان في الخيمة التي رفضه لاجئوها. تتبّع الموظف رقمها سريعًا بسبابته إلى أن استقرّ عندها. أخرج بطاقة صغيرة مذيّلة مسبقًا بختم، وسجّل عليها اسم ديفيد ورقم الخيمة قبل أن يطلب منه أن يحملها إلى موظف آخر. هَمَّ بالمغادرة غير أنّ الموظف استوقفه وهو يحدّق في السوار الصوفي الذي يتعاقد فيه اللونان الأبيض والأسود. تظاهر بعدم الفهم فاضطر الرجل إلى التصريح برغبته:

«لا أعتقد أنك هنا بحاجة إلى هذا السوار».

تردّد قليلًا، قبل أن يقوم بخلعه ومنحه للرجل الذي سارع بارتدائه، وهو يعده أن يساعده متى جاء في حاجته. غادر ديفيد بشعور مختلط؛ حزن على السوار، وابتهاج بإيجاد مكان له. لكنّ شعوره استوى لذة خالصة وهو يسير إلى جانب موظف آخر نحو الخيمة المقصودة، وبيده بطانية وغطاء رقيق، وقطعة خبز محشوة بالجبن وعصيرًا معلّبًا كان نصيبه المعيّن للإفطار. حين وصل كانت الأعداد أقلّ. التفت الموجودون إليه بينما يسألهم الموظف عن الأماكن الشاغرة. لم ينتظر ديفيد الجواب فقد كان يعرف المكان تمامًا. اتّجه فورًا إلى الزاوية الضيّقة وسط نظرات الحاضرين وبسط أمتعته وهو يشكر الموظف على مساعدته.

لم يعد الأمر يتعلّق بمكان ينام فيه، بقَدْر ما أراد الخيمة ذاتها، والزاوية ذاتها. أراد الانتقام وحسب. شعر بالنشوة تسري في عروقه وتغذّي كبرياءه وهو يتنقّل ببصره بين العيون بنظرات جسورة. كانت المرة الأولى التي يستطيع فيها الرد بعد أن كان يكتفي دائمًا بطأطأة رأسه والمضيّ.

«انتبه لأغراضك وإلا ستنام على التراب كالكلاب».

لم يكد يسترخي لشعور التفوق حتى جاءه صوت الموظف ساخرًا وجالبًا معه همهمات ضاحكة من الحاضرين محت انتشاءه المؤقت وأعادته إلى الواقع. جلس يتناول إفطاره بغيظ مكتوم، فاقتربتْ منه سيدة تحمل رضيعًا وهي ترجوه أن يمنحها علبة العصير. تردد لثوانٍ، وهو يفكّر في الطريقة التي ستعبر بها قطعة الخبز فمه وهي بهذا اليباس. أراد أن يسألها أين ذهبتْ حصتها، لكنّه خمّن أنها تسأل من أجل رضيعها. منحها ما طلبتْ، وهمّ يحاول قضم الخبز، لكنها

كانت لا تزال في مكانها تحدّق في قطعة الخبز. هنا استدار بحنق وأولاها ظهره. غادرتْ تتفوّه بكلمات لم يسمعها جيدًا. قضم قطعة الخبز والتفتَ ليجدها ترتشف رشفة سريعة وتُلصق فمها بفم الرضيع لتفرغ العصير فيه. شعر بالذنب، لكنّ شعوره تلاشى فورًا حين رآها تُفرغ بقية العلبة في جوفها.

اقترب منه شاب بدين يُثبّت بكلتا يديه سرواله المرتخي، فعجّل بوضع آخر قطعة في فمه، خشية أن يسأله إياها. كانت كبيرة بحيث أصبح خدّه منتفخًا.

«هل قدمتَ الآن؟»

أربكه سؤال الشاب وهو يحاول تدبّر أمر فمه، قبل أن يكتفي بهزّ رأسه بالإيجاب. مدّ الشاب يده مصافحًا:

«يوهانس».

هنا لم يعد من الممكن أن يستعين بتحريك رأسه. دفع بما تبقى في حلقه وتجاوز ألمه ليجيب:

«ديفيد».

علتْ الدهشة ملامح الشاب قبل أن يبتسم ابتسامة واسعة وهو لا يزال ممسكًا بيد ديفيد.

«ليس تغييرًا كبيرًا، فلا فرق تقريبًا بين داود وديفيد... هذا إذا استبعدنا الاسم الأقدم».

سحب ديفيد يده بتوتّر. تمعّن في الواقف أمامه وهو يحاول تذكّر إن كان قد التقاه من قبل؛ بدا يصغره قليلًا بقسمات وجه طفولية تتعارض مع الجسد الضخم المترجرج، المحشور في جينز أزرق وقميص بنفس اللون. بشرته فاتحة، لكن شعره أجعد.

غادر ديفيد الخيمة حين أعيته محاولة التذكّر، دون أن يتجاوز أثر الصدمة، قبل أن تستحيل غضبًا وهو يرى يوهانس يلحق به ويضحك بشكل هستيري، ثم أكمل وهو يغالب ضحكه:

«حسنا... لقد دخلنا الوادي الأزرق في اليوم نفسه، وكنتُ شاهدًا على بعض ما جرى لك هناك، لكني في النهاية سبقتك إلى هنا».

كان ديفيد لا يزال على اضطرابه وهو يرى افتضاح أمره من البداية. أحسّ يوهانس بذلك فاكتستْ وجهه ملامح جادة:

«لا تخف. لن يعرف أحد هذا السر. أعدك».

لم يُغيّر ذلك من حالة ديفيد، فاضطر يوهانس للذهاب أبعد:

«حسنًا... ربما يُريحك أن تعرف أنّ يوهانس أيضًا ليس إلا اسمًا لعبور الجحيم».

تبدّلتْ ملامح ديفيد ببطء؛ زال توتّره في البداية، ثم علتْ الابتسامة وجهه، قبل أن ينظر في وجه يوهانس الطفوليّ وينخرطا في ضحك عالٍ.

السعادة المفرطة التي بدتْ على الاثنين لفتتْ انتباه مصور التلفزيون الذي كان يتجوّل بالقرب فصوّب كاميرته تجاههما. انتبه ديفيد متأخرًا فانكمشتْ ضحكته وهو يحاول حجب ملامحه. مثله فعل يوهانس، بينما كان المصوّر يشير بيده يطالبهما بمواصلة مظهر الضحك كأنّهما في مشهد تمثيلي.

***

حين غادر المكان ظنّ أنه تخلّص تمامًا من إزعاج الكاميرا، لكنّ التلفزيون الرسمي كان في انتظاره على مدخل الحافلة. ابتسمتْ

المراسلة الشابة وهي تلمح داويتْ وتتوسّم فيه صيدًا ثمينًا. أشارتْ إلى المصور فوجّه كاميرته المحمولة على كتفه صوب الرجل وتبعها حين اتجهتْ إليه.

«كيف تصف فرحتك بالوصول أخيرًا إلى أرض الميعاد؟»

بأمهرية مرتبكة طرحتْ المراسلة سؤالها، وقد بدا أنها حفظتْه الآن كي تُنجز تغطيتها.

«آني خو لي... آني خو لي».

حاول داويتْ تفاديها من مقعده في الحافلة، وهو يُخبرها بالعبرية أنه مريض، وهو ما جعل المراسلة أكثر إصرارًا على التسجيل معه. لحقتْ به إلى مقعده وأعادتْ سؤالها بالعبرية، فأدرك الرجل أنه ورّط نفسه من حيث أراد النجاة.

أخبرها أنه سعيد، لكنّ ملامحه المرتبكة كانت تقول شيئًا مختلفًا. كان يتحدث وهو يتفادى الكاميرا، يُشيح بوجهه يمينًا ويسارًا، وإلى الأسفل، بينما تخرج منه الكلمات متقطعة دون تفكير.

حين انتهتْ المقابلة كانت جبهته تتصبّب عرقًا رغم برودة المكان. أراد فتح النافذة لكنه خشي أن تطلّ منها كاميرا أخرى. حين تحركتْ الحافلة وداخلته الطمأنينة فتح النافذة ليملأ صدره بهواء جديد، قبل أن ينتبه إلى سقوط قرط المراسلة في كرسيّه. تهلّل وجهه وهو يُمسك به ويفركه بمتعة أَنْسَتْهُ الحرج الذي مرَّ به.

تحركتْ الحافلات الواحدة إثر الأخرى. إلى جوار السائق وقفتْ فتاة سمراء وبيدها مكبّر صوت. تحدّثت بالأمهرية وعرّفتْ عن نفسها بأنها يهودية من بيتا إسرائيل، فماجت الحافلة بالصراخ والتصفيق. ضحكتْ الفتاة خجلًا، قبل أن تستدرك أنها ولدتْ في

إسرائيل، كأنَّها تُشير إلى الأفضلية التي تتمتع بها. خيّرتهم بين أن تكمل بالأمهرية أو تتحدّث بالعبرية، فأجمعتْ الأصوات المتداخلة على الحديث بالأمهرية.

«مرحبًا بكم في إسرائيل... سنتوجه فورًا إلى تل أبيب، وهي مدينة جميلة كما سترون. ستمكثون فيها لبعض الوقت قبل أن يتم توزيعكم على مدن البلاد المختلفة. في الأثناء يسعدني أن أجيب عن أي سؤال يخطر ببالكم إلى أن نصل. أرجو أن تستمتعوا بالرحلة».

أنهتْ الفتاة جملتها وهي تُشير إلى شاشة كبيرة ناطقة تتدلى من سقف الحافلة تنقسم إلى قسمين، أحدها يعكس صورة حيّة للطريق بينما الآخر يعرض خريطة للمناطق التي سيعبرونها. خرجتْ الحافلة من منطقة المطار واتجهتْ ناحية الشمال الغربي. كان داويتْ يراقب البنايات العالية، وعلى واجهاتها الزجاجية تنعكس صور بنايات الشارع المقابل، يلفح وجهه الهواء البارد، وإلى جواره تمرّ السيارات بلوحات صفراء تتوسّطها أرقام سوداء بارزة، وفي طرفها علم إسرائيل، فيما الاخضرار يحيط بجانبي الطريق. كان داويتْ يتأمل شكل النجاة، ملامحها التي قضى عمره يحاول تشكيلها، يقارن بين ما يراه الآن، وبين ما سكن خياله طوال أعوام.

صدر صوت عن الشاشة يطلب الانحراف يمينًا باتجاه مخرج «ديرخ كريم»، كانت اللوحة الخضراء المثبتة على الجسر المعلّق في الطريق السريع يُشير سهمها إلى المعلومة نفسها.

«سنمرّ بعد قليل بنهر أيالون».

تطاولتْ الأعناق يمينًا ويسارًا استجابة لحديث مرشدة الحافلة دون أن يظهر النهر. حين تجاوز السائق «جادة هاتيوفا» كما

أوضحتْ الشاشة، سلك الطريق السريع رقم واحد، ومنه دخل إلى طريق «أيالون» السريع. حينها بدا أنّ الطريق يمضي بمحاذاة شريط مائيّ ضيّق، فعادتْ الفتاة إلى الشرح:

«هذا أحد الأنهار الشهيرة في إسرائيل. طوله يقترب من الخمسين كيلومترًا، وهو ينبع من جبال يهودا في الغرب».

اجتذب النهر اهتمام الركّاب لدقائق قليلة قبل أن ينصرفوا عنه إلى شواغل عدة. هنا سألتهم الفتاة إن كانوا يحفظون أغنية هاغيت ياسّو «هاعلياء» التي تذكّر اليهود في كل مكان بحلم العودة إلى إسرائيل، فكانتْ الإجابة بأن انطلقتْ الحناجر من فورها في الغناء قبل أن تلحق بها الموسيقى التي أدارها السائق بطلب من الفتاة:

«إنه اليوم المنتظر... اللحظة المنتظرة

هاعلياء...

لا مكان للأمس هنا... لا مكان للغد هنا

هاعلياء...

السنة القادمة يا أورشاليم قد حلّت

هاعلياء...

إنه اليوم المنتظر الذي يحمل في أحشائه

كل الأزمنة».

تمايلتْ الرؤوس وعلتْ الأصوات تسابق ياسّو، بينما أخذ داويتْ ينجذب للطقس الصاخب شيئًا فشيئًا؛ راقب أولًا حالة الانتشاء تسري من شخص إلى آخر، قبل أن يبدأ في محاكاة اللحن بأصابعه

التي تنقر بخفّة على النافذة، إلى أن نطق أخيرًا الكلمات ببطء بينه وبين نفسه:

«لا مكان للأمس هنا.. لا مكان للغد هنا

هاعلياء...».

حين اقتربتْ الأغنية من تمامها كان داويتْ منخرطًا بالكامل في حالة الصخب والنشوة:

«هاعلياء...

السنة القادمة يا أورشاليم قد حلّتْ

هاعلياء...».

لكنَّه على خلاف البقية، كان يُغنّي وهو يحاول إقناع نفسه أنَّه لامس فعلًا عتبة النجاة أخيرًا، دون أن يطرد شعورًا عميقًا في داخله يقول له شيئًا آخر.

(9)

عبرتْ الحافلات تباعًا بوابة كبيرة وسارتْ في طريق ضيّق متعرّج محاط بمساحات خضراء مزينة بالورود، إلى أن توقفتْ تمامًا أمام مبنى ضخم. هنا نهضتْ المرشدة في حافلة داويتْ لتعرّف بالمكان:

«ها قد وصلنا أخيرًا، هذا مركز شيبا الطبي، أكبر مشفى في إسرائيل. أنشئ في العام ألف وتسعمئة وثمانية وأربعين كأول مشفى عسكري لمداواة جرحى حرب الاستقلال. سنجري هنا فحوصات سريعة قبل أن نواصل طريقنا».

على المدخل كانت الطواقم الطبية متأهبة في انتظار القادمين، الجميع يرتدون سترات بيضاء طويلة، تنتهي أكمامها بقفازات من اللون نفسه، فيما تغطّي كمّامات خضراء معظم الوجه. أُنزل الأطفال أولًا واقتيدوا إلى الداخل، قبل أن يُطلب من البقية أن يصطفوا في طابور طويل. مالتْ الطواقم جانبًا وتقدّم شخص يعتمر خوذة بيضاء تغطّي وجهه إلا من ثقوب صغيرة عند العينين والأنف، يحمل حقيبة ظهر بلاستيكية زرقاء تنتهي بخرطوم أسود. كان يُشير بيد، فيما الأخرى تُمسك بالخرطوم. تقدّم الواقف في أول الطابور حتى أصبح في مواجهة الرجل ذي الخوذة البيضاء الذي طلب منه

أن يُغمض عينيه وأن يرفع يديه عاليًا، قبل أن يُغرقه بمادة سائلة، ثم يدعوه للعبور.

كان داويتْ يراقبُ ما يجري وهو يتقدّم في الطابور شيئًا فشيئًا، الرجال والنساء يتعجّلون الوصول إلى الرجل ذي الخوذة البيضاء، يفردون أذرعتهم في مواجهته بمحبة، ويحرصون على أن يغمرهم رذاذ المادة المعقّمة، ثم يمسحون بأيديهم المبلّلة على المناطق التي لم يصلها الرذاذ، كأنّهم إزاء تعميد جديد. حين وصل داويتْ كان مستسلمًا تمامًا. فرد ذراعيه، وأرخى رأسه، وأغمض عينيه، وبدأ يشعر بالمادة السائلة ذات الرائحة النفاذة تغمر جسده كله.

***

حين رفع رأسه، كان الماء يقطر منه ويحجب الرؤية، بينما تزيد من غيظه ضحكات يوهانس الذي ركض بعيدًا يُمسك بيديه سرواله المرتخي، وهو يبرّر فعلته:

«هذه هي الطريقة الوحيدة لإجبارك على الاغتسال سريعًا».

خرج ديفيد من البِركة بعد أن اغتسل لأول مرة منذ قدومه إلى إنداغابونا. لم يكن مقتنعًا بفكرة يوهانس للقدوم باكرًا إلى المكان. كان قد أخبره منذ الليل، أنّ الاغتسال مع طلوع الفجر، وقبل قدوم الآخرين، يضمن نظافة الماء بعد استقرار أوساخ اليوم الفائت في القاع. كان يجد الأمر صعبًا أن يستيقظ من نومه ليغتسل فقط. لكنّه فعلها تحت إصرار صاحبه الذي تكفّل بإيقاظه. سارا معًا في عتمة خفيفة تشقّها إضاءة تنبعث من فانوس يحمله يوهانس. تجاوزا منطقة الخيام ليجدا تلة صغيرة صعدها ديفيد سريعًا، فيما لحقه يوهانس وهو يلهث، لتتكشّف أمامهما قبل انقشاع آخر خيوط العتمة

منطقة أحراش مخيفة. تردد ديفيد قبل أن ينصاع لتأكيدات يوهانس أنّ المكان آمن.

كان ديفيد يُزيل بيده الأغصان العارية التي تعترض طريقه، ويتفقّد مكان أقدامه وهو يسير ببطء خلف يوهانس الذي أخذ زمام التقدّم مزهوًا بكونه العارف بالمكان، إلى أن بلغا بركة مستطيلة بامتداد عشرين قدمًا. تحسّس ديفيد سطح المياه الساكنة فوجده قد اختزن برودة الليل. التفت إلى صاحبه:

«ما رأيك لو انتظرنا إلى طلوع الشمس؟»

أصرّ يوهانس على إنجاز الأمر سريعًا. بدأ ديفيد في خلع ملابسه، وهو يعاود تحسّس المياه. لم يكن على جسده سوى سرواله الداخلي حين صعد على الحافة. مدّ قدمه يتحسّس الماء مجددًا فسرَتْ في جسده رعشة قوية. أراد أن يلتفت ويطلب من صاحبه أن يمهله أكثر غير أنه فوجيء به يدفعه وسط البركة الباردة. غطس بأكمله في الماء، لكنه انتفض ورفع رأسه يشهق من الصدمة وهو يشعر بجلده ينكمش. التفت إلى يوهانس الهارب وقابل ضحكاته بلعنات متتابعة. لكنّه على الرّغم من ذلك راح يفرك جسده ورأسه مزيلًا ما علق به من الأوساخ وروائح العرق.

في طريق العودة كان اللاجئون يتسابقون في الاتجاه المعاكس للاستحمام قبل ازدحام المكان. هنا كانت فرصة يوهانس أنْ يذكّر صاحبه بصواب فكرته.

كانت الخيمة نصف مستيقظة مع اقتراب موعد توزيع وجبة الإفطار. جلس ديفيد في مكانه عند الزاوية، فيما حمل يوهانس

أغراضه من الجهة المقابلة وجلبها إلى جوار صاحبه والابتسامة تحتلّ وجهه:

«اتفقتُ مع صاحب المكان على التبديل».

«ومن قال لك إنّ هذا يسعدني».

تلاشتْ ابتسامة يوهانس وهو يتفحّص وجه ديفيد الذي لم يستطع الإبقاء على ملامحه الجادّة فأفلتتْ ضحكة، وهو يتلقّى ضربات بمخدّة يوهانس.

انقضى الصباح، وديفيد متمدد في فراشه، كلما حاول أن يغفو يقطع يوهانس إغفاءته بحكاية جديدة.

حكى له عن نصف الموجودين في الخيمة، وعن إدارة المخيم، وعن اللصوص وعصابات التهريب، وعن الفتيات الجميلات، وأولئك اللائي يصفهنّ بالمتاحات في وقت الشدائد. ضحك ديفيد حين سمع الوصف، فعدّل يوهانس جلسته متحفّزًا وبدأ في شرح كلامه:

«كل فتاة تعرف مقدار جمالها، وتتصرّف على أساسه. لكنْ هذا لا يُلغي أبدًا فرصتنا في المناورة».

أدار ديفيد وجهه إلى الناحية الأخرى، وهو يتمتم بكلمات غير مسموعة.

«اسمعني للنهاية فقط... الجميلة يُفسدها ازدحام الراغبين من حولها، فتغدو أبعد بمجرد أن تشعر باقترابك، دون أن ترأف بحالك. أما نصف الجميلة فتراوح بين القُرب والابتعاد، ودواؤها أن تهزّ ثقتها المهتزة أصلًا في جمالها. ولا بدَّ من المجازفة مع هذين الصنفين إذا

أردتَ الوصول. النوع الثالث هي التي لا حظّ لها من الجمال، وهذه تجنَّبها ما أمكنك ذلك، لكن إذا تعذّر، فأسمِعها مديحًا ستجد أثره لاحقًا حين تحتاجها مرغمًا... وقت الشدائد».

ضغط يوهانس على كلماته الأخيرة وهو يغمز، فانفجر ديفيد يضحك حتى أخذ يسعل بقوة وعينيه تبللتا بالدموع. حين هدأ قليلًا، كان يوهانس جاهزًا:

«حسنًا... اسمع هذه...».

سَدَّ ديفيد أذنيه ليرغم صاحبه على التوقف، قبل أن يعاود التمدد ويغطّي وجهه بغطائه. فترتْ حماسة يوهانس وتمدّد في فراشه هو الآخر وأخذ ينظر في سقف الخيمة. تنحنح رجل في الزاوية المقابلة، قبل أن يرمي بملاحظة ويغادر الخيمة:

«على الأقل أخبره عن الرجل الذي أخبرك بهذه الحكايات».

التفتَ ديفيد ناحية الرجل قبل أن يعود إلى يوهانس ويطلبُ تفسيرًا، غير أنه تجاهل ذلك وقفز إلى موضوع آخر:

«غدًا هو الثلاثاء الثاني من الشهر، هل ستجرّب حظك مع مكتب الـ UN؟»

قفز ديفيد فورًا يملؤه الاستغراب، قبل أن يأتي توضيح يوهانس:

«سيذهبون في إجازة طويلة هربًا من الصيف، ولهذا قدّموا الموعد أسبوعين كاملين».

شعر ديفيد بالرعب، فموعد خلاصه المنتظر يركض في اتجاهه. هو لا يريد ذلك. لا يريد لهذا الموعد أن يتأخر، لكنه أيضًا لا يريده أن يأتي أبكر من موعده. ثمة جاهزية نفسية يُفسدها أيّ اختلال في الوقت. أحسّ يوهانس بورطة صاحبه، فبادر إلى طمأنته:

«لا تقلق، سنعمل سويًا على تجهيز حكاية مُحكمة تمنحك حق إعادة التوطين من المرة الأولى. سنستفيد من تجربتي بعد سدّ ثغراتها... هل تسمعني؟»

***

التفتَ مُحرَجًا من سؤال الرجل بعد أن غاب قليلًا في تأمل الغرفة التي أعطيتْ له. كان مسؤول السكن يتأكد من أنه لم يعد بحاجة إلى شيء، بعد أن راجع معه محتويات الغرفة؛ سرير أبيض، خزانة ملابس بنفس اللون، تلفزيون، مكواة، طاولة صغيرة إلى جوار السرير عليها نسخة من الكتاب المقدّس، لوحة ليلية للقدس معلّقة جانب النافذة على الجدار الزيتي، وإلى جوارها بطاقة التعليمات والمهام اليومية: الإفطار بين الساعة السادسة والسابعة، درس الأولبان للغة العبرية بين الثامنة والعاشرة، درس الدِّين بين الحادية عشرة والواحدة ظهرًا. تنظيف الغرفة شأن فردي، تُغلق بوابات المجمع عند العاشرة ليلًا... أكمل داويت قراءة القائمة قبل أن يوقّع على إقرار بالالتزام. تسلّم المفتاح، وأغلق الباب وراء الموظف، لينفرد بنفسه المتعبة أخيرًا بعد ساعات في مشفى شيبا العسكري استنزفت طاقته وصبره. فبمجرد أن خضع لطقس التعقيم الإجباري، أُلبس حذاء بلاستيكيًا واقتيد إلى الداخل. سار برفقة ممرض يحمل ملفًا ويحتفظ على الدوام بمسافة عنه. عبرا ممرات لامعة خالية ألصقت على أرضها أشرطة لاصقة صفراء كانت بمثابة الدليل لخطّ سيره داخل المشفى.

«إيلوهيم».

صرختْ الممرضة فزعة، وابتعدتْ مسرعة حين كادتْ تصطدم

بداويتْ عند نقطة تقاطع الممرات، وهي تتمتم بكلمة التقطتها أذن داويتْ:

«عبد قذر».

التفتَ إليها الممرض وهو ينصحها بأن ترتدي القفازات والأقنعة لأنها ستجد الكثير «منهم» في الممرات، قبل أن يعود ببصره إلى داويتْ ليعرف إن كان قد فهم شيئًا من كلامه.

وصلا إلى غرفة المختبر. دخل داويتْ وحده فيما بقي الممرض في الخارج بعد أن أعطى زميلته الشقراء الأوراق التي بحوزته، وهو يطلب منها أن تبرهن على جدارتها، في ظلّ غياب الأخصائية المفاجيء ما يجعل كل شيء على عاتقها وهي مجرد مساعدة متدربة.

جلس داويتْ على كرسيّ مقابل لكرسيّ الفتاة التي انشغلتْ لبعض الوقت بملء ورقة في يدها، وهي تسترق النظر إليه بين حين وآخر، وتُحكم شدّ القناع على وجهها، قبل أن تتفرّغ له؛ قاستْ ضغطه، وسجّلتْ مؤشر طوله ووزنه، ثم شرعتْ في أخذ عينات من دمه. فَرَدَ داويتْ ذراعه وكوّم قبضته بشدة. بدأتْ الفتاة تحسّس موضع عروقه النافرة، وهي تشدّ قفازها الممسك بإبرة سحب الدم. حين همّتْ بغرس الإبرة، شعر داويتْ بعطسة تتشكّل وتكبر داخله، حاول قمعها لكنّها كانتْ أكثر إصرارًا. أدار وجهه إلى الناحية الأخرى، وعطسَ بشدة فانتفضت الفتاة وعادتْ بكرسيها إلى الوراء وهي تُثبّتُ القناع على وجهها، قبل أن تقوم من مكانها لتفتح الباب وتقف عنده. التفتَ لها محرجًا فطلبتْ منه بنبرة متوترة أن يغسل وجهه ويديه، ولم تعد إلى مكانها حتى جاء من يمسح الجهة التي مسّها رذاذ العطاس. حبس داويتْ ضحكة وهو يرى الفتاة الفزعة

تعامله كوباء متنقّل شرهٍ يبحث عن طريدة ينقضّ عليها بأنيابه. في البداية ارتاب للأمر، لم يكن يرى في نفسه ما يستدعي كل هذا الهلع. وحين تأكد أراد إخبارها أنه خضع للفحص في كل مكان مرّ به؛ في الوادي الأزرق، وإنداغابونا، وغوندار، لكنّ جنونها المستمر أصابه بالغيظ، فجرّب أن يستمتع بالأمر ويُميتها رعبًا. كانت تمدّ يدها كاملة كي تحتفظ بالمسافة بينهما، لكنه، وبطريقة مباغتة يقترب منها، فتنفر مذعورة. ثم يهدأ قليلًا حتى تغفل، ويعاود ألاعيبه، مرة بإيهامها أنه على وشك أن يعطس من جديد، ومرة بتعمّد السعال، وثالثة بحركات توحي كأنّه على وشك التقيؤ. وفي كل مرة كانت الفتاة تنهض من مكانها، وتتخذ المزيد من الاحتياطات. حين انتهتْ من أخذ العيّنات، رمتْ بقفازها البلاستيكي في حاوية القمامة، ونادتْ على الممرض لأخذ داويتْ، وغادرتْ بدورها الغرفة تلعنُ الحظ الذي جعلها تتدرّب في هذا المشفى بالذات.

أُقتيد داويت إلى قسم الأشعة للتأكد من خلوّه من أمراض الصدر، ومنها إلى قاعة كبيرة دون كراسي وجد فيها من سبقوه في الفحص في انتظار نتائجهم. اختار زاوية جلس فيها، ومدّ يده إلى جيبه ليستخرج القفاز البلاستيكي الذي سارع لانتشاله من الحاوية في الوقت ما بين مغادرة المتدربة وقدوم الممرض. أخذ يفركه وهو يُمضّي الوقت بمراقبة مَن حوله. كان معظمهم من الذين طال وقت انتظارهم حتى أن بعضهم تمددوا أو ذهبوا في النوم. ازدحمتْ القاعة ولم يعد من الممكن أن تستوعب الجميع إلا جلوسًا، إلى أن جاء الخلاص أخيرًا، فتم النداء على شخص واحد ليُعيد فحص الأشعة، فيما نُقل البقية إلى الحافلات التي أوصلتهم إلى مجمّع سكني في

ضاحية «شخونات هتكفا» جنوب المدينة. هناك قيل لهم إنه مقرهم المؤقت حتى يكونوا جاهزين للانتقال إلى مقرات دائمة تُعينهم على سرعة الاندماج في المجتمع.

استلقى داويتْ على السرير فاردًا ذراعيه ومصوّبًا نظره إلى السقف. أغمض عينيه، ثم أعاد فتحهما بسرعة. لا يريد المزيد من الأحلام، هو يعيش الآن حلمه الذي انتظره طويلًا. هذا هو الوصول إذن، إنها النجاة أخيرًا. نهاية السباق غير العادل. فقد أخذ مكانًا لم يكن له. لكن أيًا يكن الأمر فقد ربح، والرابحون يجدون ألف مبرر للخطايا التي ارتُكبت في السباق. أنعشته هذه الفكرة. نهض من سريره، ارتدى سترته، وقرّر الخروج ليجرّب المشي في الشوارع منتصرًا. حين وصل إلى الباب، تذكّر أن يُلقي نظرة على بطاقة التعليمات المعلّقة على الجدار.

***

أمسك بالبطاقة الصفراء، وهو يُمنّي نفسه أنْ يتمكّن من استبدالها بأخرى زرقاء، حيث يحق له أن يُعاد توطينه في أيّ دولة يختارها من قائمة طويلة. هل يختار أمريكا؟ كندا؟ أستراليا؟ ماذا عن بريطانيا؟ لا لا... ربما السويد أو سويسرا. لا يهم. المهم أن يجتاز بنجاح مقابلة مكتب مفوضية اللاجئين خلال الساعة المقبلة.

كان يوهانس يراقب شرود ديفيد بنفاد صبر قبل أن يتدخّل ليجبره على الاستماع:

«أعد ما اتفقنا عليه... أريد أن أتأكد أنك حفظت القصة تمامًا».

اكتفى ديفيد بكلمات قليلة طمأن بها صديقه. وضع البطاقة في جيبه، وتحرّك في اتجاه مكتب المفوضية. لحق به يوهانس وحاول

السير إلى جواره، غير أنّ خطوات ديفيد كانت أسرع. كان يسير بشكل آلي، ينظر إلى الأمام، لكنّه لا يرى إلا ما يجول في ذهنه؛ القصة المنجية التي قضى الليل بأسره يلوكها ويُعيدها مرات ومرات ليتأكد من تشرّبها كأنّها قصته. سمعها للمرة الأولى من يوهانس، الذي أبدى براعة في نسج تفاصيلها، وهو يحكيها بطريقة أقرب إلى التقمّص:

«قبل الحكاية يجب أن يبدو شكلك مقنعًا؛ سترتدي صليبًا كبيرًا تتحسّسه أثناء المقابلة، وقبيل الإجابة على كل سؤال. عليك أن تبدو منكسرًا، خافض الرأس، يخرج صوتكَ مخنوقًا متحشرجًا، ثم وفي نقطة ما لا بدَّ أن تبكي بحرقة وألم».

توقّف يوهانس عن الكلام، ورسم ملامح جادة على وجهه استدعتْ اهتمام ديفيد قبل أن يواصل حديثه:

«حين تبكي، يجب أن تفعل ذلك بصدق حتى يُصدّقك المحقق. تذكّر كل أوجاعك ومآسيك. استجمع أمامك كل أهوال الدنيا التي مررت بها وابتلعها حتى تظهر على ملامحك».

كاد ديفيد يضحك لولا المظهر الجدّي الذي كان عليه يوهانس، وقد برزت عيناه واحتقنت عروقه. فصمت تاركًا ليوهانس أن يُكمل:

«نشأتَ يتيم الأب ووحيدًا لأمك التي كانت تقضي معظم اليوم تعمل في الخارج كي تُطعمك. حين كبرتَ قليلًا كان يجب أن تتوقف عن الدراسة لتساعدها قليلًا دون أنْ يصرف ذلك عنكما الفقر. كنتَ تكبر، ومعك تكبر أمك وتعتلّ صحتها حتى أصبحتْ غير قادرة على العمل، فانتقل العبء كله إليك. وحين بلغتَ السادسة عشرة من عمركَ وفي يوم تذكره جيدًا...».

توقّف يوهانس مجددًا وغيّر من نبرة صوته كأنّه يريد أن يفصل بين الحكاية وبين التعليمات حولها، لكن دون أن تُغادره الجديّة:

«يجب أن تختار موعدًا يبدو دقيقًا، فهذا يجعل حكايتك أقرب إلى التصديق. يجب أن تحفظ التواريخ جيدًا. الخطأ فيها قاتل، يزرع الشك ويُضعف حكايتك».

أَومأَ ديفيد برأسه موافقًا وقد انتقلتْ إليه عدوى الملامح الجادة. واصل يوهانس فكرته:

«طرق الباب أفراد من «الكشّة» قبل أن يفتحوه بالقوة ويقتادوك إلى الوادي الأزرق على مرأى من أمك التي لم تُجدِ كل توسّلاتها ليتركوكَ وشأنك. في الوادي الأزرق لم يكن هناك إلا الإهانة والتعذيب حتى تنكسر. لكنّ انكسارك الحقيقي كان لحظة تلقيكَ خبر وفاة أمك...».

التفتَ ديفيد إلى يوهانس بعد أن كان يُنصت وعينه تُحدّق في الفراغ. أصبح يعرف أنه الآن بصدد الاستماع إلى شيء مختلف.

«أقترح أن تكون هنا لحظة البكاء المرير، ولا أعتقد أنكَ ستكون بحاجة للإكمال فكل شيء بعد ذلك سيكون بديهيًا ومفهومًا. فقط انتبه للرقم الذي ستختاره لعدد سنوات بقائك في الوادي الأزرق. والآن تمشّ قليلًا في الخارج واستعد بهدوء ما أخبرتك به».

***

سار بضع خطوات إلى الخارج، فجاءه صوت الحارس يذكّره بموعد العودة الذي لم يبقَ عليه سوى ساعتين، وأنّ تجاوزه يعني المبيت في العراء، قبل أن يطلب منه أن يكون حذرًا. لم يفهم داويتْ مبرر الجملة الأخيرة.

مشى بمحاذاة سور المجمّع العالي دون وجهة مقصودة حتى انتهى به الطريق إلى مسار إجباري وعلى واجهته تُشير اللوحة إلى حيّ «نافيه شأنان» الذي لطالما سمع عنه في غوندار. هنا يتجمّع الأفارقة، في مكان يُشبه الأوطان التي قَدِمُوا منها. شَعَرَ بالبرد فأحكم ياقة معطفه حول رقبته، وأدخل يده في جيوبه، وتقدّم في الشارع نصف المعتم. أحسّ بشيء من الألفة تتسلّل إليه؛ وجوه سوداء تعبر جواره وأخرى يجلس أصحابها على الرصيف، المحلات والمطاعم بلوحاتها الأمهرية والعربية، الموسيقى المألوفة التي بمجرد أن تقدّم أكثر تأكد أنها أغنية «أدّس زفين»لتيدي آفرو تنبعث عاليًا من صالون للحلاقة.

«هل يبحث الوسيم عن شيء؟»

انتفض من سؤال فتاة ثملة نصف عارية حاولتْ الالتصاق به من الخلف. ابتعد وهو يُشيح بيده رافضًا، بينما أطلقتْ الفتاة ضحكة رقيعة قبل أن تعبّ جرعة من زجاجة بيرة في يدها. مضى وهو يلتفتُ حتى تأكد من ابتعاده عنها. سلك طريقًا جانبيًا، كانت أكثر عتمةً. فكّر بالتراجع، لكنّ الفضول قاده للمضي. أخذ يتجنّب زجاجات البيرة المتناثرة على الأرض، فيما تُزكم أنفه روائح عفنة. على الجانبين كانت أبواب البيوت مفتوحة وينبعث منها ضجيج غريب. اقترب من أحدها، فزاد الضجيج، وجد ستارة رقيقة، أزالها ببطء ليفاجأ ببار صغير مزدحم تكاد أدخنة الشيشة تحجب الرؤية فيه، وتتوسطه طاولة كبيرة تحلّقَ حولها أناس يصفقون ويصرخون لفتاة تعتليها وترقص بملابسها الداخلية. استدار ينوي الخروج فاصطدم برجل يطوّق خصر فتاة. اعتذر بتلعثم وغادر مسرعًا يؤثر العودة إلى غرفته قبل حلول وقت الإغلاق، غير أنّه سمع شخصًا يستوقفه.

***

التفت ليجد يوهانس ينادي عليه وهو يُسرّع من خطواته ويمسك بطرف بنطاله المرتخي. توقّف ديفيد بتململ يخشى أن يفوته موعد مقابلته.

«هل حفظتَ القصة جيدًا؟»

«هذه هي المرة العاشرة التي تسألني فيها هذا السؤال».

«ليس لديّ طريقة أخرى لألحق بخطواتك السريعة هذه».

ضحك يوهانس وهو ينطق بجملته الأخيرة، غير أنّه ابتلع ضحكته وهو يرى ملامح ديفيد المتوترة. حين بلغا مبنى المفوضية، دخل ديفيد وظلّ صاحبه في الخارج، يبعث له بآخر وصاياه.

كانت القاعة مزدحمة كلها وفي زاويتها اليمنى باب بشبّاك صغير يفتح على غرفة المقابلات، أودع فيه ديفيد أوراقه وجلس على الأرض ينتظر دوره. كانت أوقات المقابلات متفاوتة، بعضها ينتهي سريعًا ويخرج صاحبها مطاطأ الرأس، وأخرى تأخذ وقتًا أطول دون أن تتغيّر ملامح الخارج منها. كان ديفيد يراقب وجوه الداخلين إلى الغرفة ثم يدقق فيها حين يخرجون. يحاول أن يقرأ ما حدث لهم، بينما كان غيره يحاول أن يستوقفهم ليعرف أي شيء قبل أن تأتي التعليمات بسرعة مغادرة من اجتازوا المقابلات. إلى جواره كان شابّ يحدّث صاحبه:

«في السنوات الماضية، وكما سمعت، لم يكن هناك أسهل من التوطين في بلد ثالث، تأتي بأي حكاية ملفقة فيسمعها موظف الهجرة بكثير من الاهتمام والتأثر، ثم يسلّمك قرار الموافقة على الفور، ويخرج معك وهو يغالب دموعه، ويعدك بأنه سيصلّي من أجلك. أما اليوم، ومن سوء حظنا، زادتْ الأعداد، واستُهلكتْ

الحكايات، فأصبحنا بحاجة للمستحيل كي نقنع الموظف بأحقيتنا في التوطين».

سمع اسمه أخيرًا.

نهض بتثاقل وأعين الموجودين تتبع حركاته. تبودلتْ الأدوار الآن، أصبح هو محط اهتمام الآخرين، يراقبون ملامحه ليقارنوها بما ستكون عليه وقت الخروج.

دخل وأغلق الباب خلفه. غرفة صغيرة بطلاء أبيض كامل يتوسّطها مكتب بنيّ يجلس خلفه رجل أوروبيّ بشعر أشقر خفيف، ونظارة سميكة العدسات. بدا في الخمسينيات من عمره لكن بجسد متماسك، وإلى جواره شابّان إثيوبيان أحدهما يقوم بمهام الترجمة، والآخر يوثّق المقابلات في دفتر كبير.

جلس ديفيد قبالة الأوروبيّ مرخيًا نظره إلى الأرض. سأله مسؤول التوثيق عن بياناته، فأجاب دون أن يرفع بصره، إلى أن جاء دور الأوروبي الذي قضى بعض الوقت يتفرّس في وجه ديفيد قبل أن يُلقي سؤاله بصوت أجشّ تسبّب برعدة في جسد ديفيد:

«ما الذي يجعلك تعتقد أنك تستحق التوطين في بلد ثالث؟»

***

بدا سؤال الرجل غريبًا. نظر داويتْ في عينيه وهو يستوضح أكثر فأعاد الرجل سؤاله بنبرة أكثر عدوانية وبلسان متثاقل:

«ماذا تفعل هنا؟»

لم يكد داويتْ يجيب حتى حاول الرجل لكمه غير أنّه أخطأه واختلّ توازنه فسقط على الأرض. ركض داويتْ باتجاه سكنه تاركًا

الرجل وراءه يلاحقه بالشتائم. بدا أنّ الطريق ازداد عتمةً عمّا كان عليه. حين وصل كان يلهث فوجد الحارس أمامه يفتح له البوابة بابتسامة واسعة:

«لا جديد... يبدو أنهم أحسنوا استقبالك».

(10)

«كنتُ أعرف في قرارة نفسي أنهم سيأتون لا محالة، فلا شيء في أسمرا يمكن إخفاؤه إلى الأبد. سيشي بي الكارهون أو المحبون أو حتى الذين لا شأن لهم بي. الجميع يريد أن ينجو بنفسه عبر الإيقاع بالآخرين. لكني في المقابل كنتُ حريصًا على طمأنة أمي والنأي بها بعيدًا عن مخاوفي الجارحة. كنتُ أحاول أن أبقى متماسكًا أمامها، وكانت تفعل معي بالمثل، فتحاول إخفاء هلعها من قدومهم. كنا نلعب لعبة صمود مكشوفة، فيما الهشاشة تنخر أرواحنا.

حين طرقوا الباب كنتُ على يقين أنها لحظة الرعب التي أردنا ألا تأتي أبدًا. احتضنتُ أمي، تشبثتُ بها بالأحرى، فيما الطَرق يزداد ضراوة على الباب. حاولتُ إفلاتها لكنّ تشبثها كان أكبر. التصقتُ بصدرها المضطرب، أنفاسها تعلو وتهبط، وضربات قلبها تطرق رأسي بوتيرة هلع متصاعدة.

«لن تأخذوه... لن تأخذوه».

صرختْ أمي وهي تهرول ناحية المطبخ ما إن بدأوا في محاولات خلع الباب. جلبتْ سكينة كبيرة وهي تدعوني للاحتماء خلفها. رغم الخوف، كان شيء في داخلي يمتلئ بالزهو. أمي التي ما عرفتها

إلا مغلوبة على أمرها، يعلو صوتها من أجلي. لذا حين كسروا الباب وانتزعوني بقسوة، وصفعني أحدهم، لم أتألم. كنتُ ممتلئًا بطمأنينة غريبة حقنتني بها أمي التي أراها الآن تتلقى الصفعات دون أن تستكين، وتزداد شراسة في مقاومتهم. ليتني أستطيع أن أجعلها مثلي، عصية على الألم، على ذلك الشعور الموجع كله».

صمت ديفيد قليلًا دون أن يرفع رأسه، فيما الأوروبيّ ينتظر أن يكمل حكايته بنفاد صبر وهو يعبث بقلم بين أصابعه، ويعيد نظارته إلى مكانها بعد أن انزاحتْ إلى الأسفل قليلًا. طالع المترجم بفتور، قبل أن يقترح بطريقة مباغتة:

«ما رأيك أن ننتقل إلى الوادي الأزرق مباشرة، وليتك تشرع في الحديث عن التعذيب فيها بدايةً».

رفع ديفيد رأسه للمرة الأولى والصدمة تملأ وجهه. كل جهده في التظاهر بالتوجّع بدا عديم الجدوى والأوروبيّ يكاد يحفظ الحكاية عن ظهر قلب قبل أن يسمعها منه. هو لم يتجاهل ما سمع وحسب، بل قفز بلا مبالاة متعمدة إلى ما سيسمع أيضًا. تنحنح ديفيد وهو يحاول استعادة طقس الحزن الذي كان عليه، ويمسك بخيط الحكاية من جديد:

«في الوادي الأزرق كان التعذيب وجبة يومية. لم يكن الهدف أن نصبح جنودًا أقوياء، بل عبيدًا خانعين. عبودية أبدية لافكاك منها...».

«ومتى توفيت أمك؟»

غطى ديفيد وجهه بيديه وغاص في شعور مختلط بين الحرج والغيظ وقد تأكد أنه يسرد قصة سمعها الأوروبي آلاف المرات. أحسّ بنفسه غارقًا في البلاهة ومدعاة للتندّر. كيف لم يخطر بباله

ذلك؟ كيف لم يسأل يوهانس إن كانت القصة التي تبرّع بها جديدة أم لاكتها ألسن كثيرة قبل أن تصل إليه؟ كيف ترك أمرًا مصيريًا كهذا بيد غيره؟ عضّ على شفته بندم مرّ. فكّر في القيام والانسحاب من هذه المقابلة بعد ان اتضح مآلها، قبل أن تخطر له فكرة استولتْ على كيانه ومنحته روحًا جديدة؛ سيقول الحقيقة، سيحكي حكايته الخاصة، سيُسمع الأوروبي شيئًا لم يسمعه من قبل، وسيبذل سرّه الكبير من أجل خلاصه.

رفع رأسه مجددًا، كان الأوروبيّ محتفظًا ببقايا ابتسامة لئيمة سرعان ما انزوتْ وهو يرى ديفيد ينظر في عينيه بثبات أربكه. وضع القلم جانبًا، ثبّت نظارته سميكة العدسات، عقد كفيه ووضعهما تحت ذقنه بتحفّز. حينها نطق ديفيد:

«أنا فري قدلي».

تلعثم المترجم قبل أن يصمت ويلتفت إلى موثّق الجلسة الذي لم يكتب حرفًا وظلّ يطالع ديفيد بذهول. حار الأوروبي وهو يرى ما أصاب الشابّين دون أن يفهم ماهيّته. أمر مترجمه بنبرة غاضبة أن يشرح له الأمر. نظر المترجم إلى ديفيد كأنّه يمنحه فرصة أخيرة كي يغيّر أقواله. تنحنح وبصوت خفيض ترجم حديث ديفيد:

«هو يقول إنه أحد أفراد «ثمار النضال».

لم يفهم الأوروبيّ شيئًا من الترجمة الحرفية فاضطر المترجم إلى شرح المعنى:

«في إرتريا يُطلقون هذا الاسم على الأطفال الذين جاؤوا نتيجة علاقة غير شرعية بين الجنود في جبهات القتال».

قطّب الأوروبيّ جبينه وهو يردد باهتمام بالغ: هذه جديدة. قبل أن

يستحثّ ديفيد على سرد قصته. هنا فقط أحسّ ديفيد بفداحة قراره. لم يكن من اليسير أن يُخرج من صدره حكاية اعتادتْ على الاختباء في العتمة، لكنه في المقابل يريد النجاة مهما كلّف الأمر. استمرّ تردده بعض الوقت، قبل أن يلاحظ تململ الأوروبي مجددًا فحسم أمره وشرع في الكلام وهو يمنّي نفسه أنّ سرّه لن يكون على الملأ في كل الأحوال:

«كنتُ حينها في السابعة عشرة، رغم أنّ هيئتي تشي أنّي أصغر كثيرًا. حُشرتُ مع رفاقي في صندوق شاحنة تسير بنا في رتل طويل من مصوّع إلى أسمرا. تمكّنتُ من تسلّق أحد جوانب الصندوق لأجلس على حافته. عشرات الشاحنات والدبابات والعربات الصغيرة تتبع بعضها في طريق «قلب تغراي» المتعرّج صعودًا إلى العاصمة. أمامنا تمامًا دبابة تنفث دخانها الأسود الكثيف في وجوهنا، ويعلوها جنود منهَكون يُلوّحون ببنادقهم وعكازاتهم للأهالي المصطفين على الجانبين. لم يترك الجنود عربة إلا وتعلّقوا بها لتوصلهم إلى الوجهة الأخيرة حيث الاحتفال بتحرير الأرض، ومن لم يجد وسيلة سار على قدميه يستوقفه أهالي القرى المتناثرة على الطريق، يحتضنونه، يحملونه على الأعناق، ويرقصون معه، وبه.

كنتُ منتشيًا وأنا أتابع ما يجري. تمنّيت لو أستطيع النزول حتى يحتفي بي الناس أيضًا، لكن تعليمات القيادة كانت صارمة في ضرورة أن نبقى «نحن» بالذات في الشاحنة حتى الوصول. يملأني الزهو بهذا النصر. صحيح أني لم أشارك في المعارك، فقد كانوا يضعونني في الصفوف الخلفية، بعيدًا جدًا، أجلب الماء، وأساعد الممرضات. كنتُ بعيدًا بحيث لا أطال النصر ولا تلحقني الهزيمة.

لكنّي ابن هذه الثورة على أيّ حال، ولو تأخر التحرير قليلًا لكنتُ الآن أحد أبطاله الذين يُحملون على الأعناق.

حين وصلنا مدخل أسمرا توقّفتْ الحركة تمامًا مع الحشود التي ملأتْ الشوارع. كنتُ أستطيع الرؤية من مكاني. خرجتْ النساء وخرج حتّى المقعدون على عرباتهم ينثرون الذرة وأوراق الشجر على المقاتلين. كانت المدينة بأكملها تزغرد وترقص وتبكي. كل شخص يحتضن الذي إلى جواره في فرح هستيري. رأيتُ واحدًا يركض بأقصى سرعته في اتجاه، ثم يعود ليركض في الاتجاه المقابل، وآخر يقفز عاليًا في مكانه، وثالث يضرب صدره بشدة وينوح. رأيت معاقًا يقف على رجل واحدة فيما يلوّح بقدمه الاصطناعية عاليًا. لم يكن أهالي أسمرا قادرين على إيجاد طريقة للتعبير عن سعادتهم. كان النصر كبيرًا وساحقًا وفي أعقاب نكسات عظيمة ثقبتْ النفوس باليأس وكادتْ تقودهم إلى الاستسلام.

حين لم يعد من الممكن أن تتحرّك الشاحنات جاءتْ الأوامر بأن ننزل.

قفزتُ فورًا وغصتُ وسط الجموع. كنتُ فخورًا ببزتي العسكرية التي لملمتُ أطرافها كي تناسب مقاسي، وأريد للجميع أن يروني بها. تلقّفتني امرأة واحتضنتني وهي تصرخ: أوه يا صغيري. ضايقني الأمر، فتملّصتُ منها بصعوبة، وذهبتُ أبحث عن تجمعات تحمل جنودًا على الأعناق. وجدتُ صعوبة في اختراق الحشود، حتى انتبه لي رجل فحملني عاليًا وتوسّط بي دائرة من النساء. امتلأتُ بالحبور وأنا أزيل عن رأسي الذرة المنثورة عليّ، وبدأتُ في رد التحية بالتلويح. بدوتُ كقائد موشّح بالنياشين يعود وقد جلب نصرًا كبيرًا

لبلاده. لم أشأ لهذه اللحظة أن تنتهي. خشيتُ أن يتعب الرجل الذي يحملني أو يملّ، فأعود ذلك الشاب الذي تعوقه ضآلته عن مشاهدة ما يجري حوله، لكنّه طمأنني وهو يطوف بي ويدور كثور جامح. لم أكن أثبّت بصري في جهة حتى أجدني محمولًا إلى جهة أخرى، ولم يكن ذلك مربكًا بقَدْر ما يزيد من استمتاعي بالوجوه التي تتطلّع نحو بطلها، حتى رأيتها، فأردتُ أن يتوقّف كل شيء عندها.

كانت تنظر إليّ وتحيد ببصرها إذا ما نظرتُ تجاهها. تلتفتُ حولها وهي ترفع طرف شالها الذي يُطوّق عنقها ليغطّي شفتيها قبل أن توقعه حين تعود إليّ. دار بي الرجل دورة أخرى، فالتفتُّ ووجدتها لا تزال معي. ابتعد بي إلى الجهة المقابلة وعنقي يكاد يلتوي كي لا أفقد خيط النظر الذي يصل بيننا، ثم عاد بي ناحيتها، أمامها تمامًا فابتسمتْ بحياء أفقدني صوابي. طلبتُ من الرجل أن يُنزلني فتجاهلني وذهب بي بعيدًا، رجوته وأنا ألعن طاقته التي لا يُصيبها الفتور بعد أن كانت سبب سعادتي. أخيرًا استجاب لي حين لمح جنديًا آخر، أنزلني على عجَلٍ وتلقّفه يُكمل به دورة الرقص الهائجة.

حين نزلتُ لم تكن في مكانها.

طفتُ ببصري وبقايا دوار في رأسي لم أشعر به إلا حين وقفتُ على قدميّ تمامًا. لمحتها تدخل في دائرة أخرى وهي تنظر وراءها وتُمسك بطرف شالها قريبًا من شفتيها حتى التقتْ عينانا فعادتْ لها ابتسامتها الأولى».

صمت ديفيد قليلًا ليرقب أثر حديثه في وجه الأوروبي. وجده مبتسمًا ببلاهة وهو ينتظر المزيد، فيما كان موثّق الجلسة يسأل إذا

كان ما سمعه يستحق الكتابة، فنهره الأوروبي وهو يطلب منه أن يكتب فحسب دون أن يقحم أنفه في فحوى ما يسمع.

تشجّع ديفيد أكثر وشعر للمرة الأولى منذ وجوده في إنداغابونا أنّ قدره بات يتلطّف به.

«حين رأتني أقترب غذّت السير متجاوزة الأجساد المتلاصقة حتى خرجَتْ من دوائر الازدحام إلى شارع جانبي في كمشتاتو. هناك خفّفتْ من سرعتها كأنّها تعطيني الإشارة لألحق بها قبل أن تتوقف تمامًا عند مطعم نابولي للبيتزا الذي أغلقه صاحبه فيما يبدو وخرج يلحق بالحشد.

حجبَتْهَا الحشودُ عنّي قليلًا، فجاهدتُ حتى أتخطى الأجساد وأدخل وراءها الشارع الجانبي، فرأيتها أمامي تمامًا، لكن يا للصدمة، مع شخص آخر يُمسك بيديها الاثنتين وينظر في عينيها باشتياق نهم. غمرني الارتباك ولم أدرِ كيف أتصرّف. خطر لي أن أعود إلى كمشتاتو. في الوقت عينه فكّرتُ أن أتجاوزهما وكأني مجرد عابر. هذا التضارب شلّ قدميّ وبقيتُ أنظر إليهما بأسًى عجزتُ عن إخفائه. التفتَ إليّ الشاب مستغربًا نظراتي، فاستدارتْ تتبع عينيه اللتين أوصلتها إليّ. ابتسمتُ وجبيني يتعرّق، قبل أن أعود بنفس السرعة التي جئتُ بها وأنا ألعنُ غبائي الذي أوقعني في هذا الحرج. لم تكن إذن تنظر إليّ، لم تكن تمنحني أنا الإشارة، دخلتُ ببلاهتي على الخطّ بينها وبين حبيبها. تخيلتهما الآن يضحكان وهما يستدعيان ملامحي المذهولة، قبل أن يعودا لأشواقهما وينسياني للأبد.

وجدتُ كمشتاتو على حاله من الرقص الصاخب، لكنّ نفسي المنكسرة كانت عاجزة عن الإحساس بذلك. انزويتُ إلى ركن واتكأتُ أراقب الوجوه الباسمة بملامح واجمة.

لا أعرف لم تذكرتُ المرة الأولى التي انجذبتُ فيها إلى فتاة، بعد أن كان ذلك محفوفًا عندي بالمهابة. كنتُ قبلها أخاف التعلّق، أستبعد أن أكون مرغوبًا، أخشى مجرد المحاولة، حتى شاع أني لا أصلح للحب. حتى جاءتْ.

كانت مجندة تكبرني سنًا، كلما صادفتني تمنحني ابتسامة غامضة دون أن تنطق. في البداية ظننتُ أنها مجرد تحية عابرة قادتها المصادفة للتكرار، لكن مع الوقت انتبهتُ لما هو أكثر. كانت الفتاة مشغولة بي، حين ألتفتُ أجدها تنظر إليّ، أضع نفسي متعمدًا في مجال رؤيتها فتتوقف لتراقب حركتي. هذا الانشغال شغلني بها، أصبحتُ أنا من يترصّدها، أستحثّ ابتسامتها الغامضة، وأبني بها جدار الثقة في داخلي. بذلتُ الكثير من الوقت والجهد كي أتجاسر وأحاول الاقتراب منها. نجحتُ مرة لكني لم أستطع الحديث إليها، منعني خوف قفز من أعماق روحي. لمتُ ترددي كثيرًا وقد بدا أنها تنتظر بادرتي. في المرة التالية، حقنتُ نفسي بالإقدام واتجهتُ صوبها. كانت تنتظرني بتلك الابتسامة وقد تخلّتْ عن غموضها لتصبح أكثر انكشافًا؛ هي تدعوني لأكون أكثر شجاعةً، وقد كنتُ.

«هل أستطيع أن أتحدث إليكِ قليلًا».

لا أعرف كيف خرجتْ تلك الكلمات، لكني فعلتها أخيرًا. اتسعتْ ابتسامة الفتاة، وهي تخبرني بنبرة متحفّزة أن ألتقيها مع حلول المساء خلف التلة. بقيتُ اليوم كلّه مضطربًا وأنا أتخيّل الكلام الذي

سيدور بيننا. كيف ستجري العبارات على لساني وقد تعذّبتُ ببضع كلمات؟ خطر لي أن أتخلّف عن موعدنا، لكنني أعرف أنها فرصتي الأولى، وقد تكون الوحيدة.

حين حان الوقت، اتجهتُ صوب المكان باضطراب أكبر، قلبي يخفق بشدة، وقدمي منهكة قبل البدء. وقفتُ قليلًا أمام التلة، ملأتُ صدري بالهواء ودرتُ حولها نصف دورة لأجدها أمامي. كانت تنظر في اتجاه آخر قبل أن تنتبه مرتبكة لقدومي. مثلي هي إذن، يملؤها التوتر. مدّت يديها بجسارة، فتقدمتُ نحوها بالجسارة نفسها. أعجبني هذا التعاضد الذي يحدث بيننا، نحن أقوى معًا. أمسكتْ بيديّ فسرَتْ قشعريرة في جسدي حرصتُ ألا تظهر أمامها.

«هل تحبّني؟»

فاجأني سؤالها. بدت خطوة متقدمة جدًا. لكني مع هذا كنتُ مأخوذًا بجرأتها. أحببتُ انقيادي خلف هذا الجنون. ابتسمتُ وأنا أجيبها بصوت واثق:

«نعم. أحبكِ».

لم أكد أنتهي من جوابي حتى تعالتْ الصيحات والضحكات من كل جانب. سُلّطتْ علينا أضواء الكشّافات اليدوية.

«ربحتُ... ربحتُ».

كانت الفتاة تتقافز مبتهجة، بينما أصبحنا محاطَيْن بأصدقائها الذين انقسموا بين من يهنئها بكسب الرهان ومن يضحك في وجهي بتلذذ. احتجتُ لوقت حتى أدرك ما يجري، وأغادر منكسرًا. كانتْ خطواتي بطيئة، ربما لأني كنت أنتظر اعتذارًا سريعًا من الفتاة، لكنّ

بهجة كسبها للرهان حول الإطاحة بي أنساها ذلك. ولم أنس ذلك أبدًا.

عدتُ بذهني إلى كمشتاتو.

لم يمرّ وقت حتى لمحتُ الفتاة صاحبة الشال مجددًا، هذه المرة كانت وحدها، تسير وهي تتلفّتُ وتبحث عن شيء. للحظة خطر لي أن أظهر أمامها بشكل يبدو عفويًا، ارتحتُ لعدم ظهور رفيقها، لكني سرعان ما عدتُ إلى حالة الغيظ بمجرد أن تذكرتُ انكساري أمامهما.

انتبهتْ لي فأدرتُ وجهي سريعًا للناحية الأخرى، وأنا أسترق النظر بخفّة لأجدها تقترب. وقفتْ إلى جانبي تنتظر أن أحوّل انتباهي نحوها. التفتُّ بتراخٍ، وقابلتُ ابتسامتها الواسعة بأخرى فاترة.

«في أيّ منطقة كنتَ تقاتل؟»

«في الميدان».

أجبتها وأنا أتعمّد الانشغال بمتابعة الحشود من حولي. أرادتْ الاستفسار أكثر لكني غادرتُ قبل أن تُكمل سؤالها. سرتُ بضع خطوات ثم خطفتُ نظرة نحوها فوجدتها متسمّرة بملامح حانقة، قبل أن تُغادر بدورها. قاومتُ شعوري بالذنب وانخرطتُ في متابعة ضجيج كمشتاتو».

قطّب الأوروبي جبينه، وهو يسأل بضيق:

«لكن لمَ فعلتَ ذلك؟»

دارى ديفيد ابتسامة زَهْوٍ لفرط الأثر الذي تركته قصته عند الرجل. تخيّل نفسه خارجًا من المكتب وبيده البطاقة الزرقاء. الوقت فقط ما

يفصله عن هذه اللحظة. سيشهر البطاقة في وجوه القلقين المنتظرين في الخارج. سيثبتُ للجميع أنه يحمل حكاية مختلفة جعلتْ منه آخر من يقدِمُ على المخيم، وأول من يحقّق مراده.

«سأشرح لكَ الآن».

بنفس الزهو خرجتْ كلمات ديفيد وهي تعرف طريقها تمامًا.

(11)

رغبة الاكتشاف لم تُطفئها جولة الأمس.

هذه المرة غادر داويتْ السكن نهارًا بمجرد أن انتهى من دروسه. أراد رؤية نافيه شأنان تحت الضوء. سار بثقة وهو يرى المكان بملامح طبيعية؛ حركة دائبة في كل الاتجاهات، أناس من جنسيات مختلفة، لكنّ السحنة السوداء ظلّتْ هي الغالبة. لمح عربة شرطة مسيّجة في مدخل الحيّ، بينما يعبر الأفارقة إلى جوارها دون اكتراث.

مرّ أمام مجموعة تجلس في واجهة مقهى إثيوبي. التفتَ له أحدهم ونبّه البقية، قبل أن يخاطبه أحدهم بالأمهرية:

«مرحبًا بالوافد الجديد».

أشار داويتْ بيده رادًّا التحية، وهو يغذّ السير حتى تجاوزهم، فعاجله آخر بنفس الأمهرية الصافية:

«محظوظ يا عبد».

تجاهل الإساءة ومضى في طريقه، لكن دون أن يغيب عنه كيف أنّ هذه الشتيمة بالذات تطارده أينما حلّ. اتجه يمينًا، فوجد سوقًا للخردوات. وقف أمام عربة ساعات، فاقترب منه البائع يعرض عليه بضاعته:

«هذه وصلتْ الآن. سعرها ألفا شيكل، هي لك بألف فقط».

قلّب داويتْ الساعة التي بدت جديدة، ذات الإطار المعدني الأسود اللامع، والقرص الفضيّ، قبل أن يعيدها إلى مكانها. فبادر الرجل بعرض جديد:

«خمسمئة... وهذا آخر سعر».

استغرب هذه المرونة الكبيرة فأحب أن يختبر مداها:

«مئتان... ما رأيك؟»

«خذها».

تردّد داويتْ قليلًا، وأعاد تقليب الساعة خشية الخديعة. أراد أن ينزل بسعرها أكثر لكنَّه خشي من غضب البائع، قبل أن يدفع للرجل ماله ويمضي مزهوّاً بمعصمه الأيسر.

انتهى الشارع بحديقة كبيرة غير معتنى بها، تتناثر فيها مجموعات من الأفارقة تغلب عليهم اللغة العربية مع بعض العُجْمة. سار بينهم يشجعه عدم تعرضهم له، رغم النظرات الفضولية. اتضحتْ اللهجة السودانية أكثر. جلس غير بعيد عن مجموعة تتحدث بصوت عالٍ، وتتبادل النكات بقهقهات هستيرية. إلى جوارهم مجموعة أخرى تتمدّد على العشب، وتطالع السماء بصمت. لاحظ مجموعة آسيويين تحلّقوا حول حقائبهم، وآخرين ينشرون ملابسهم على جذع شجرة دانٍ. حلّ أوان صلاة العصر، فقام البعض باتجاه المسجد المطلّ على الحديقة.

وصلت عربة نقل صغيرة، أخذ أفرادها الأفارقة يوزّعون المياه على الجالسين. كان داويتْ يراقب القناني المتطايرة التي يتلقّفها مَن

حوله. انتظر أن تُقذف باتجاهه واحدة، وحين طال الانتظار، أشار إلى أقرب رجل دون جدوى. قام نحوه مادًّا يده. كاد يعطيه لكنه توقّف فجأة وهو يتفرّس ملامحه، قبل أن يتجاوزه إلى آخر بجواره. عاد داويتْ إلى مكانه وقد فَقَدَ الرغبة في الشرب.

مرّتْ فتاة توزّع منشورات قُوبلتْ بزهد واضح. رمى شاب جواره بالورقة بعد أن ألقى عليها نظرة سريعة، فالتقطها داويتْ؛ منشور توعويّ بالعربية والأمهرية حول طرق الوقاية من الإيدز، قبل أن يطويها ويضعها في جيبه.

سمع صوتًا يقول:

«لا يوجد شيء مجانيّ هنا عدا النصائح».

التفتَ إلى مصدر الصوت، الذي أكمل دون أن ينتظر تعليقًا: «باستثناء ما تحصلون عليه بالطبع»، قبل أن يُطلق ضحكة لئيمة.

حار داويتْ أمام التعليق الأخير، ما جعل الشابّ يتشكّك قليلا:

«ألستَ من الفلاشا؟ المعذرة، فأنتَ ترتدي ملابسهم».

نظر داويتْ إلى ملابسه محاولًا التقاط ما يجعله مكشوفًا بهذا القَدْر؛ بنطال رياضي أبيض، وقميص أزرق تتوسّطه نجمة سداسية تحتها كُتب بأحرف دقيقة: بيتا إسرائيل. لهذا إذن كانتْ تلاحقه النظرات في الحديقة، والإهانات في السوق. هل مُنعت عنه قنينة الماء للسبب ذاته؟

كان الشابّ لا يزال ينتظر ردًّا، فترك داويتْ هواجسه، وأجاب بعربية باغتتْ قليلًا محدّثه الذي كان يستخدم أمهرية ركيكة:

«نعم. وأنت... من السودان؟»

صمت الشاب قليلًا قبل أن يطرد ارتباكه:

«يعقوب... من نيالا».

تجاوز الشاب سريعًا مرحلة التعارف، وقفز إلى أسئلة مدفوعة بفضول بادٍ على ملامحه:

«أخبرني كيف يعاملونكم؟ هل صحيح أنّ هؤلاء الكلاب يعطونكم ألفا شيكل في اليوم، بينما يتركوننا نتضوّر جوعًا؟ هل وظائفكم محجوزة قبيل قدومكم؟ كيف يتأكدون أنكم يهود مثلهم؟ ستنضم إلى الجيش... صحيح؟ سمعت أنّ رواتبكم تتضاعف هناك بقَدْر ما تقتلون... أخبرني... هيا».

لم يعرف داويتْ من أين يبدأ أمام قذائف يعقوب. لم يكن على يقين أنه قادر على الإجابة دون تحرّز من الانكشاف. بدا أنّ الشاب محتشد بالغيظ أكثر من حاجته للمعرفة. اختار أخيرًا إجابة غائمة:

«ليتنا في هذا النعيم».

صمت يعقوب قليلًا، وهو يحاول استخلاص شيء من إجابة داويتْ، قبل أن يعاود هجومه:

«حسنًا... هل صحيح أنّ معظمكم يشتري الهوية اليهودية في إثيوبيا؟ كيف ينطلي ذلك على هؤلاء الملاعين؟ هيا أخبرني كم دفعتَ لتصبح يهوديا؟»

ارتعب داويتْ وهو يرى الشاب ينتقل من الإشاعات إلى الأسرار المخفية. أيقن الآن أنه لا يودّ الانخراط في هذه اللعبة الخطرة. لم يملك هذه المرة إجابة مواربة، فاختار الهجوم بالطريقة ذاتها ليداري اضطرابه:

«دعك مني، وأخبرني متى وكيف قدمتَ إلى هنا؟ وهل ستبقى أم ستعود؟»

عدّل يعقوب من جلسته وهو يتحفّز للإجابة، قبل أن تظهر فتاة سمراء ترتدي تنورة قصيرة تكشف عن فخذين ممتلئَيْن ببشاعة، وهي تنادي على الشاب.

غمز يعقوب لمحدّثه وهو يعده أنْ يجيبه باستفاضة في أقرب فرصة، ونهض فورًا نحو الفتاة. شعر داويتْ بالارتياح لانزياح ورطته. لم يكن معنيًا بالإجابة بقدر الهروب من حصار الرجل.

نهض هو الآخر، وبخطى سريعة سار نحو سكنه قبل أن يصطاده فضوليّ آخر في نافيه شأنان.

في اليوم التالي، كان مقررًا له أن يزور المرشدة النفسية.

نقلتهم الحافلة إلى شارع راتسف هربرت صامويل المحاذي للكورنيش، حيث تقع عيادة ماتزبين. على غير عادته، لم يعبأ كثيرًا بما هو مُقْدِم عليه؛ جلس في مقدمة الحافلة، وحين نزل سجّل نفسه في بداية الكشف. نما لديه شعور بالاطمئنان كانت هذه نتائجه. لا يدري إن كان مردّ ذلك إحساسه بالوصول إلى وجهته، أم فقط لأنهم أشعروه بروتينية الزيارة وعدم أهميتها.

دلف إلى غرفة صغيرة، ناعمة الإضاءة يتوسطها مقعدان وثيران. جلس على أحدهما فيما جلستْ قبالته سيدة أربعينية شقراء، تلمّ شعرها الغزير بمشبك أسود كبير. وضعتْ قدمًا على أخرى، وهي تتصفّح ملفّه، بينما تمنحه ابتسامة بين الحين والآخر، قبل أن تفرغ له:

«حسنًا يا داويتْ... في البداية يجب أن تعرف أنّ هذا إجراء عاديّ

لمعرفة ما إذا كنتَ بحاجة لمساعدة من أي نوع. كل شيء ستقوله سيكون مفيدًا مهما بدا صغيرًا. ولن تخرج كلمة مما ستقولها عن جدران هذه الغرفة».

هزّ رأسه موافقًا، بينما يفرك يديه. لا يعرف لما بدأ يشعر بتوتر غامض، كأنّه إزاء استجواب كالذي مرّ به في إنداغابونا. بدتْ المرأة مريحة، لكنه تعلّم ألّا يثق بأحد، خصوصًا أولئك الذين يبذلون لطفًا مبالغًا فيه.

«حدثني عن نفسك».

لا يحب داويتْ هذا السؤال. يشعر به ينخر حُجُبه، يقشّر مكنونه طبقة تلو أخرى، حتى لو لم يجب، فما يُخبّئه الصدر يقوم الوجه بتعريته.

«من أين أبدأ؟»

قذف داويتْ بهذا السؤال وهو يدرك لا جدواه، لكنه في الأثناء كان يبحث عن حكاية يملأ بها الوقت، وتبقيه آمنًا. عادة ما يشعر بالاطمئنان إزاء الانطلاق في نسج الحكايات كما كان يفعل في الميدان أثناء انخراطه في خدمة فرقة المسرح. كان يقضي الوقت وهو يراقب أداءهم، تلك الطريقة التي يتحدث بها الممثلون، وهم يسردون القصة تلو الأخرى دون الاستعانة بالورق. كان يندهش لقدرتهم على الخروج من حكاية للدخول في أخرى. حفظ كل ما سمعه، كان يستمتع بإعادة تمثيله حين يخلو بنفسه، ولكم كانت سعادته غامرة حين منحوه دورًا قصيرًا لا يتجاوز النطق بكلمة واحدة في وسط السوق: قماش... قماش، بعد أن كان دوره ينحصر في جلب الماء، وحمل الكراسي وإعادة ترتيبها. ليلتها نام كأسعد ما

يكون، وهو يمنّي نفسه بأن تكبر أدواره حتى يُصبح أهم ممثل في الفرقة العسكرية.

«كما تشاء... لكن ربما لو تحدّثنا عن طفولتك ستكون بداية جيدة».

أخرجته المرشدة من استرساله، وهو يتوقّف عند كلمة بداية. أيقن أنه أمام استدراج لن ينتهي سريعًا. تنحنح وهو يستعدّ مضطرًا لتلاوة كذبة جديدة، لكن في الوقت عينه داخله شعور بالإثارة ما إن سقط غطاء قلم المرشدة النفسية تحت أقدامه دون أن تبادر إلى التقاطه:

«ولدتُ في مَكَلي التي قضيتُ فيها أعوامي الأولى. يتوسّط بيتنا الطيني مربعًا يحاذي سوق المدينة الشعبي. تنتهي باحته الصغيرة بباب يبقى مفتوحًا طوال اليوم على باحة الجيران المفتوحة على أخرى، فيصبح البيت متراميًا حتى يصل إلى مدخل السوق.

أقضي الوقت أتنقّل من بيت إلى آخر. لا باب يحدّ حركتي. أصحابي هم كل مَن أجده في طريقي. كنتُ أمضّي النهار بطوله في لعب كرة القدم متى كنتُ محظوظًا بكرم صاحب الكرة في إشراكي مع المجموعة، قبل أن يشتري لي والدي دراجة فأصبحتُ أنا صاحب الحظوة في منح من أشاء جولة قصيرة في الحيّ. مع المساء أعود معفّرًا بالتراب، فتجلسني أمي تحت الصنبور العالي عاريًا وسط تعليقات جاراتها الضاحكة. كنتُ أحب الأمسيات التي أقعد فيها أتلصّص على أحاديث الجارات. تتركني أمي دائمًا إلا حين ينحو الكلام إلى مواضيع الكبار كما تسمّيها، فتأمرني بالمغادرة إلى الداخل. كنتُ أتظاهر بالاستجابة، بينما أقف حذو الباب أستمع إلى جارة بذيئة تصف بتفصيل كيف يعتليها زوجها كالثور وهي تئنّ

تحته قتيلة. جارتنا هذه التي تجهد أمي ألا أختلي بها، لا تنفكّ تعيد هذه الحكاية مع تعديلات طفيفة. تضحك النسوة بينما تكتفي أمي بابتسامة، وهي تتلفّت مضطربة ما إذا كان أحد يسترق السمع. في مرة أثارتْ هذه الجارة موضوعًا حاولتْ أمي تجنبه لكنها خضعتْ أخيرًا تحت إصرار البقية على الخوض فيه.

«أوَّل ما يظهر من زوجي حين يدخل البيت قضيبه الذي يراوح مخنوقًا يكاد يخترق قيده القماشي مع كل خطوة. أهرع إلى الرجل لأحمل عنه المؤونة، فأتعمّد أن أحتك به لأجده وقد أصبح قدمًا ثالثة. ماذا عن أزواجكنّ؟»

غطّتْ النسوة وجوههنّ بحياء مصطنع، قبل أن يبدأن حديثًا في الأطوال. حين وصل الدور إلى أمي كانت قد غادرتْ خجلها قليلًا. صمتتْ مطرقة في الأرض وابتسامة تستولي على وجهها، فتعالتْ الصيحات المحفّزة.

«هو طويل بما يكفي».

عادتْ إلى إطراقها قليلًا قبل أن تستدرك وقد انخرطتْ في مزاج الجلسة تمامًا:

«يكفي ويزيد».

شعرتُ بالزهو لأنّ والدي ليس أقلّ من البقية. وددتُ لو أخرج من مخبأي لأخبرهنّ بحكاية كنتُ شاهدًا عليها، لأخبر أمي على وجه التحديد أني مررتُ ليلة ببيت جارتنا البذيئة لأسمعها تشتم زوجها وهي تطلب منه أن يجلب مرآة لينقّب تحت كرشه عن عضوه المختبئ كلص مرتعد. تركتها تلك الليلة تندب حظَّها وتتمنَّى لو كانت بحظّ رفيقاتها في الحيّ.

نظر داويتْ في عيني المرشدة النفسية وهو يتوقّع ارتباكًا ما، لكنه فوجئ بها تُسجّل ملاحظاتها بابتسامة هادئة نقلتْ الارتباك إلى وجهه.

حين خرج من العيادة كان مصابًا بالإعياء لفرط ما اضطر إلى سرد حكايات، بعضها مختلق، وأخرى سمعها في مكان لا يتذكّره. هكذا كان يتعامل مع الأمر، كل شيء من حوله قابل لأن يصبح حكاية مثيرة؛ حتى تلك المعادة عشرات المرات. يعيد ترتيب الأحداث، يضيف عليها، يحذف القشور والزوائد ويتجه صوب المتن. يبدأ بقوة، ثم يبطئ من سرعته، قبل أن يعاود الصعود من جديد وهو يخطف أنفاس مستمعيه.

في فراشه ليلًا، كان مزهوًا بقدرته على الإتيان بكذبات متقنة، كان مزهوًا أكثر بفرك غطاء القلم الذي استطاع التقاطه بخفّة قبل مغادرته العيادة. لكنّ شعورًا غير مفهوم بعدم الارتياح عاد وتملّكه وقد اكتفتْ المرشدة بالاستماع دون أن تُشركه في كل ما خرجتْ به من لقائه. أغمض عينيه وهو يرجو ألا يكون قد ورّط نفسه من حيث أراد النجاة.

(12)

«لم تفلح محاولاتي في الانشغال بالاحتفالات عن الفتاة.

شعرتُ برغبة كبيرة في البحث عنها، في الحديث معها، في البقاء بقربها على أقل تقدير. نقّلتُ بصري في الجوار. لم تكن هناك. سرتُ بالاتجاه الذي سلكَته. كنتُ أجتاز الحشود بمشقة، أرتطم بالأجساد المتعرّقة، يحتك كتفي بنهود نافرة، دون أن يستوقفني ذلك. ولم تظهر الفتاة.

يمرّ الوقت ومعه تزداد حاجة غامضة للقائها.

شعرتُ بعبث البحث عنها، وقامتي لا تتيح لي تجاوز الأجساد المتطاولة من حولي. اهتديتُ إلى مصطبة مرتفعة فارتقيتها، فانكشف المكان أمامي. بدا شعورًا لذيذًا حسدتُ معه طِوَال القامة. طفتُ ببصري بثقة أكبر؛ شاب يطوّق حبيبته، غير بعيد منه عجوز تقبّل ما تبقى من ذراع ابنها المبتورة، على بعد أمتار مقاتل يبكي بحرقة أمام سينما روما، ويستوقف أناسًا ينظرون إليه بحيرة، في الجهة المقابلة... تقف الفتاة تلاعب طفلًا مشردًا.

قفزتُ عن المصطبة أشقّ الصفوف نحوها. لم تتنبه لي إلا وأنا أقف أمامها تمامًا. ارتبكَتْ قليلًا قبل أن تداري ذلك وتواصل

انشغالها بالطفل بافتعال مفضوح. أخرجتُ عشرة سنتات ووضعتها في يد الطفل، فترك الفتاة ومال عليّ. ربّتُّ على رأسه وأنا أنظر في وجهها بينما تتعمّد تجاهلي. همستُ في أذنه فغادر مسرعًا. اقتربتُ منها فَخَطَتْ بعيدًا خطوتان. جسرتُ المسافة بثقة.

«لم تُخبريني عن اسمكِ».

منحتني ابتسامة باهتة وواصلَتْ تحديقها في البعيد. أمسكتُ يدها فانتزعتها بعصبية استولتْ على ملامحها، وأدارتْ وجهها. هزّ تمنّعها ثقتي. هممتُ بالمغادرة، لكنّ خوفًا من فقدانها تمامًا أبقاني في مكاني. ألقيتُ بورقتي الأخيرة:

«أنا آسف... كنتُ فظًا معك، وهذا لا يليق بجميلة مثلك».

لمحتُ ابتسامة تغالبُ لتُخفيها، فتشجّعتُ أكثر:

«كذلك لا يليق بالجميلات أن يكنّ قاسيات القلب».

هنا انفرط عقد الصد، وسمعتُ ما بدا ضحكة مكتومة. لكنها لم تلتفتْ لي.

اقتربتُ أكثر. كانتْ لا تزال تدير ظهرها لي، ويدها اليمنى تُمسك بطرف الشال على فمها. خطوتُ حتى وقفتُ أمامها تمامًا. تركتْ الشال لينزاح ويكشف عن وجهها كاملًا. هنا استولتْ عليّ ملامحها؛ شعرها القصير الفاحم، سمرة وجهها الشهيّة، النظارة الطبية دائرية العدسات تمنحها شكلًا بريئًا ومغريًا في الآن نفسه، بروز لعظمتي الوجنتين، امتلاء خفيف في شفتها السفلى، أثر جرح صغير في طرف الشفة العليا، حبة خال كبيرة في نقطة التقاء نحرها بأول الصدر. انتبهتْ لالتهامي تفاصيل وجهها، فعدلتُ، واستقررتُ عند عينيها التي أستطيع النظر إليهما كيفما أشاء دون حرج.

بدا أنها كانتْ تنتظر مني البدء، فيما كنتُ محتارًا كيف أبدأ. وددتُ أن أتجاوز كل أشكال البدايات لأخبرها كم هي جميلة. لم يكن لائقًا أن أخوض معها حديثًا عاديًا وهي حدث لا يمرّ بي كل يوم. عجزتُ عن مقاومة الطواف مجددًا في وجهها، وهي تخفض عينيها ثم ترفعهما لتجدني لا أزال على حالتي.

لا أعلم ما الذي يجري على وجه الدقة، وربما لا تعلم هي ذلك أيضًا. لا أعلم لِمَ يبدو أننا نكمل شيئًا بدأناه في عمر مضى. ثمَّةَ ألفة في هذا اللقاء كأنّه يجري للمرة العاشرة. لم يكن قرارنا بالكامل، هناك ما يدفعنا لنكون في مواجهة قَدَرنا الجميل هذا. طاقة علوية تبثّ إرادتها فتلقاها دون جدال. لا أدري لِمَ أشعر بخشوع روحي أمام هذا الوجه، لمَ أحسّها تنكفئ، تركع تسجد، وتطيل السجود.

«عائشة».

نطقتْ به بنصف وضوح، وهي تجيبني على سؤال قديم. ابتلع الخجل صوتها في الأخير. ومع هذا شعرتُ بالاسم مكتملًا. كنتُ قادرًا على تذوّقه، شمّه، وملامسته. لكنها كانت كمن يمنحني الفرصة الأخيرة لأتقدم خطوة إلى الأمام. اخترتْ البدء حين طال انتظارها. لكنّها أوقعتني في ورطة أخرى؛ ماذا أقول لها؟ هل أذكر اسمي الذي أعرفه؟ أدال؟ ستعرف على الفور معنى أن يُسمّى شخص باسم جبل، أو وادي أو معركة. ليس مستبعَدًا أن تشعر بالتقزز وتغادر دون أن تحاول إخفاء خيبة أملها. ربَّما ستكون أكثر رأفة بي، وتجد مخرجًا رحيمًا لانسحابها، لكنّها ستذهب أيضًا في آخر المطاف. هنا شعرتُ أنَّ الأقدار لم تُهيئ الأمر على تمامه، بقدر ما دلّتني على أول الطريق، فلم أجد بدًّا من إكماله:

«داود... اسمي داود».

ببطء خرجتْ الكلمات، وكأني أجرّب نطقها. كأني أسمعها مثلها للمرة الأولى.

ابتسمتْ وهي تهمس «اسمٌ جميل»، فأزاحتْ عنّي حرج الكذب وحقنتني بجرأة أكبر. مددتُ يدي. مدّتْ يدها، وكان لقاء مدوّيًا لكفّيْنا. شعرتُ أنّ يدي تتشبث بيدها، ترجوها أن تظلّ هناك للأبد. يدها السمراء الرقيقة تُثير فيّ الحزن لسبب لا أعرفه.

«كفّكَ خشنة».

قالتها وهي تضحك بحياء. سحبتُ كفّي خجلًا فهي كفٌّ ما عرفتْ إلا البراري والمهام الشاقّة، دون أن تكون جاهزة ليوم عظيم مثل هذا. لو كنتُ أعرف أنّ قَدَرًا جميلًا كهذا ينتظر كفّي لخبأتها عن العالم حتى يأتي موعدها.

شعرتْ بوقع كلمتها عليّ فأعادتْ احتضان كفّي بكفّيها، وهي تحاول محو أثر ملاحظتها:

«لكنها الكفّ التي تدافع عنا... أليس كذلك يا داود؟»

ملأني الزهو. أحببتُ اسمي الجديد، بدا كأنه يرافقني منذ الولادة، منذ اللحظة التي اختلف فيها والديّ كلٌّ يريد منحي الاسم الذي اختاره. ربما بعدها ولحسم الخلاف انتهيا إلى القرعة التي مالت بي إلى داود. يا له من اسم، خاصة حين تنطق به عائشة بكل هذا الغنج. إنه ولا شكّ أكثر الأسماء ملاءمة لي. انزلقتُ أكثر في خيالاتي حتى خطر لي أن أتساءل مع نفسي: ترى ماذا كان سيحدث لو اختير لي اسم آخر؟ كم كنتُ سأفقد دون هذه الطريقة المحبَّبة في نطقه؟ لكني

عدتُ إلى ما يشبه القناعة أنّ أي اسم كان سيصبح شهيًا ما إن تنطق به عائشة، حتى لو كان أدال».

«إذن أنت لستَ ديفيد... لم تكذب على عائشة فقط».

أخرجه موثّق الجلسة من استغراقه وأعاده إلى الواقع. جملة واحدة نفضتْ عنه تلك العذوبة في كمشتاتو وقذفتْ به بقسوة إلى مكتب متنقّل في إنداغابونا حيث يواجه تحقيقًا يسبق تحديد مصيره. تلعثم ديفيد الذي كان داود في أسمرا وقبله أدال في الجبهة. لكنّ إشارة من الأوروبي طلبتْ منه أن يستمر في سرد حكايته. كان واضحًا أنّ صاحب القرار قد انساق بكلّيته تجاه الحكاية حتى لم يعد قادرًا على تحمّل أي تشويش ولو كان بحجم كذبة في معلومات الرجل الأساسية. تجاهل ديفيد نظرات الموثّق الحانقة وشرع في إكمال حكايته:

«جلسنا على مصطبة مجاورة لمدخل المطعم. كان المكان يُتيح لنا مراقبة الاحتفالات الصاخبة في شارع الحرية، لكنه أيضًا يمنحنا مسافة تجعلنا نبدو وحدنا في أسمرا كلّها. أصبحتْ الموسيقى والزغاريد خلفية للقائنا المنزوي هذا كأنّ المدينة كلها لم تخرج إلا لتتوِّج هذا الحدث وتمنحه ما يستحق. كانتْ عائشة تُنقّل بصرها بيني وبين كمشتاتو، وكنتُ ساهمًا في ملامحها ومكتفيًا بها. ثمة تواطؤ بيننا ألّا نسأل عمّا يحدث، عمّا يجري في عروقنا في هذه اللحظة بالذات، كنا نعيشه فقط، نؤدي الدور المنوط بنا كمهمة مقدسة.

«حدّثني عنك...» صمتتْ قليلًا قبل أن تستدرك: «عن قتالك في الجبهة أقصد».

أنقذني استدراكها، فكيف أخبرها ألّا حياة لي خارج الجبهة.

لا طفولة في قرية أو مدينة. فتحتُ عينيّ في ميادين القتال، وأنا أنتقل من حاضنة إلى أخرى، وكلهنّ أمي. كانت المقاتلات يتناوبن على ربطي بظهورهنّ. معهنّ أصعد التلّ وأنزل السهل، وأتمدد في الخنادق. أول لعبة كنت أعبث بها هي بندقية كلاشينكوف فارغة، وربما ممتلئة، مَن يدري! أوَّل كلمة نطقتُ بها كانت محاولة فاشلة لتقليد صوت إعطاء الأوامر لجندي المدفعية بالإطلاق، قبل أن أكتفي بتقليد صوت القذيفة بنجاح متقن.

أنقذني استدراك عائشة لأني لن أكون قادرًا على إخبارها أنّي كنتُ أساعد المجندات في سحب الجرحى إلى الصفوف الخلفية. أمسك بالأيادي نصف المبتورة، وأقترب من الوجوه المشطورة، وتمتلئ ملابسي بالدماء حتى أفاجأ بمجندة تحتضنني مذعورة قبل أن تصطدم بضحكة خبث فتنهرني بنبرة مصطنعة وهي تدعوني لمساعدتها في سحب جريح جديد.

هذا لم يكن حالي في المرة الأولى.

لم يكن جريحًا، أو بالأحرى لم يظلّ كذلك. فقد شاركتُ في سحب شابّ جراح رأسه غائرة. كان يئنّ تارة، ويبكي بصوت عال تارة أخرى وهو يسأل المجندات إن كان سيموت.

كنتُ أنظر إليه بفزع، وأحيد بنظري عنه بمجرد أن يلتفت إليّ. كنتُ أتفادى سؤاله المتكرر: هل سأموت؟ لم أكن جاهزًا لأكذب، ولم أكن قادرًا على قول الحقيقة أيضًا.

بثبات كانت مجندة تقف عند رأسه وهي تحاول إيقاف الدماء ريثما يصل الطبيب. نظرتْ نحوي وأمرتني بجلب المزيد من الضمادات. لم أتحرك. لم يبدُ عليّ أني سمعتها. أعادت طلبها

بصوت مرتفع، ولم أتحرّك أيضًا. شلّني منظر الدماء النافرة من رأس الشاب، بكاؤه المتقطع، ورجاؤه بأن يفعلوا أيّ شيء كي ينجو. ولم ينجُ آخر الأمر.

قضيتُ أيامًا وأنا أرتعد من الحمّى، فيما تفرغ معدتي أي طعام آكله، وتزورني هلوسات وكوابيس مزعجة كلها تدور حول الدماء والرؤوس المفتوحة.

لا أستطيع أن أخبر عائشة بهذا الضعف، ولا أستطيع إخبارها أيضًا كيف أصبح الأمر عاديًا جدًا بعد ذلك. كيف أصبحتُ قادرًا على رؤية الموت يحوم فوق رأس الجريح قبل أن يأتي الطبيب، وكيف أتلقّاه باعتياد فاتر. أصبحتُ قادرًا مع الوقت على رؤية الموت في عيون مَن حولي، حتى قبل أن تبدأ المعركة، هناك طقس ما تدخل فيه الأجساد المقبلة على الموت وهي في أتمّ عافيتها. لا أستطيع شرح الأمر، لكني لسبب أو لآخر أستطيع رؤية ذلك.

أنقذني استدراك عائشة من كل ذلك، لكنه وضعني في مأزق آخر؛ فبدأتُ في نسج أكاذيب من العدم:

«حاولتُ مرارًا إقناع والديَّ بأن ألتحق بالثورة، لكنهما كانا يرفضان بشدّة بحجة صغر سني، حتى اضطررتُ للهرب أخيرًا والالتحاق بالجبهة. هناك تعلمتُ استخدام السلاح وبرعتُ فيه حتى حصلتُ على استثناء للمشاركة في المعارك على خلاف أترابي الذين كانت أقصى مهامهم هي مساعدة المجنَّدات في سحب الجرحى والقتلى إلى الصفوف الخلفية. كنتُ ألمح في أعينهم تلك الغيرة الحارقة من أدائي القتالي وإشادة رؤسائي الدائمة. حتى أنّ

بعضهم أعلن احتجاجه بشكل علني مما عرّضهم للعقوبة وزاد من نقمتهم عليّ».

صمتُّ لبرهة وأنا أخشى انجرافي في المبالغة لكني وجدتُ عائشة تنظر إليّ بزهو، كأنها تتأمل بطلها العائد سالمًا بعد أن أنجز مهمته بنجاح، وليس شابًا التقته الآن للمرة الأولى. انتقل ذلك الزهو إليَّ وحفّزني على رفع سقف خيالي:

«لا أعرف هل يجدر بي أن أخبركِ أني وتحت إلحاح الواجب اضطررتُ لل...».

بدا التحفّز على ملامح عائشة وهي تستحثّني لأكمل.

«اضطررتُ للقتل».

شهقتْ الفتاة ووضعتْ يدها على فمها، فبادرتُ للاستدراك:

«لم يكن ذلك إلا دفاعًا عن جنديّ كاد يتلقّى رصاصة من الخلف لولا أني عاجلتُ المهاجم بطلقة من بندقيتي أوقعته قتيلًا فورًا».

اتسعتْ ابتسامة عائشة ولمعة امتنان تستقر في عينيها، بينما ازداد غرامي بقدرتي على التحليق بعيدًا. في لحظة خطر لي أن أختبر ما يعنيني عن قرب فأضفتُ بتردد:

«الجنديّ الذي أنقذتُ حياته كان من ثمار النضال، وربما تعلمين درجة تدريبهم العالية، هذا جعلني مرشحًا قويًا لأنال امتيازاتهم».

انكمشتْ ابتسامة عائشة وتقززت ملامحها قبل أن تعود الابتسامة إلى شفتيها، لكن مع بعض الفتور».

أطلق الأوربي ضحكة عالية أعقبها سعال متقطع، وهو يُشير بيده:

«أكمل... أكمل».

شعر ديفيد أنه كلما أوغل في حكايته اقترب من تحقيق مراده. خطر له أنه بعد أن يُقبل في برنامج التوطين، ستتحوّل قصته هذه إلى حكاية أخرى يعتمدها اللاجئون وسيلة للنجاة ويقضون الوقت في محاولة حفظها عن ظهر قلب. سيعود ليخبر يوهانس كيف أنه ترك حكايته جانبًا وأبحر بحكاية جديدة أوصلته إلى مبتغاه. مدّ يده بجرأة لم يكن يملكها ورشف قليلًا من قنينة ماء كانت أمام الأوروبي. تعمّد ألّا يلتفت إلى موثّق الجلسة، تنحنح قليلًا حتى أصبح جاهزًا لإكمال حكايته.

(13)

رنّ هاتف الغرفة. كان حارس البناية يُخبره أنّ صديقه ينتظره عند البوابة. استغرب داويتْ ونزل وباله مشغول بالتخمين عمّن يكون، حتى وجد يعقوب أمامه وعلى شفتيه ابتسامة واسعة.

«فكّرتُ أنكَ قد تريد الخروج قليلًا».

حار داويتْ وهو يبحث عن عذر يمنعه من مرافقة ضيفه الثقيل. تداعى أمامه فضول البارحة وهو يحاصره تمامًا.

«هيا يا رجل».

قطع عليه يعقوب كل الطرق بإصراره، فوافق بتراخٍ لم يغيّر إظهاره شيئًا.

«اليوم سنتحدث عنك فقط... يهمنّي أن أعرف كل شيء عن صديقي».

ضغط داويتْ على الكلمة الأخيرة. كانتْ هذه هي حيلته الوحيدة كي ينجو من الاستجواب، وقد ابتهج بموافقة يعقوب الفورية.

أخذه الصديق الجديد إلى قلب سوق نافيه شأنان. بدا معروفًا للجميع وهو يتلقّى التعليقات والتحيات. مرّا ببائع الخردوات الذي اشترى منه

داويتْ الساعة. حيّاه يعقوب، قبل أن يميل على صاحبه ويُخبره أنّ أجود مسروقات تل أبيب تستقرّ عند هذا البائع. لم يستطع داويتْ أن يكتم ضحكة وقد استبانتْ له الأمور. ليته يجد عند هؤلاء الباعة ما يهمّه بالفعل، فالساعة ذات الإطار المعدنيّ الأسود اللامع، أصبحتْ حبيسة درجه فقط لأنه لم يعتد من قبل أن يحيط معصمه بالساعات.

غاب يعقوب قليلًا في صالون للحلاقة وعاد يحمل وجهه بشارة غامضة.

«حظك من السماء... قطعة أفغانية».

نظر داويتْ إلى يد الرجل فوجد لفافة حشيش سوداء. ارتعب وهو يتلفّتُ حوله قبل أن تأتي تطمينات ضاحكة من صاحبه. تذكّر كيف كان قريبًا من تدخين الحشيش لأول مرة، وقد سمع عنه كثيرًا حتى غدا يشتهيه وهو لا يعرف طعمه، لولا أنّ السيجارة الوحيدة التي حصل عليها وخبأها طويلًا حتى يجد فرصته الملائمة، وقعتْ منه في مصرف للقاذروات من فرط ارتباكه حين أقبلتْ عربة شرطة في شارع كمشتاتو بأسمرا. لكن ها هو الحظ يقذف بأمنيته مجددًا أمامه.

انزويا في زقاق، وأخذ داويتْ يراقب صاحبه يُشعِل طرف اللفافة بلهب خفيف، قبل أن يمزجها مع تبغ أفرغه من سيجارة مهترئة، ويعيد لفّها بخفة لافتة، وهو يمدّها لداويتْ.

سَحَبَ نفسًا عميقًا فاشتعل حلقه وصدره بحريق مباغت وسعل بقوة.

«على مهلك يا زول... على مهلك... لا تحاول أن تغدر بالصاروخ فيغدر بك».

عاود داويتْ السحب لكن هذه المرة على مهل، فشعر بالدخان يتسلل إلى رئتيه قبل أن يصعد إلى رأسه ويستقرّ هناك محدثاً خدرًا لذيذًا. مجّ مرة أخرى فتعاظم شعوره بالاسترخاء.

«هات يا زول... ألم تسمع بالاشتراكية؟»

قهقه يعقوب وهو يرمي بتعليقه قبل أن يستلم اللفافة، بينما ترك داويتْ يتتبع خيط الخدر يسري في جسده ببطء شهيّ.

«شوف... أنا من أوائل القادمين إلى إسرائيل، ولولا حظي التعثّر لحصلتُ اليوم على أوراق الإقامة».

جهد داويتْ ليمنح تركيزه إلى محدثه، وشيء في نفسه يقنعه بعدم الخروج من دائرة تأثير اللفافة. ودّ لو يعاود استنشاق الدخان الخارج من رئة يعقوب.

«غادرتُ دارفور برفقة صديقين إلى القاهرة وغرضنا الحصول على بطاقة لاجئ تطير بنا إلى أوروبا. طال الانتظار مع الأعداد الكبيرة لطالبي اللجوء من دول إفريقية، وجميعهم يدّعون القدوم من دارفور. كان غريبًا معرفتهم الكبيرة بجغرافية بلدي، حتى داخلني الشكّ. قضينا على آخر جنيه بحوزتنا فتجمّعنا في ميدان مصطفى محمود كي نضغط على الحكومة المصرية ومكتب المفوضية. كان عددنا يقارب الأربعة آلاف، وكنا قد دخلنا شهرنا الثالث من الانتظار بلا معنى، يقرصنا البرد والمطر ولا نملك إزاءهما إلا أكياسًا من البلاستيك نضعها على رؤوسنا. وفي ليلة سبقتْ انتهاء العام ألفين وخمسة، حاصرتنا قوات الأمن بعد منتصف الليل بقليل. كانوا قرابة الألفين. ظننا بداية الأمر أنهم يودّون إخافتنا، وهذا ما شاع حتى ركنّا

إلى طمأنينة كبيرة، غير أنهم ومع صباح الجمعة الذي أذكره جيدًا، بدأوا يُطلقون علينا خراطيم المياه، وانهالوا ضربًا بالهراوات، حين وجدوا مقاومة من قبل المحتجّين. عمّتْ الفوضى ولم نعد ندري أين نذهب. تفرّقتْ العائلات، وسحق الهاربون بأقدامهم مَنْ سقط على الأرض. وحين هدأتْ الأمور، تنبّهنا للفاجعة؛ خمس وعشرون روحًا أُزهقت ذاك الصباح، بينهم أعزّ صديق. لا تزال ملامح القتلى تطاردني مهما سعيت لأنسى ما جرى. لا أعرف كيف نجوت. كانت حفلةً للموت لا يفترض أن ينجو منها أحد».

تهدّج صوت يعقوب وهو يمدّ باللفافة وقد غدت بحجم ظفر، فالتقطها داويتْ وسحب بعمق حتى وصلتْ شعلتها إلى إصبعه دون أن يكترث.

«وقعنا في ورطة حقيقية، بينما اكتفتْ مفوضية اللاجئين بإجراءات هامشية لامتصاص غضبنا. لا أعرف كيف بدأتْ فكرة الهجرة إلى إسرائيل، لكني سمعتُ الرفاق يتهامسون بأنّ أعدادًا غادرتْ بالفعل، ولقيت الترحاب. ترددتُ في البداية، لكنّ تعسّر الأحوال كان له القرار الأخير حتى...».

«اسمعْ... هل لديك لفافة أخرى؟»

صمت يعقوب قليلًا، وقد بوغِتَ بنهم داويتْ وانشغاله عن القصة بمزاجه. أخرج قطعة وبدأ في تمريرها على النار.

«كنتُ أنوي توفيرها لليل، لكن لا بأس... هي لك».

لمعتْ عينا داويتْ وهو يتناول اللفافة الجديدة، ويطلب من صديقه أن يُكمل الحكاية باهتمام زائف. تردّد يعقوب قليلًا، لكنه حسم أمره حين عاد داويتْ ليلحّ عليه:

«عبرنا إلى سيناء. كنا مجموعة من سبعة أفراد. لا أخفيك، كنتُ مرعوبًا من الوقوع في قبضة الأمن الإسرائيلي، لكنّ المفاجأة كانت أننا تعرّضنا لإطلاق نار من الجانب المصري. أصيب شخص لا أعرفه بينما نجا البقية. وصلنا إلى السياج العالي الذي يفصلنا عن إسرائيل، فتعاونا على عبوره، لنجد لوحة ترحّب بنا.

أذكر تمامًا أني وقفتُ عند اللوحة كأنّها الحد الفاصل بين حياة الشقاء التي تركتها خلفي وحياة الرغد التي تنتظرني. لكنّ الأمر لم يكن كذلك. قابلتنا فرقة من حرس الحدود الإسرائيلي واقتادتنا إلى سجن كتسيعوت في النقب. قالوا لنا إننا سنمر بإجراءات روتينية لن تتجاوز الساعات، لكنّ ما حصل هو أنَّ أحسننا حالًا مكث أشهرًا هناك».

ذبلتْ عينا داويتْ وهو يواصل المجّ بشراهة خشية أن ينتبه له صاحبه ويذكّره بالاشتراكية، لكنّ يعقوب كان منشغلًا بحكايته وقد أصبحتْ حروفه أكثر بطئًا.

«خرجتُ من كتسيعوت بعد ستة أشهر مع تذكرة حافلة إلى تل أبيب، وبطاقة تقول إنني مستفيد من إطلاق السراح المؤقت فلا يحقّ لي العمل. عرفتُ أنّ صفتي الجديدة هي متسلل وليس لاجئًا، لكني لم أدرك إلا متأخرًا أنّ ذلك يعني إغلاق الباب تمامًا أمام قبول أوراقي. لم يكن هذا حال الجميع، فقد خرج آخرون ببطاقة لاجئ وهم اليوم أنصاف مواطنين، لم يضطروا مثلي مثلًا للعمل في مزارع العنب ساعات طويلة مقابل حفنة شيكلات، أو النوم في العراء بسبب تفويت دقائق بعد السادسة مساء وهو موعد إغلاق الملاجئ

العمومية. ربما ستسألني لماذا تم رفض أناس وقبول آخرين... صدقني لا أحد يعلم».

لم يكن داويتْ مهتمًا بالسؤال؛ فقد ألقى عقب اللفافة الفارغ وسحقه بقدمه بنشوة بادية، بينما الاحمرار راح يغزو عينيه. حين التفت إلى يعقوب وجده ساهمًا ينظر في أشلاء اللفافة.

(14)

«اليوم التالي، كان اليوم الأول من الاستقلال.

بدتْ أسمرا مختلفة تمامًا دون أن يتغيّر شيء في شوارعها أو مبانيها. التغيّر كان في نفوس الناس الذين ورغم سهرهم الطويل البارحة عادوا إلى الشوارع مع طلوع الصباح كأنّهم يطمئنّون على المدينة المحررة، على بقاء كل شيء فيها على حاله الجديد. بدا أنّ الجميع أصبح شرطيًا يحرس ممتلكات تخصّه.

مثلهم خرجتُ إلى كمشتاتو باكرًا لكن لأسباب مختلفة.

«سنلتقي غدًا».

أحمل وعد عائشة، الذي ألقتْ به قبل أن تغادر، كتميمة أواجه بها العالم. لم تُخبرني متى على وجه الدقة ستأتي، لكني ولكي أسدّ منافذ تفويتها قدمتُ إلى شارع الحرية أسابق مطلع اليوم. ساعدني على ذلك أني لم أستطع النوم خلال الساعتين الأخيرتين من الليل. كانتْ التعليمات تقضي أنْ نتوجه «نحن» في النهاية إلى سكن مدرسة الثورة. لم أكن لأجد حرجًا قبل ذلك لولا عائشة التي دخلتْ في عالمي فغيّرتْ كل شيء. لا أريد لها أن تقترب من هذه التفاصيل. الجميع يعرف أنّ مدرسة الثورة مخصصة لأعضاء فري قدلي، لذا

حين غادرتْ تأكدتُ من ابتعادها تمامًا لأسلك طريقًا جانبية باتجاه مبنى البريد المركزي ومنه إلى سوق السمك فأخذتُ دورة كاملة حول كمشتاتو وأصبحتُ في الجانب الآخر منه، وأنا ألتفتُ ورائي باستمرار. سرتُ قليلًا حتى بلغتُ مخبز ميكال، كانت المدرسة خلفه تمامًا، لكنّي مجددًا اخترتُ التريّثُ وفحص الوجوه العابرة حولي. لا أعرف لِمَ كنتُ أعتقد أنّ عائشة تتبعني متخفية حتى تُمسك بي متلبسًا بكذباتي. لهذا ربما كانت كلمات التبرير تتراصّ متحفّزة على طرف لساني لأقذف بها بمجرد ظهورها. حين دلفتُ أخيرًا وأغلقتُ باب المدرسة خلفي، انزاح اضطرابي وارتحتُ قبل أن يعاودني القلق وأنا أتقلّب على سريري. لطالما كنتُ محسودًا كوني من ثمار النضال. يرى الجميع كيف نُهيأ لمستقبل البلاد، يعرفون أننا نُجهّز لنكون عمود الوطن الفقري، نحظى بتعليم جامعيّ، ونُلزَم بإتقان أكثر من لغة، وإجادة استخدام الأسلحة الخفيفة. وحدنا بلا انتماءات قبلية أو دينية، الثورة وجهتنا الوحيدة، هي الأم والوالد. بدوري كان الأمر ملتبسًا لديّ بعض الشيء، فمن جهة كان يُبهجني هذا الاعتناء من القيادة، وذلك الحسد الذي يُثيره في عيون أترابي، لكنَّه لم يستطع تخليصي تمامًا من شعور الفَقْد، من أن أكون بلا أب أو أمّ، بلا أخوة، بلا حائط أستند عليه، بلا تأريخ، بلا ذاكرة. كنتُ أغتاظ حين ألمح تلك النظرات الهازئة من رفقاء لا يملكون جرأة الإفصاح عن شعورهم تجاهي. لم تتمكّن تلك العناية الفائقة «بنا» أن تُنسينا تمامًا أننا جئنا نتيجة متعة عابرة في الجبهة لا تكلّف أصحابها مشقة الالتفات خلفهم لتفقد النتيجة.

كان يراد لنا ألّا نتعلّق بشيء سوى الثورة، لهذا كانت تتناوب

علينا المرضعات حتى لا يتحوّلن إلى أمهات في غفلة من الثورة. تبعثرتْ عواطفي بين نساء كثيرات، لا يكاد فمي يعتاد على ثدي حتى يُستبدل بآخر أبدأ معه رحلة الألفة من جديد، لا أكاد أستقرّ على رائحة مقاتلة وأنا مربوط إلى ظهرها، حتى يتم تغييرها بأخرى. حين كبرتُ قليلًا كان يشغلني سؤال إن كانت والدتي الحقيقية قد غافلتْ الثورة وجاءتْ لرعايتي كمرضعة أو جليسة. أي رائحة بالضبط تعود إليها؟ ترى هل تعمّدَتْ أن تُبقي منها شيئًا؟ لكنّ جسدي يخلو من العلامات. هل حاولتْ أن تضع إشارة ومنعها الخوف تحت طائلة العقاب الشديد؟

هل تراها لم تفُكّر فيّ حتى؟ هل كانت من أولئك النسوة اللاتي قادهنّ الإيمان بالثورة إلى الإنجاب لإكثار سواد المقاتلين ليس إلا؟ هل أتيتُ إذن إلى العالم حتى دون تلك المتعة العابرة؟

كانت تأخذني الأسئلة بعيدًا، لكني أعود في النهاية لأنظر حولي فأعرف أني أفضل حالًا من كثيرين لديهم عائلة ويفتقدون كل شيء آخر.

لكن ماذا عساي أنْ أفعل الآن في وجود عائشة؟

كيف أخفي كل ذلك التاريخ وأجيء إليها بلا ذاكرة؟ أشعر بملامحها الفاتنة تصطفّ إلى جانب الوجع لترجّح كفته وتعيد تذكيري بالفَقْد. لا تغادرني تلك الملامح المتقزّزة حين سمعتْ كلمة ثمار النضال. ستلفظني بعيدًا إذا علمتْ أني واحد منهم. سيقف كل ما يعرفه الناس عنا حائلًا بيني وبينها، لن تكون قادرة على تجاوز تلك التفاصيل التي يتندّر بها الناس في الخفاء؛ طلقة البندقية النهاريّة في الهواء تفتتح علاقة الليل بين جنديّ ورفيقته، التهافت

على الإنجاب لإكمال الواجب الوطنيّ قبل التفرغ للمتع الشخصية دون لوم، الأسماء الممنوحة؛ جبال ومعارك وأودية وقرى، وورطة التشابه حين يتقاسم اثنان اسمًا ثمَّ لا يجدان اسم أب أو عائلة يُفرّق بينهما، فيلجأ الآخرون لحيل جانبية من قبيل: أدال كبير وأدال صغير، أو تُلصق بالواحد إحدى صفاته البارزة ليصبح: أدال الأعرج أو السريع أو الأحول، إلى آخر تلك الحيل البائسة.

«سبقتني إذن!».

وضعت عائشة بنبرتها المرحة حدًّا لتأمّلي. انتبهتُ لوجهها الصباحيّ كم يبدو شهيًّا، وعينها لا تزال تحتفظ بشيء من إرهاق البارحة فامتلأتْ نعاسًا آسرًا. مالتْ عيني نحو قميصها الأبيض المشدود وهو يبرز نهدًا يكاد يناديني لفرط نفوره. أردتُ أن أهبط أكثر لأستقر عند ساقين يكشفهما بنطال أزرق قصير.

«الآن جئتُ».

لا أدري لمَ بادرتُ بهذا الجواب على عجل، ربما لأنّ خوفًا خالطني من أن أفقدها باندفاعي خاصة إذا انتبهتْ له، أو ربما أردتُ أن أعرقل اندلاق روحي نحوها بهذه الكثافة حتى لا تتبدّد لأي طارئ. لا أعرف. كنتُ كثير التحوّط حتى لا أعود خائبًا من رحلتي معها وأنا لا أعرف بعد إلى أي وجهة تقودني على وجه التحديد».

توقّف ديفيد حين رفع الأوروبي يده التي تحمل قلمًا ثم قرّبها من فمه كأنّه متردد بين الصمت والكلام. هذا التوقّف لم يجعل الأوروبي يحسم قراره فظلّ يلوك القلم صامتًا على وشك أن يقول شيئًا. التفتَ إليه المترجم وموثّق الجلسة، فشعر بوطأة العيون المترقّبة ونطق أخيرًا:

«دعني أخمّن: لقد انتهى كل شيء في آخر المطاف، لأنه لو لم يحدث لما رأيناك هنا... صحيح؟»

لم يكد ديفيد يجيب، حتى استدرك الأوروبي يرجوه أن يتجاهل سؤاله ويكمل الحكاية كيف شاء. هنا تبسّم ديفيد وهو يلتفت إلى موثّق الجلسة بنظرة واثقة فأرخى الآخر عينه مستسلمًا وقد استشعر كم تأسر القصة لبّ الأوروبي.

«بالتأكيد لم ينتهِ».

بدا الارتياح على محيّا الأوروبيّ وهو يسمع إجابة ديفيد الجازمة، قبل أن يحثّه مجددًا على المواصلة.

«تعال معي».

سحبتني عائشة من يدي. سرتُ معها وأنا أجدّد العهد بيدها الناعمة، ويداخلني حرَجٌ من ملمس يدي الخادش. أخذتني عبر شوارع جانبية إلى شارع ترافولو حتى وصلنا إلى مطعم La madia. في الداخل كانت تقف أربعينية فاتنة.

«أمي... هذا داود».

مددتُ يدي وقد أدركتُ من أين جاءتْ عائشة بهذه العيون الناعسة. هكذا ستبدو فتاتي إذن حين تكبر أكثر. ستضيف بعض الأعوام على ملامح وجهها دون أن يفقد فتنته.

مددتُ يدي. مدّتْ الأم يدها البيضاء بتراخٍ. أمسكتُها وخطفتُ نظرة على العروق الخضراء، قبل أن أُفلتها تحت إحساسٍ غامض بتململها.

«أمي... داود أحد مقاتلينا الأقوياء».

رمقتني الأم بنظرة متشكّكة، فيما خفضتُ رأسي متشاغلًا بالقماش الأنيق للطاولة الزجاجية. جلستْ عائشة قبالتي وهي تعقد يديها تحت ذقنها وتهبني نظرة باسمة أربكتني. بدا أنها تتأملني، تزحف بعينيها على قسمات وجهي ببطء. خجلتُ من ملامحي التي أعرف. ليتني كنتُ وسيمًا، بل ليتني كنتُ عاديًا حتى تجد ما تتوقّف عنده. هربتُ من عينيها إلى اللوحات المتناثرة على الحائط. صور قديمة لأسمرا إلى جوار أخرى لروما. صورة بالأبيض والأسود لشاب يقف إلى جانب سيارة سباق تحيط به فتاتان بتنانير قصيرة ضيقة.

«هذا جديّ. يقولون إنني أشبهه كثيرًا. ما رأيك؟»

استغللتُ التفاتها تجاه اللوحة لأسرق نظرة سريعة إلى فخذها الذي بان عريه وقد انحسر البنطال أكثر.

حين رجعتْ كان جوابي جاهزًا:

«لا أحد يُشبهك».

ابتسمتْ بخدر. وعادتْ لالتهام ملامحي، فعدتُ لتقليب بصري في المكان. كانت أمها من بعيد ترمقني بنظرات متقطّعة. جاء العامل يحمل طبقين وضعهما بيننا.

«ستتذوق أعظم بيض بالفطر في أسمرا. لا أحد يتفوّق على مطعم أمي في ذلك».

عدتُ إلى وجهها. كان ينتظرني على حاله.

أمسكتْ عائشة بالشوكة والسكين وبدأتْ في تناول فطورها برقّة لم أعهدها من قبل. تقطّع البيض والفطر إلى قطع صغيرة، وتضعه في

فمها نصف المفتوح، قبل أن تلتقط قطعة خبز صغيرة. مضغها هادئ ومنساب. بارتباك حاولتُ تقليدها. لم يسبق لي أن وضعتُ حائلًا بين يدي والأكل. لا أذكر أن طبقًا أخذ مني وقتًا حتى أمسحه تمامًا، لكني اليوم أمام اختبار عسير. استعصتْ القطع على الشوكة، كلما قرّبتها من فمي، تسقط على فخذي. مدّتْ لي عائشة بقماشة زهرية كانت تستقرّ أمامي. مسحتُ ما علق بي وأعدتها إلى الطاولة، فانتبهتُ أنها تضع قماشتها على فخذها. عدتُ لوضعها بشكل مماثل.

«تناول فطورك كما تشاء يا عزيزي».

عدّلتُ جلستي محرجًا من انكشاف جهلي، لكنّي كنتُ مصرًّا على مجاراتها، وحين لم ينجح الأمر تظاهرتُ بالشبع بينما الجوع اللعين ينهشني.

اتجهنا صوب الباب وأنا أشكر الأم على الوجبة اللذيذة، فقابلتني بابتسامة فاترة، قبل أن تنادي على ابنتها. بقيتُ قرب الباب أرقبهما يتهامسان. حين خرجنا كان وجه عائشة غائمًا قليلًا».

صمت ديفيد مطرقًا في الأرض، وهو يفرك يديه بعصبية.

«الأمهات اللعينات... لا تخبرني أنها حرّضتْ فتاتك عليك؟»

استحال فضول الأوروبيّ إلى غيظٍ جليّ. لكنّ ديفيد تجاهل السؤال، ومضى يكمل حكايته:

«مضى أسبوعان وأنا ألتقي عائشة كل يوم. أتفنّن في اختلاق الأعذار كي أتفادى زيارة مطعمهم مجددًا. تارة لأني تناولتُ فطوري باكرًا، وأخرى لأني لا أشعر بالجوع، وثالثة لأدعوها إلى مطعم جديد. استولى عليّ القلق من فكرة رؤية أمها ثانية. تلك الملامح الناعمة والصارمة في الآن نفسه. وحين أحار في عذر جديد أجدها

لا تأتي على ذكر المطعم. يخطر لي أحيانًا أنّ دعواتها المتكررة لم تكن جادة، بقَدْر ما كانت لتبديد شكوكي حول مشاعر أمها تجاهي، بينما يعرف كلانا أنّ لها رأيًا في علاقتنا.

جلسنا على عتبات كاتدرائية القديس جوزيف نراقب المارة. التصقتْ بي عائشة كما لم تفعل من قبل. أشعر بفخذها يراود فخذي باحتكاك متقطع. وضعتْ يدها على كتفي، فالتصقتُ بها أكثر.

«هل تعرف أني أحب أكتافك القوية؟»

سرَتْ في جسدي رعدة خفيفة، تجرأتُ معها على تطويقها بذراعي، فمالتْ عليّ برأسها وهي تشدّ بيدها على ظهري لتقضي على صمودي تمامًا.

«وظهرك أيضًا... أحبه».

هل هذا حقيقي؟ هل في جسدي ما يلفت فاتنة مثلها؟ لم يسبق لأحد أن توقف عند شكلي إلا بالسخرية. لوهلة خطر لي أنها تستخفّ بي، لكنَّ عينيها الناعستين كانتا ممتلئتين بالصدق.

ماذا أقول لها؟ كم يلزمني من الوقت لأخبرها بالأمور التي أحبها فيها؟ والتي أشتهيها؟

يدها الناعمة التي تحرث ظهري الآن بأظافر صقيلة، هي أمنيتي. أود لو أنها تمسح كل شبر في جسدي فتعيد له اعتباره.

لكنِّي بقَدْر رغبتي تلك أشعر بالرعب من افتضاح أمري؛ ثمار النضال. الكلمة التي تطاردني ستنهش هذا القرب وتبدّده. نجحتُ حتى الآن في إخفاء سرّي العظيم. تفاديتُ فضول عائشة في معرفة مكان سكني، أوصلها إلى بيتها أولا، ثم أسلك طرقًا ملتوية إلى

مدرسة الثورة، ولا أخرج إلا وقد تأكدتُ تمامًا من خلو الطريق. أتجنّب زملائي المجندين في الشوارع، وأعود للاعتذار منهم كل ليلة.

لكنَ ذلك كلّه لم يعد كافيًا، وموعد انخراطي في المهام العسكرية بمدرسة الثورة يقترب. سيتعذّر عليّ لقاؤها لفترات طويلة، دون أن أجد سببًا مقنعًا.

لا تزال الرَّعْدَة تقدح في ظهري وتسري في جسدي كله. عائشة تشعر بذلك. أرى إصرارًا في عينيها على إسقاطي صريع يدها.

ولا تزال تتحدث بحبّ.

أخبرتني عن طفولتها؛ عن جدها لأمها الإيطالي الذي أدخل رياضة سباق السيارات إلى إرتريا، عن أبيها الذي غاب مبكرًا حتى قبل أن تكوِّن عنه ذكريات تسلّيها، عن أمها طيبة القلب، التي تولّتْ مسؤولية تربيتها وأغلقتْ الباب أمام طابور المريدين.

لم أكن قادرًا على منحها كامل اهتمامي. كنتُ مشغولًا بأن يستمرّ كل ذلك؛ أن يظلّ اقترابها، يدها، بنطالها القصير، احتكاك فخذها بفخذي، قمصانها الضيقة. ذلك التواطؤ على البقاء معًا دون أن نسأل نفسَيْنا لماذا.

انتبهتْ لشرودي فنادتني. التفتُّ فباغتتني لأول مرة بقبلة طويلة، وغادرتْ مسرعة.

قضيتُ بقية اليوم صامتًا لا أريد لشيء أن يختلط ببقايا ريقها الذي تركته على تخوم شفتيّ».

(15)

تداعتْ أصوات عربات الشرطة على مدخل نافيه شأنان، فتحفّز المارة. شعر داويتْ بالخوف، وهو يلتمس في وجه يعقوب وأصدقائه ما يبعث على الطمأنينة.

استطاع أخيرا، بفضل يعقوب، أن يصبح مقبولًا في الحيّ. كوّن صداقات ليست عميقة، لكنها غدتْ تقيه الإساءات التي يطفح بها المكان. أصبحتْ له مجموعة يمضي الوقت معها، وتسأل عنه إن غاب. كان متشكّكًا من التزامهم تجاهه، حتى وجدهم يرحّبون به في غياب صديقه. طلبوا منه أن يخفي أنه من الفلاشا، وألّا يرتدي ملابسهم، وأن يتجنّب الدخول إلى سكنه أمام أعين المارة، ثم يترك بقية الأمور عليهم.

«هل سمع أحد منكم التحذيرات؟»

هزّتْ المجموعة رؤوسها بالنفي وهي تجيب على سؤال أحدهم. بدا غريبًا أن تصل الشرطة إلى الحيّ دون أن يتناقل سكّانه الصيحات التحذيرية. قرأ داويتْ في عيون رفاقه بعض القلق.

تقدمتْ عربات الشرطة المصفّحة، فلملم الباعة المتجوّلون بضاعتهم، وأغلقتْ بعض المحال أبوابها، فيما حمل شاب بملامح

عربية لوحة مكتوب عليها «لستُ عربيًا»، وهو يتقدّم باتجاههم. فحص الضابط أوراق الشاب ثم تركه يواصل طريقه.

«احفظوا ملامح هذا الكلب، واقطعوا رجله عن المكان».

استفسر داويتْ من يعقوب عن مقصده، فأخبره أنّ بعض اليهود المشرقيين يتسلّلون إلى الحيّ لشراء الحشيش مستفيدين من سحنهم المألوفة.

«وهل يحظر على اليهود دخول نافيه شأنان؟»

ضحكتْ المجموعة لسؤال داويتْ، قبل أن يتبرّع أحدهم بإخباره أنّ اليهود غادروا الحيّ مع تزايد أعداد اللاجئين الأفارقة، حتى أصبح المكان يُسمّى جمهورية تل أبيب.

«الزم الهدوء يا سوداني... الزمْ الهدوء يا سوداني».

بادر يعقوب بتوضيح نداءات الشرطة لداويتْ قبل أن يسأل:

«كل أسود عند اليهود هو سوداني».

عرف داويتْ أن أمرًا جللًا قد حدث في الحيّ، فالشرطة لا تهتم بالمتسللين ولا تجارة المخدرات ولا الدعارة. توقّع الرفاق أنهم يبحثون عن قاتل، أو مرتكب جرم كبير.

مرّت العربات جوارهم والجنود يحدّقون فيهم بتمعّن، قبل أن يتوغّلوا في الحيّ أكثر.

«يبدو أنهم يعرفون غريمهم تماما».

نطق داويتْ بالعبارة ففوجئ بالمجموعة تلتفتُ نحوه باندهاش.

«أها... ها قد أصبحتَ خبيرًا بشؤون نافيه شأنان».

شعر داويتْ بالإطراء لملاحظة يعقوب. لم يمرّ وقت حتى عاد

الجنود وقد أودعوا شابا إفريقيًا مكبّل اليدين في إحدى العربات، قبل أن يغادروا الحيّ تمامًا.

«لا قيمة للصيحات التحذيرية. الشرطة تعرف ذلك تمامًا وتوهمنا بتعرّضها للخديعة، لكنها حين تريد أن تعتقل شخصًا تخرس كل الألسن».

صمتتْ المجموعة في إقرار لما قاله أحدهم. أما يعقوب فاقترب من داويتْ وهمس في أذنه:

«ما رأيك أن أنسيك توتّر اليوم؟»

ترك الصديقان المجموعة وسط همهمات ساخرة تُنبئ بأنّهم يعرفون الوجهة. مَضَيَا في أزقة ملتوية حتَّى توقَّفا أمام منزل يتصدّره ضوء أحمر. التفتَ يعقوب إلى داويتْ بخبث وهو يعده بليلة مختلفة.

طرقا على الباب فتأخر الرد.

«لا تقلق... إجراءات أَمنيّة».

ضحك داويتْ لتعليق صديقه، قبل أن يصمت مع صوت إدارة المفتاح في قفل الباب. ظهرتْ فتاة سمراء تمضغ بغنج علكة وتعبث بيدها في شعرها الأشقر رديء الصبغة. قبّلها يعقوب وعبر، فيما ظلّتْ تحدّق في داويتْ قبل أن تقترب من وجهه حتى شعر بأنفاسها. منحها ابتسامة مرتبكة وعبر، فضربته على مؤخرته وهي تطلق ضحكة رقيعة حين قفز كالملسوع.

في الداخل استقبلتهم بابتهاج عجوز تجرّ أردافها وتعدّل من حمالة صدرها الضخمة، وهي تسأل يعقوب عن الوافد الجديد.

«هذا صديق يهمني كثيرًا وأريده أن يخرج راضيًا، وإن استطعتِ ألّا يخرج فسيكون عظيمًا. أما أنا فتعرفين طلبي».

رمى يعقوب بجملته وأتبعها بضحكة وهو ينزوي في إحدى الغرف لتتبعه فتاة متوسطة الجمال. وقف داويتْ حائرًا حتى سحبته العجوز إلى غرفة مجاورة وأغلقتْ الباب عليه. مرّت دقائق بطيئة شحنته بالتوتر. خطر له أن ينسحب، لكنّ رغبة أكبر كانت تدفعه ليكمل الأمر.

عادتْ العجوز ووقفتْ إلى جانب الباب المفتوح، قبل أن ينهمر سيل من الفتيات يعرضْنَ أنفسهنّ على داويتْ. اشمأزَّ من الأولى التي كانت تملأ وجهها الأصباغ. لم يحبّ في الثانية فمها الكبير. كره في الثالثة الثآليل التي تحتلّ ما ظهر من جسدها، لم تعجبه الرابعة لنظرة البلاهة التي تغطّي ملامحها، تجاهل الخامسة وقد بدتْ معتدة بنفسها دون إمكانات. أخيرًا وجد واحدة بدتْ مقبولة قليلًا. أشار للعجوز فصرفتْ المجموعة واستبقتْ الفتاة.

حين أُغلق الباب عليهما لاحظ ارتباكها. بيضاء طويلة، بملامح عادية وصدر نصف ضامر. انتظر مبادرتها لكنّها تسمّرتْ مكانها. اقترب منها فشعر بارتباكها أكثر. داعب شعرها ليخفّف من توترها فنطقتْ أخيرًا:

«أنا جديدة هنا... أرجوك لا تؤذني».

لم يفهم داويتْ كلامها فأشارتْ إلى ما بين فخذيه. ضحك بزهو لكنه عاد لتطمينها:

«لا تخافي... لن أؤذيك».

خلعتْ ملابسها ببطء، فبدأ في خلع ملابسه، وهي تسترق نظرات إلى أسفل بطنه. تذكّر أمرًا فسألها إن كان في المكان من يرتدي نظارة. استغربتْ سؤاله قبل أن تُجيب بالنفيّ بعد صمت قصير. حين تعرّى

تمامًا أطلقتْ ضحكة ماجنة وهي تخبره يقينها أنه لن يقوم بإيذائها. استولى الغيظ على داويتْ وتمنّى لو يصفعها، على الأقل ستعرف حينها أنه قادر على الإيذاء.

حين انتهى وجد يعقوب في انتظاره، بينما مرّتْ الفتاة إلى جواره وهي تهمس في أذنه أن تعال دائما يا صغيري. ضغطتْ على الكلمة الأخيرة وهي تُطلق ضحكتها الرقيعة مجددًا.

(16)

«حلّ موعدي الذي أخشاه.

عشيته أخبرتُ عائشة أني سأزور أقاربي في مُصوّع لأسبوع. باغتها الأمر وقرأتُ حزنًا في وجهها. كانت المرة الأولى التي يحول بيننا طارئ. فجأة لمعتْ عينها بفكرة عرضتها بابتهاج. طلبتْ أن ترافقني، وأخذتْ تشرح الطريقة التي ستقنع بها أمها. كانت متأكدة أنَّها ستتمكّن من ذلك. انطلقتْ تُخبرني بحماستها لزيارة مصوّع معي، للسباحة في بحرها الصافي. لكنَّ رفضًا قاطعًا ألجمها، وأعاد سحابة الحزن إلى ملامحها. لم أكن أملك فكرة عمّا سأفعله بعد انقضاء مدة كذبتي، لكنَّها كانت حيلة تمنحني بعض الوقت حتى أجد مخرجًا.

غادرتْ، وتركتني مشوّشًا. خطر لي أن ألحق بها، أن أخبرها أني عدلتُ عن قراري. وأنّ أسمرا دونها كئيبة تنفث شعورًا يضغط على صدري بقسوة، لكني لم أستطع. تركتها تمضي والتفتُّ إلى ما ينتظرني.

منذ الفجر، انخرطتُ في مهامي الجديدة بمدرسة الثورة؛ دروس صباحية، وتأهيل سياسي، وتمارين شاقة. استغراق كامل حتى الليل

لم ينزع عائشة من ذهني للحظة. بقَدْر ذلك كنتُ أودُّ لو يستطيل اليوم فلا ينقضي الوقت، وأصطدم بجدار كذبتي أمامها.

حين مرَّ الأسبوع طلبتُ إذنًا للغياب. كان يحقّ لي يوم واحد فقط في الشهر إلى أن أكمل شهري الثالث لأحصل على عطلة أسبوعية اعتيادية. بدتْ تلك ورطة أخرى، لكنّ لهاث قلبي تجاه عائشة أعماني عن الانشغال بما سيأتي.

طرقتُ على الباب وأنا أرجو ألّا أجد أمها في وجهي. انتظرتُ دون مجيب. هممتُ بالطَّرْق مجدَّدًا، لكنّ الباب فُتح. كانتْ عائشة، بسروال قطنيّ طويل يحجب بعضه قميص باللون الزهريّ نفسه. نظارتها تغوص في شعرها المبعثر، ووجهها شاحب تزيده الأعين المتورّمة إعتامًا. حين أدركتْ وجودي، وضعتْ نظارتها على عينيها اللتين اتسعتا دهشة قبل أن تصرخ باسمي وهي تحتضني وتبكي.

«لن تتركني... أليس كذلك؟»

احتضنتها بشدة، ووجهي يلتصق برقبتها. لم أجد ما يهدّئ اضطرابها. لم تكن الكلمات تُجدي، فاكتفيتُ بهذا الاقتراب الحارق. حين هدأتْ دعتني للدخول. ترددتُ قليلًا، فابتسمتْ ابتسامتها التي أعرف:

«لا تقلق... أمي ليست هنا».

بدا البيت أنيقًا دون تكلّف. غرفة جلوس واسعة، يغلب عليها اللون الأبيض. تتمدّد عليها أريكتان بُنّيتان متقابلتان وثالثة صغيرة. جلستُ على الأريكة الصغيرة، فيما غابتْ عائشة قليلًا. أمامي تستقرّ ما بدا أنها صورة العائلة؛ شاب أسمر وسيم يحتضن طفلة، وإلى

جواره زوجته الفاتنة. أحببتُ الأب، نظرته واثقة، وابتسامته صافية. يُطوّق عائشة بكلتا يديه، كأنّه لن يُفلتها أبدًا.

عادتْ تحمل مفرش القهوة وإناء الماء، تتبعها العاملة بالموقد والوعاء الفخّاري. جلستْ قبالتي، وهي تطلب من السيدة أن تتركها تُكمل المهمة. كنتُ أتابعها بزهو وهي تُحمّص القهوة، بينما تمنحني نظرات حانية. عاد وجهها إلى تورّده. رتّبتْ شعرها، وارتدتْ تنورة طويلة، فبدتْ أشهى. كنت أنظر إلى المسافة بيننا بغيظ. وددتُ لو أنها تقترب، فتجسِّر هذا الاشتياق. قرأتْ عائشة أمنياتي، فوضعتها أمامي:

«تعال».

جلستُ قربها، فشدتني من يدي لألتصق بها. هنا عاودني الخوف. قربها وحده يشعرني بفداحة الوقت من دونها، بأيامي حين تخلو من عينيها التي تطفر بنعاسها اللذيذ.

وضعتُ فنجاني الثالث، وخرجنا. كانتْ تُمسك بيدي وهي تسير بي باتجاه عتبات كاتدرائية القديس جوزيف، مكاننا الذي شهد الاقتراب الأول. تعرف عائشة تمامًا ما أحبّ، تعرف متى أتحدث بصدق، ومتى أمطرها بالأكاذيب. لذا فقد قابلتْ حكاياتي عن أقاربي في مصوّع بابتسامة، دون أن تنشغل بالثغرات التي تملأها. بدا تواطؤًا جميلًا؛ أنا أكذب وهي تستمتع بتمرير تلك الكذبات دون تمحيص.

جاء دورها لتحكي عن أسبوعها؛ أرادتْ أن يبدو ممتلئًا لكنها فشلتْ. كانت الكلمات تتزاحم عند فمها دون أن تخرج، إلى أن اختارتْ أن تكون نفسها:

«كانت أيامًا فارغة».

لا أعرف إذا كان يجب أن أشعر بالإطراء، أو أحزن لمصابها في غيابي. لكننا كنا نمضي على الطريق ذاته؛ نمتلئ بالقرب، ونفقد معنى الأشياء في غيابه.

ازدحم الشارع بالمارة. عبرتْ فاتنة فوجدتُ نفسي أتبعها بعينيّ، قبل أن أنتبه لعائشة ترمقني بنظرة مغتاظة. طوّقتها بذراعي وألصقتُ وجهي بشعرها. أحبّ رائحة شعرها، مذاقه وأنا أغوص فيه بلا انتهاء، ولم أتركها حتى تخلّص وجهها من غيظه.

طوال الطريق إلى بيتها كنتُ مشغولًا كيف أقنعها بغيابي في الغد. بدا الأمر عسيرًا وأنا أقرأ في عينيها خوفًا جليًا.

للمرة الأولى لا أكون أنا المسكون وحدي بالخوف، للمرة الأولى تشاركني أنثى خوف الفَقْد.

هذا الخوف الذي لازمني طوال نشأتي في الجبهة؛ إذا أعجبتني فتاة أسأل نفسي ألف مرة ما إذا كانت ستقبل بي، أو تقابلني بازدراء. ولهذا لم يحدث البتةَ أن كنتُ من يبادر بإبداء الإعجاب، حتى لو أضعتُ الفرصة تلو الأخرى. وإذا حدث وبادرتْ الفتاة، لا تغادر الأسئلة رأسي؛ هل ستتركني؟ وإذا كانت ستفعل، متى ذلك؟

يظلّ الخوف يسكنني من أن تتركني هي أولًا، ولهذا كنت عادة ما أهرب من خوفي إليه، بأن أغادر العلاقة بمجرد أن أشعر بالفتور يطلّ عليها من بعيد. أن أترك أولًا، هذا يمنحني شيئًا من العزاء أنّني كنتُ في المكان الخاطئ، وأني صاحب القرار في مغادرته. أما حدوث العكس فيعني بلا شك، أني أقلّ من أن أكون مرغوبًا.

لأجل ذلك عائشة مختلفة، وهي تسبقني بخطوات كثيرة في الخوف من الفَقْد. لهذا أجدني غارقًا تمامًا في شعوري تجاهها.

وقفنا أمام الباب. هممتُ باختلاق كذبة جديدة، لكنَّها بادرتني بحماس:

«غدًا أحمل لك مفاجأة صغيرة».

ابتلعتُ كذبتي وأوماتُ موافقًا. قبّلتُ جبينها، لكنها شدّتني لأستقر عند شفتيها الجائعتين، ولم تتركني إلا وقد غرستْ سنّها في طرف شفتي حتى أدمتها.

«هذا لتتذكَّر كم هو مؤلم غيابك».

في فراشي كنتُ أمرّر لساني على الجرح بتلذذ. أضغط عليه فيشعرني الألم بالنشوة. حين أغمضتُ عيني كنتُ قد حسمتُ أمري تمامًا».

(17)

مع قرب انقضاء شهره الثالث في تل أبيب، وصلته رسالة تطلب منه الاستعداد للانتقال إلى مقر إقامته الدائمة في القدس.

كان قد بدأ الاعتياد على تل أبيب، وعلى لياليه المجنونة برفقة يعقوب، وعلى نافيه شأنان، القطعة الإفريقية في قلب إسرائيل. أرّقه قليلًا قرار الارتحال. وَدَّ لو يستمرّ في تل أبيب، في دائرة الأمان الجديدة، في المكان الذي استطاع أن يقذف به في العمق، عوض السطح الذي لازمه في حياته كلها. هنا فقط لم يُلقِ بالًا للقادمين معه من غوندار. لم يأمن أذاهم تمامًا، لكنه في الوقت عينه لم يعد يخافهم، وقد سبقهم إلى تراب المكان واختلط به.

هذا الشعور قَذَفَ في نفسه الاطمئنان حتى تجرأ مرة وقصّ على يعقوب حكايته المحرّمة. أخبره كيف خرج من إرتريا باسم، ودخل إثيوبيا بآخر قبل أن يبدأ مع الاسم الثالث رحلة المجيء إلى إسرائيل انطلاقًا من مخيم غوندار. تردّد في إخباره أنّه قبل كلّ ذلك كان يحمل اسمًا رابعًا لا تربطه علاقة بكل تلك الأسماء. كل هذا ويعقوب لا يكاد يصدّق ما يسمع؛ تجحظ عيناه حينًا، ويصدر صرخة وهو يُمسك برأسه حينًا آخر، بينما تذهب به بعض التفاصيل إلى حد الضحك.

خطر له أن يحكي لصاحبه قصة عائشة، غير أنه أحجم. هنا أدرك أنها تختبئ في أعمق نقطة لديه، فلو تم تقشيره طبقة طبقة لا يتمّ الوصول إليها إلا مع فنائه. ومع هذا لم يكن على يقين ما إذا كان يُخفيها عن الآخرين، أو عن نفسه.

«دُلّني كيف أنضمّ إليكم. هل أقول إننا إخوة؟ أم أغادر إلى غوندار وأطلب عون سابا؟ ماذا تقترح؟»

شعر داويتْ بالورطة وهو يرى حكايته ترتدّ عليه بأعباء لا يقوى عليها. حاول التملّص غير أنّ رفيقه أحكم حصاره، فلم يجد مهربًا من مَدّه بالأمل الذي يريد:

«ربما لو انتقلتَ إلى غوندار ستجد الفرصة مؤاتية... فقط أخبر سابا أنك من طرفي».

تهلّل وجه يعقوب وسرح في ما بدا أنه خلاصه المنتظر، بينما اختلط الأمر على داويتْ، أيفرح على نجاته من الورطة أم يبتئس لمَدِّ صاحبه ببهجة زائفة. لكنّ ما خفّف عليه الأمر في النهاية أنه أصبح يعرف يعقوب بعض الشيء؛ هو لن يقوم بشيء بقَدْر البحث عن هذه اللذة الآنية، فليحصل عليها إذن وتنتهي المشكلة. يذكر داويتْ جيدًا كيف كان صاحبه يتجنّب ما يرغب فيه بمجرد أن يقترب وتبدو مصاعبه، يذكر كيف تحاشى الانخراط في مهنة تتطلّب الابتعاد عن فتاته في نافيه شأنان لأوقات طويلة، يذكر أنه كان ينغمس في لحظته بالكامل هربًا من شيء غامض.

لا يعرف الآن كيف ينقل له خبر رحيله إلى القدس، لا يدري إلى أي مدى سيحزنه ذلك.

حين التقيا كان يعقوب عائدًا لتوّه من عند صديقته، منتشيًا مزهوًّا بفحولة لا يكف عن المباهاة بها:

«جئتها وهي تضحك وخرجت من عندها وهي تئنّ. لم تستطع حتى القيام إلى الباب لتوديعي. ألقيتُ عليها نظرة سريعة، رميتُ بقبلة في الهواء ومضيت».

وكالعادة ليس بمقدور داويتْ إلا المبالغة في الاندهاش وإبداء الحسد على قدرات لا يطولها العاديون. لكنه هذه المرة أدى دوره منقوصًا من تلك الحفاوة، وانتقل عجلًا إلى شاغله:

«جاء أمر نقلي إلى القدس. سأكون هناك بحلول نهاية الأسبوع».

لم يكد ينتهي من كلامه حتى لمح في عيني صاحبه صدمة سرعان ما استحالتْ حزنًا باهتًا. غابت أحاديثه عن صديقته، وفحولته الطافرة، وحلّ محلها صمتٌ، وإطراق ممتد في الأرض.

لعدة أيام مضت، كانا يسيران لساعات في شوارع نافيه شأنان دون وجهة. حاول داويتْ مرارًا أن يكسر حلقة الشرود دون جدوى. أراد أن يُخفّف عن رفيقه، حدّثه عن الزيارات التي لن تنقطع بينهما، عن المسافة القريبة بين القدس وتل أبيب، عن التصاقه بنافيه شأنان بحيث لا يَقْدِر أي مكان آخر على فصله عنه. لكنّ كل تلك المهدئات تبخّرتْ أمام ملامح يعقوب الجامدة، قبل أن ينطق أخيرًا:

«ستذهب أنت إلى القدس، وتجد وظيفة دائمة، بينما قدَري أن أبقى هنا لتسلية أمثالك إلى أن تبدأ حياتهم».

جاهد داويتْ ليخفي أثر صدمته. أبدلها بابتسامة مرتبكة، وهو يجمع الكلمات التي لا يعنيها حقيقة:

«من يدري يا صديقي ربما لا يطيب لي المقام هناك، فأعود إليك سريعًا».

في هذه اللحظة أدرك داويتْ، وهو يرمي بكلماته المعزّية، أنّ تل أبيب لم تكن إلا سطحًا آخر يقف حائلًا بينه وبين أن يغوص للداخل، أن يُصبح منتميًا إلى المكان بكلّيته. هل هو يقسو على المكان؟ وما الأماكن إلا ناسها؟

في الحافلة التي انضمّ لها برفقة اثنين وعشرين آخرين، جلس بجوار النافذة كأنّه يُعيد سيرته الأولى مع الترحال. كان الوقت صباحًا. أخذ يُقلّب نظره للمرة الأخيرة في شوارع نافيه شأنان شبه الخالية؛ هنا التقى يعقوب للمرة الأولى، وعلى تلك المصطبة توطّدتْ علاقته بالحي وناسه، وفي ذلك الزقاق واجه خوفه ودخّن الحشيش. لم يكن حنينًا. بدا كأنّه ينزع مشاعره، ويعيد كل قطعة إلى مكانها الذي استلّها منه. أراد أن يخرج من الحيّ كما دخله أول مرة؛ محايدًا متوجّسًا لا يمنح سرّه المحرّم لأحد.

غادرتْ الحافلة تل أبيب صعودًا باتجاه الشرق. بدا الطريق السريع رقم واحد كشقّ كبير بين جبال شاهقة تعلوها خضرة كثيفة. أشارتْ المرشدة إلى منخفض قريب:

«هذا وادي أيالون... وستأتي بوابته شاعار خجاي... وبعد قليل سنمرّ بمدينة الأخشاب كريات جعاريم التي وردتْ في التوراة ثماني عشرة مرة».

عادتْ المرشدة الشابة إلى مقعدها في المقدمة، وهي تطوي الورقة التي تقرأ منها، ودخلتْ مع السائق في حوار هامس.

عاد داويتْ إلى الانشغال بالطريق من حوله، وهو يشعر بازدياد

الضغط على أذنيه كلما تقدمتْ الحافلة أكثر باتجاه القدس. أشارتْ المرشدة من مكانها إلى مجمّع سكني على يمينها للتذكير بكريات جعاريم؛ هضبة خضراء تضم عدة منازل بأسطح قرميد برتقالية مائلة وجدار يشكّل سورًا منيعًا تحيط به الأسلاك الشائكة.

سأل راكب عن أنفاق تخترق الجبال المحيطة بالطريق، فارتبكتْ المرشدة قبل أن يميل عليها السائق قليلًا، فنهضتْ من مكانها لتواجه الركّاب وعلى وجهها ابتسامة واثقة:

«هذه هي الطرق المخصصة لقطار تل أبيب- أورشاليم، الذي سيختصر الوقت بينهما إلى نصف ساعة فقط».

لم تكد تجلس حتى انحرف السائق إلى طريق جانبية، وهو يُخبرها أننا على وشك الوصول. بدا صوته مسموعًا في عموم الحافلة لقربه من المايكرفون الذي تحمله الفتاة. عادتْ إلى ارتباكها وهي تسأله:

«إلى أورشاليم؟»

لم يستطع السائق أن يكبح ضحكته وهو يصحّح لها:

«بل إلى منتزه كندا يا آنسة. سنصل بمجرد أن نتجاوز تحويلة محلاف اللطرون هذه، لنجد بلدة موديعين وخلفها تمامًا المنتزه».

عادتْ المرشدة إلى أوراقها تجول بنظرها، حتى استقرّتْ عند جانب منها، وهي تحاول رسم النظرة الواثقة مجددًا:

«بعد قليل سنتجوّل في المنتزه الوطني لدولة إسرائيل ومفخرتها الذي أُنشئ عام ستة وسبعين بأموال المغتربين من أبناء شعبنا في كندا».

حين عاد الركّاب من جولتهم في المنتزه، وجدوا داويتْ في

مكانه قرب النافذة كأنّه لم يبرحه أبدًا. قابلهم بابتسامة فاترة، قبل أن يومئ بالإيجاب على سؤال المرشدة إن كانت الجولة قد أعجبته.

كان الوقت قد مرّ ثقيلًا على داويتْ في كندا بارك، وقد اختار أن يجلس على مصطبة خشبية ليست بعيدة عن الحافلة، بينما توزّع الركّاب مبتهجين على زوايا المنتزه. طوال جلوسه ظلّ ساهمًا في المساحات الخضراء أمامه وذهنه يحاول استباق ما سيمرّ به. أتعبه هذا الترقّب لما سيأتي. من أسمرا إلى إنداغابونا إلى تل أبيب، والآن إلى القدس، وكل مكان يلفظه إلى السطح كرغوة، دون أن يمنحه التفاتة تُبقيه في العمق.

كان مستغرقًا في تأملاته المرهقة، يمرّر يده الخشنة على المصطبة الخشبية بوتيرة رتيبة، كأنّه يحاكي الأفكار التي تجول في ذهنه جيئة وذهابًا. لوهلة شَعَرَ بخطوط غائرة في قلب الخشب البنيّ. منحها نظرة فبدتْ نقوشًا عربية. عدّل جلسته وأمعن فيها ليجد عبارة لم يفهمها تمامًا، «ليست كندا بارك... هي عمواس وبيت نوبا ويالو».

خفّف السائق من سرعته قليلًا عند تقاطع شاعار خجاي، قبل أن يواصل بمحاذاة غابة نيفي إيلان، ويتجاوز تقاطع شورِش ثم جبل هرتزل الذي ما إن حاذته الحافلة حتى عادتْ المرشدة إلى الوقوف بعد أن كانت تكتفي بذكر المعالم عبر المايكروفون دون أن تلتفت إلى الركّاب:

«هنا المقبرة الوطنية لدولة إسرائيل والمسماة تيمنًا باسم المؤسِّس الذي أوصى أنْ يدفن قادة الدولة فيها، أعتقد أنكم ستحظون بزيارتها قريبًا. الآن يمكن القول إنكم دخلتم أخيرًا إلى أورشاليم».

هنا انتبه داويتْ، وفتح النافذة ليستقبل هواء المدينة. مداخل

المدن لا تكذب عادة، إما أن تحتضنك من اللقاء الأول، أو تلفظك إلى الأبد. كان يجب أن ينتبه لذلك منذ البداية، من لحظة خروجه من أسمرا. لكنّ انتباهه المتأخِّر هذا لم يُسعفه ليحدّد موقفه تمامًا من القدس، فقد بدت شوارعها وقت الظهيرة ضاجّة بالحياة، بشكل مربك، وأسراب السيارات والحافلات الخضراء بالكامل تمضي في الاتجاهين دون توقف، يفصل بينهما قطار رماديّ، ما إن يصل ذروته حتى يعود في الناحية الأخرى. بينما تصطف المباني العالية ذات الواجهات الرخامية اللامعة على الجانبين، كأنّها ستنقضّ على الطريق بشراسة في أيِّ لحظة.

في انتظار الإشارة الخضراء، انتبه داويتْ إلى سيدة في سيارة مكشوفة تتمايل على أنغام بدتْ عربية، فتتطاير خصلات شعرها لتغطي وجهها، وما إن انتهتْ الأغنية حتى بدأتْ أخرى عبرية دون أن يتغيّر مزاج الفتاة المنتشي. حين أضاءتْ الإشارة، لمح داويتْ علم إسرائيل على الظهر العلوي لمقعد الفتاة متداخلًا مع العلم اليمني.

«الآن نتجاوز شارع يافا وبهذا نخرج من الجزء الغربي للمدينة لندخل إلى شرقها حيث تقع مستوطنة بيسغات زئيف حيث ستقيمون».

اكتستْ نبرة المرشدة بعض الجدية كأنّها ترسل تحذيرًا أكثر منه إخبارًا. لاحظ داويتْ أنّ المدينة غيّرتْ كثيرًا من ملامحها ما إن أصبحتْ الحافلة في الأحياء الشرقية؛ فقد اختفى القطار الرمادي، واستحالت الحافلات الخضراء الداكنة إلى بيضاء بخطوط جانبية خضراء، وبدت المباني كنتوءات عشوائية بارزة وهي تئنّ بحمل خزانات مياه ضخمة سوداء على أسطحها. بينما تمتلئ الأرصفة

بالطلاب العائدين من مدارسهم سيرًا على الأقدام. زادتْ الصورة من حيرة داويتْ. كيف لمدينة أن تبدّل وجهها تمامًا ما إن نعبر شطرًا إلى الآخر؟ ترى أي واحد منهما يُلائمها أكثر؟ أي شطرٍ يُشبه ناسها؟

صعد جندي إلى الحافلة يتفقّد أوراق الركّاب، فعاد داويتْ من استغراقه. لم ينتبه إلا والحافلة على بوابة المستوطنة، وقد اجتازتْ طريقًا ملتويًا أوصلها إلى أعلى التلة التي تستقرّ عليها بيسغات زئيف، وتطلّ من عليائها على حيّ بيت حنينا وقرية حزما من جهة ومخيم شعفاط للاجئين من الجهة الأخرى.

أُخذ الركّاب بالبنايات الفارهة التي تتوزّع على جانبي الطرق الاسفلتية الواسعة النظيفة، وبشجيرات الورد المشذبة التي تفصل بينها. تهامسوا أنّهم وصلوا أخيرًا إلى فردَوْسهم الموعود. كان السائق يقود ببطء كأنّه يمنح مرافقيه فرصة التمتّع بجمال المكان إلى أن اضطر إلى زيادة سرعته بارتباك وهو يحاول تفادي كرات البيض التي بدأتْ تُقذف على زجاج الحافلة متبوعة بشتائم نساء ناقمات. تمكّن داويتْ من إغلاق نافذته قبل أن يلاقي مصير الجالس أمامه وقد أصابته بيضة وأغرقت ملابسه.

هدأ الأمر قليلًا حين تجاوزت الحافلة ذلك المربع، إلى آخر بدا أقل ثراء ومتسخًا بعض الشيء. سُحنات السكّان تغيّرت أيضًا، فغابت الملامح الشقراء لصالح أخرى قمحية. التقتْ عينا داويتْ بعيني رجل تتدّلى جديلتاه على خديه الداكنين. ابتسم داويتْ وهو يشعر بأُلفة غير مفهومة، غير أنّ الرجل ظلّ متجهمًا قبل أن يُشير بإصبع يده الوسطى، وهو يتفوّه بكلمات غير مسموعة.

انعطفتْ الحافلة إلى مربع جديد مزدحم ببنايات واطئة،

وطرقات تملؤها القاذورات. هنا نهض الركّاب من مقاعدهم وهم يرون إخوتهم يذرعون الشوارع في كل اتجاه. لم يكن الأمر يتطلّب كثير جهْد ليتبيّن داويتْ أنهم دخلوا منطقة بيتا إسرائيل. أثار مَقدَم الحافلة انتباه المارة، فتوقّف بعضهم بفضول، فيما ألقى آخرون نظرة لا مبالية ثم أكملوا سيرهم. حين وصلوا إلى المربع اثنين وعشرين، أجرتْ المرشدة اتصالًا لتسأل عن رقم البناية المخصصة للركّاب، قبل أن تميل على السائق وتطلب منه أن يتجه إلى البناية السابعة، بينما قفز السؤال مجددًا في ذهن داويتْ، ما إذا كان قد وصل أخيرًا، أم أنّ رحلة البحث عن مكان رحيم لا تزال أمنية بعيدة.

(18)

«تعمّدتُ النهوض قبل انطلاق الجرس. ارتديتُ ملابسي وغادرتُ مدرسة الثورة مع آخر خيوط الليل.

في هذا الوقت من اليوم تكون أسمرا في أصدق حالاتها؛ عارية وخالية وبوجه واحد ووحيد. في هذا الوقت تعجز المدن عن الكذب، لا تملك ترف الاختيار بين وجوه كثيرة كما تفعل بقية اليوم.

مرّ جواري بائع الحليب على دراجة، وهو ينادي على بضاعته بالضغط على الجرس. هذا أيضًا لا يظهر إلا في هذا الوقت. تُرى ماذا يفعل في بقية يومه؟ هل ينخرط في حالات المدينة، أم ينزوي في انتظار وقته؟ أحسستُ بالغيرة منه، على الأقل هو يملك وقتًا معلومًا يكون فيه السيد والمرغوب.

تجاوزتُ مقهى بار رويال والعمّال فيه يستعدون ليومهم، وانحرفتُ يمينًا. لم يكن الشارع الذي يحوي فندق سنترال قد استيقظ بعد، عدا مغسلة الملابس التي لا تُغلق أبوابها حتى في الأعياد، ويحسدها سكّان أسمرا على المياه التي لا تنقطع عنها. كنتُ أسير دون وجهة. أمضي الوقت، وأعيد رؤية الأشياء التي أعرفها لأكتشف

وجهها الحقيقي. تجنّبتُ السير في كمشتاتو حتى لا تصادفني دورية للأمن، فأعجز عن تبرير مغادرتي لمدرسة الثورة في هذا الوقت.

حين طلعت الشمس، وكثرتْ الخطى في الشوارع، عدتُ إلى عتبات القديس جوزيف أتشاغل بالغادين إلى وجهاتهم، وهم يمنحون المدينة وجوهها الكثيرة.

«مدّ يدك».

لم أشعر بعائشة إلا وقد استقرّت إلى جواري، وابتسامتها تملأ المكان.

منحتها يدي اليمنى، فأخرجتْ من شنطتها الصغيرة، سوارًا صوفيًا أنيقًا يتعاقد فيه اللونان الأبيض والأسود، وألبستنيه.

«هيا بنا».

لم يكن السوار الأنيق الذي قضت ليلتها تحيكه سوى افتتاح ليومي معها، بينما خبأتْ مفاجأتها الصغيرة الموعودة لمشوارنا المجهول. سارتْ ممسكة بيدي اليمنى، وأنا أتبعها من شارع ألى آخر بانقياد كامل. يتناوب تركيزي بين ملمس يدها الناعمة والسوار الذي يحتكّ بيدي مع كل خطوة.

توقفنا أمام الصالة الرياضية في شرق المدينة.

«سأهزمك في البولينغ قبل أن أكشف لك عن الوعد».

تحرّجتُ كيف أخبرها أني لا أحسن اللعب، لكنها لم تترك لي خيارًا. بدتْ الصالة خالية إلّا منّا نحن الاثنان والعاملون فيها. حين اخترنا المسار الذي سنلعب فيه، قَدِمَ صبي لا يتجاوز السابعة، وحشر نفسه في المساحة الخالية بين الأقماع البيضاء والجدار. لم

أفهم تصرفه إلا حين رمتْ عائشة كرتها الأولى وأسقطت نصف الأقماع. قام الصبي باحتضان الكرة الحديدية وأعادها لنا قبل أن يشرع في ترتيب الأقماع لرميتي التالية.

أمسكتُ بالكرة وقد فاجأني ثقلها. فكرتُ في الصبي الذي يتلخّص عمله في احتضان كل هذا الوزن، بينما تطلب مني عائشة أن أقذف الكرة بكل قوة. تقدمتُ بخطوات مرتبكة، وأفلتُّ الكرة تتهادى بميلان حتى انحرفتْ كلية قبل وصولها إلى الأقماع واستقرت في المسار الجانبي. أطلقتْ عائشة ضحكة سخرية بينما شعرتُ بالارتياح وقد جنّبتُ الطفل مشقة تلقي الكرة الحديدية. لكنّ المشكلة لم تنته وأنا أرى حماسة عائشة لقذف الكرة. خطر لي أن ألفتَ انتباهها لكنّي خشيتُ أن أفسد متعتها. سقطتْ الأقماع كلها هذه المرة، فاختلط شعوري بين الابتهاج للنشوة التي بدت على فتاتي وهي تتقافز بحبور، وبين الطفل الذي أعاد الكرة وهو يتفقّد إصبعًا متضررًا.

انتهتْ الجولات دون أن أصيب قمعًا واحدًا. شعرتْ عائشة بالملل وقد أدركتْ بلادتي في هذه اللعبة.

«هيا لأريك المفاجأة».

خرجنا من قاعة البولينغ عبر باب جانبي لمسار قادنا إلى المسبح. التفتُّ إلى عائشة باستغراب فقابلتني بابتسامة غامضة.

«هنا ستعوّضني عن حرماني من السباحة معك في بحر مصوّع. فقط انتظرني قليلا».

غابت في ممر مجاور قبل أن تعود وقد خلعتْ فستانها الأزرق القصير، وارتدتْ ملابس سباحة سوداء. أزلتُ ملابسي مترددًا، وأنا أطارد بنظري تكوّر نهدَيْها، وانحناءات خصرها.

لم تنتظرني. قفزتْ في الماء فأثارتْ زوبعة سرعان ما انتهتْ إلى فتنة جديدة، وأنا أرى شعرها على قِصره يتشبث مبلولًا برقبتها، يبسط يده لي ويناديني.

«هيا اقفز».

لم تكد تنهي طلبها حتى كنا ثلاثتنا على الماء، عائشة وشعرها وأنا. لم أحسّ يومًا بالاغتناء كهذه اللحظة. شقّتْ عائشة طريقًا وهي تسبح، بينما بقيتُ واقفًا في مكاني أتبعها ببصري. التفتتْ ونادتني فسلكتُ الطريق ذاته، وأنا أستلذّ بالماء يغمرني بعد أن غمرها. حين اقتربتُ منها ابتعدتْ، فعدتُ للسباحة في الاتجاه الآخر. حين انتبهتْ عادتْ تلحق بي حتى أدركتني عند نهاية المسبح، وقد أسندتُ صدري ويديّ على حافته وأنا ألهث. طوقتني عائشة من الخلف وأسندتْ صدرها على ظهري، فسرَتْ قشعريرة لذيذة في جسدي وأنا أشعر بانضغاط نهديها كلما التصقتْ بي أكثر. قبّلتْ رقبتي فلم أعد أقوى على الصمود. استدرتُ هربًا، فقابلتُ عينيها الغائمتين. بدا حصارًا محكمًا. اقتربتْ أكثر، وأنا ألمح ارتجاف شفتيها وقد انفرجتْ قليلًا. حين أغمضتْ عينيها تمامًا كان الإذن لي أنْ أخوض نزالًا غير متكافئ. طوّقتُ بشفتيّ شفتها السفلى المستسلمة، فأربكني لسانها يضرب ويهرب، ويدها تتحسّس صدري لتنشب أظافرها فيه، وشعرها يلامس جبهتي، ويتدلى ليحجب الرؤية عن عيني، وفخذها يحتك بفخذي ليشعل النيران ببدائية لا تزال صامدة. كنتُ فردًا أعزلَ في مواجهة قبيلة من الشبق. ولم أجد مهربًا من الهزيمة آخر الأمر.

حين عدنا إلى كاتدرائية القديس جوزيف كان النهار على وشك الأفول، وكذلك لقاؤنا.

مضى الوقتُ ونحن نتنقّل من شارع إلى آخر. كانت عائشة تُفضّل الشوارع الجانبية الأقل ضجيجًا حتى تختلي بي، وكنتُ أختار أكثرها ازدحامًا ولا أرى غيرها. مضى الوقتُ بين عائشة وعائشة؛ أتأمّل وجهها تارة، وأستعيد تفاصيلنا الصباحية في الماء تارة أخرى. وحين همّتْ بالمغادرة سألتني عن الغد، فهبطتُّ إلى الأرض.

لم أجد جوابًا. لا أعرف حتى اللحظة العقاب الذي ينتظرني في مدرسة الثورة. لكنّ ما أعرفه تمامًا أني لن أضيّع لقاء عائشة مهما كانت العواقب.

«سآتي».

أجبتها بثقة، فحطّتْ على فمي سريعًا وطارتْ.

ما أشهى أن يمتلئ الواحد بالقبلات. يمضي بها إلى بيته، يُخبئها من أعين المارة، يغرسها قرب شُبّاكه فتثمر أحلامًا ليلية بامتداد العمر كله.

تبدّدتْ هذه الخيالات ما إن بلغتُ البوابة الخارجية لمدرسة الثورة. التفتَ لي الحارس بنقمة وهو يأمرني بالتوجه فورًا إلى الضابط المناوب. علمتُ أن خبر تغيّبي قد عمّ المكان حتى كاد يتجاوزه إلى الخارج.

لم يستغرق الأمر أكثر من دقيقة، حتى تمّ إرسالي إلى السجن الانفرادي.

سألني الضابط عن سبب غيابي، وما إن بدأتُ أبحث عن إجابة، حتى صرخ بالجندي ليأخذني. كنتُ أعرف هذا المصير مسبقًا، لذا كان وقعه عليّ أخفّ ضررًا. هذا التلقّي الفاتر للعقوبة رفعها من أسبوع إلى عشرة أيام. هنا شعرتُ بالورطة. أردتُ مراجعته، التوسّل

إليه، لكنه نهرني وقد طفر الزهو من عينيه أخيرًا. لا شيء يغيظ الجلاد أكثر من عجزه على إذلال ضحيته.

في الغرفة المعتمة لم أكن مشغولًا بشيء قدر انشغالي بعائشة، بما ستظنّه فيّ، بالهواجس التي ستسكن رأسها طوال الأيام العشرة. لم أنتبه إلا متأخرًا إلى السقف الواطئ بحيث لا أستطيع الوقوف بكامل قامتي، ولا التمدّد على الأرضية إلا متقرفصًا، بينما تُشعرني النافذة الوحيدة الملحقة بالباب بالاختناق لفرط ضيقها».

«إذن لم تكن تملك إلا وقت قضاء حاجتك لتغادر هذا الحبس؟ مرة؟ أو مرتين؟»

ضحك ديفيد وهو يستمع إلى أسئلة الأوروبي، قبل أن يُجيب لينهي حيرة الجالسين:

«لم يكن الحمّام إلا حفرة صغيرة مفتوحة على الدوام في طرف الغرفة».

وضع الأوروبي يده على أنفه بتقزز، وهو يرجوه ألّا يسترسل في هذه الجزئية، بينما خفض موثّق الجلسة رأسه ليخفي ضحكة باغتته. أراد ديفيد أن يُخبره أن إنداغابونا جنة قياسًا بالحبس الانفرادي لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة كي لا يُسجّل نقطة ضد نفسه.

«لم أنم ليلتي الأولى، كنتُ أنتظر الصباح كأنّي سألحق بموعدي مع عائشة. استغرقتُ في خيالاتي؛ أستحمّ على عجل، أرتدي أجمل ملابسي، أضع عطرًا سبق وفاز بإطراء فتاتي، وأخرج إليها أسابق خطواتي. هذه المرة سأباغتها أنا بمفاجأتي، سأردّ لها هدية الأمس بأجمل منها.

وصلتُ متأخرًا إلى الزاوية المواجهة لفندق كَرَن حيث اتفقنا أن

نلتقي. ارتحتُ حين لم أجد عائشة. استندتُ على الحائط المجاور لمحل التصوير أُمضي الوقت بمراقبة المارة. لم تمرّ دقائق حتى ظهرتْ عائشة بابتسامة تلائم نقاء الصباح. قبّلتني وهي تسألني متى جئت. كدتُ أقول الآن، لولا رغبة بي سبقتْ لأبدو أكثر اهتمامًا:

«لم أنتبه للوقت، ربما ساعة أو أكثر. لكن لا عليك».

أطلقتْ عائشة ضحكة، وهي تضع يدها على فمها. حاولتُ أن أفهم، لكنها سعتْ لحرف الحديث إلى موضوع آخر، وقد اعتلتْ ملامحها مسحة ندم خفيف. ألحَحْتُ عليها، فعرفتُ أنها جاءتْ إلى المكان قبل ساعة، وانزوتْ ترقب قدومي لتباغتني، وحين تأخرتُ فترتْ رغبتها. غمرني الخجل وقد ظهرتُ كاذبًا بكامل عُريِّي. انتشلتني عائشة من حرَجي وهي تأخذني من يدي إلى محل التصوير.

«لا تتحركا... واحد، اثنان، ثلاثة».

ما إن التقط المصوّر الصورة الأولى، حتى بادرتْ عائشة إلى اختيار الوضعية الجديدة. كانت قد أخبرتْ صاحب المحل أنْ ينشغل بكاميرته ويترك لها الباقي. جلستْ على الكرسي وطلبتْ مني أن أقف خلفها تمامًا واضعًا يديّ على كتفيها. بدا الأمر مألوفًا لي وللمصوّر، لكنّ الصورة الثانية أربكتني قليلًا، فيما ارتسمتْ ابتسامة لئيمة على محيّا الرجل.

«اجلس على الكرسي الآن».

بمجرد أن استجبتُ لطلبها، استقرّت عائشة على حِجري وهي تسحب ذراعيّ لتطوّق عنقها. في اللقطة الثالثة لم تغيّر مكاننا وإنما طلبتْ مني أن أثبّت شفتيَّ على عنقها في قُبلة ممتدة. في الرابعة،

تبادلنا قُبلة طويلة، في الخامسة ظلّتْ القُبلة على حالها فيما حجبتْ ملامحنا بخصلات شعرها.

أثناء ما كان المصوّر يجهّز صورنا، كنتُ قد قررتُ العدول عن إخبار عائشة بالمفاجأة التي جهّزتها لها وقد فقدتْ معناها أمام ما فعلته الآن.

عمّ الضجيج وبدأ يتسلل إلى الزنزانة خيط من ضوء الصباح. حينها خرجتُ من أوهامي وأدركتُ أنّ عائشة الآن تنتظر وحدها في الزاوية المواجهة لفندق كرن. وأن هذا الانتظار سيطول كثيرًا».

(19)

انحرفتْ البيجو الزرقاء إلى مسار ضيّق على مدخله لوحة خضراء تشير إلى شارع نابلس.

تمهّل السائق في قيادته، وهو يتفادى السيارات المتوقفة على جانبي الطريق ما جعل المساحة المتبقية بالكاد تفي بمرور سيارة واحدة. ضاق الطريق أكثر فعاد السائق للانحراف يسارًا عابرًا بوابة تفتح على مرآب ترابيّ ضخم من طابقين تقف فيه السيارات في مسار حلزوني. بحث عن موقف في الساحة العلوية، وحين لم يجد نزل إلى ساحة أكبر حيث أوقف السيارة.

«هذه آخر نقطة نستطيع الوصول إليها بالسيارة».

ترجّلتْ المرشدة ما إن سمعت تعليق السائق. تبعها رجلان أحدهما يعبث بساعة يده بتباهٍ ظاهر، فيما الآخر يرد عليه بتعديل ياقة قميصه الأزرق المقلّم، بينما كان داويتْ آخر النازلين.

كانت هذه هي المجموعة التي انضمّ لها داويتْ هذا الصباح، وفق توزيع توخّى زيارة البلدة القديمة للوافدين الجدد ضمن مجموعات صغيرة كاحتياط أمني. لم يكن الشخصان الآخران إلا مرافقَيه في غرفة تُشكّل مع غرفتين أخريين الشقة 18 في الطابق الخامس من البناية السابعة في المربع اثنين وعشرين من مستوطنة بيسغات زئيف.

في يوم الوصول، كان داويتْ قد وجد اسمه في مدخل البناية يُشير إلى الشقة التي سيسكنها. لقيَ المصعد معطّلًا فحمل أغراضه وتكبّد عناء صعود السلالم لخمسة طوابق كاملة. وقف يلهث أمام الباب نصف المفتوح، تتكوّم أمامه أحذية رجالية ونسائية بمقاسات مختلفة، وجدران ملطّخة برسومات وكتابات أمهرية. تقدّم ببطء وهو يحاول تلمّس طريقه إلى الداخل. وقفتْ أمامه فتاة تحمل سلة تضيق بملابس داخلية يقطر منها الماء، تجمع شعث شعرها بمنديل، وتطوي نصف تنورتها السفلى لتصل إلى فوق الركبة. رمقته من أعلى لأسفل قبل أن تواصل طريقها إلى الخارج، وتصعد الدرج. عبَر الممر الضيّق، وجد غرفة. أراد فتحها، لكنه تراجع، ومرّ إلى الغرفة التالية حيث وجد ثلاثة أسرّة خالية لكنّ آثار قاطنيها واضحة. الغرفة الأخيرة كانت بجوار المطبخ وحالها كسابقتها. احتار وهو يبحث عن مكانه حتى خرج شاب من الغرفة المغلقة، وقبل أن يبادر بالسؤال وجده يُشير له إلى الغرفة الوسطى.

وضع حقيبته جانبًا وطاف ببصره على الأسرّة الثلاثة. اثنان كأنّهما غودرا الآن بينما استقرّتْ حقائب وملابس مبعثرة على السرير الثالث. وضع أغراضه على الأرض، في انتظار أن يأتي مَن يرشده إلى سريره، وحين طال به الانتظار خرج يُمضي الوقت دون وجهة مقصودة.

على مدخل الشقة التقى مجددًا بالفتاة وهي نازلة على السلالم. هذه المرة لم تلتفت له حتى. خطر له أن يصعد هو الآخر إلى السطح، أن يرى المكان من أعلى نقطة يستطيعها. تجاوز طابقين ليجد أمامه غابة من حبال الغسيل والأسلاك الكهربائية التي تنتهي

بصحون لاقطة، ومعدات صدئة وطاولات مكسورة. بدا السطح كمخزن لأشياء لا تنتهي. بكثير من الحذر والمشقة وصل إلى حافة المكان، فبدأ يرى بعين جديدة؛ تمتدّ المستوطنة بشكل حلزوني على تلّة عالية، واجهة بنيانها حديث، والبقية أقدم قليلا. رأى القطارات الفضية تخترق شوارعها في اتجاهين فتقسمها إلى نصفين. نظر أبعد فوجد جدارًا إسمنتيًا مرتفعًا يفصل المستوطنة عن السفح، ويفصل بينها وبين السفح جدار إسمنتي آخر يرتفع لأمتار أيضا. هناك في الأسفل وراء الجدار ظهر عالم آخر يسبح في العوَز. من مكانه استطاع أن يلمح الازدحام والشوارع الترابية الضيّقة، والمباني المتراصة دون نسق ثابت.

نزل الطوابق السبعة إلى الشارع. سار على الرصيف نزولًا يقصد مركزًا تجاريًا لمحه من السطح. قطع مسافة كبيرة وهو يُنقّل بصره في كل الاتجاهات. مرّ بجواره شرطيان أسودان يرتديان بذلة زرقاء قاتمة، ويُمسك كل منهما رشاشًا يتوسّط صدره. رمقه أحدهما بنظرة فاحصة، فيما اختار داويتْ أن يواصل سيره وهو مطرق في الأرض.

«عتسور... هيه اتاه».

توقّف حين تأكد له أنّ الشرطي يأمره بالتحديد. أخرج بطاقته واستعادها بعد أن دقّق الرجلان فيها وتركاه دون أن ينطقا. أكمل سيره مرتبكًا حتى حاذى لوحة تقول «مركز بيسغات زئيف». طاف ببصره على واجهة المركز الرخامية، واللوحات الملوّنة التي تملأها. عدل عن فكرة الدخول، ما إن لمح نظرات المرتادين تطارده بريبة. بدا الأَسْود الوحيد في المكان. عاد أدراجه، وهو يتمنّى أن يصل إلى بيته دون أنْ يعترضه مكروه.

حين دخل غرفته، وجد شخصًا عاريًا إلا من سروال داخلي، يُقلّب في قنوات التلفزيون. عرّفه بنفسه، فأشار له من مكانه إلى السرير المزدحم بالحقائب، وعاد للتحديق في الشاشة.

***

خرجتْ المجموعة من المرآب لتجد أمامها مبنى رخاميًا ضخمًا ببوابة خضراء صغيرة تعلوها لوحة زرقاء: شارع نابلس 82، بينما يرتسم في واجهته مثلث أحمر مقلوب وفوقه عبارة «جمعية الشبّان المسيحيين – القدس Y.M.C.A». ساروا قبالته على الرصيف الضيّق المحاط بأعمدة حديدية واطئة. لاحظ داويت على طول الجدار المحاذي لوحات تُشير إلى مؤسسات مسيحية، تتدلّى منها الأشجار إلى الخارج فتظلّل مسار المجموعة باتجاه البلدة القديمة. استوقفته لوحة تقول «بستان قبر السيد المسيح». خطر له أن يسأل غير أنّه أحجم وقد رأى انهماك المجموعة في الحديث عن عربات الأطعمة المحلية على الرصيف الموازي. مرّ جوار لوحة رخامية أخرى مغروسة في الجدار، وقد غطّت معالمها آثار رصاص كثيف. جَهَدَ حتى تبيّن أنها تشير إلى طريق نابلس بالعربية والعبرية والإنجليزية. إلى جوارها خطّ أحدهم بالطلاء عبارة «القدس عربية».

تقاطع الطريق مع شارع السلطان سليمان القانوني، الذي ما إن تجاوزته المجموعة تتبع لوحة باب العامود حتى أشارتْ المرشدة إلى بداية الدخول في محيط البلدة القديمة. أحسّ داويتْ بمشاعر مضطربة، فأمام خفّة المكان على روحه، كان الانتشار الأمني يبعث رسائل مناقضة. توسّط المجموعة بعد أن كان متأخرًا عنها، أراد أن يختفي بينهم عن أعين رجال الأمن الذين بدوا كأنّهم يلاحقونه

وحده. لم يشعر بالارتياح إلا حين غاص وسط كثافة العابرين في الاتجاهين داخل باب العامود. هنا استطاع أن يُسلّم نفسه للمكان تمامًا. شعر أنّه يغوص في الزمن، يمضي معاكسًا للتاريخ؛ الرتابة التي تصبغ التفاصيل، والأرضية المتشققة، والوجوه القادمة من عمر سحيق، والروائح القديمة، وتلاميذ المدارس الذين يحملون وجوه الكبار، وأصوات الباعة التي تعلو دون أنْ تخلق ضجيجًا.

حيّتْ المرشدة زميلة لها تقود مجموعة في طريق الخروج. لمح داويتْ العجوز التي يتوسّط فكّها زوجًا وحيدًا من الأسنان. تفاداها وهو يتظاهر بالتحديق في محل لألواح الشطرنج. عبرتْ العجوز مع فريقها لكنّه استغرق في المحل، وقد لفته كيف تفنّن صاحبه في صنع الجنود، تارة كشمعدانات، وأخرى كصلبان، بينما تنزوي مجموعة صغيرة أخذت البيادق فيها شكل الأَهِلَّة. ابتسم وهو يرى كيف يشبه الأمر حياته، وهو يتنقّل من دين إلى آخر كي ينجو. رأى داويتْ وديفيد، ورأى داود منزويًا في البعيد. توغّلت المجموعة أكثر وهي تتجاوز باب خان الزيت، وعقبة التوت، وسوق العطارين، قبل أن تصل إلى سوق اللحامين.

انتهى الطريق إلى مدخل بيت المقدس ينتشر حوله الجنود بأسلحتهم المفزعة، وأجهزة اللاسلكي التي تطوّق أذرعتهم وتنتهي عند الأكتاف.

«للأسف لا نستطيع المضيّ أكثر».

رسم داويتْ على وجهه ملامح متحسّرة وهو يقابل تعليق المرشدة التي نظرتْ إليه وكأنها تواسيه. مرّتْ أمامهم فتيات بملابس قصيرة. سألهم الجندي إن كنّ مسلمات، فأومأن بالإيجاب. تركهنّ

يعبرن، قبل أن يتوقفنّ عند مجموعة فلسطينيات تلي الجنود حيث تناولتن أردية طويلة، لبسنها على عجل، فاحتجب كل شيء فيهن عدا الوجه، ومضين في اتجاه المسجد. حينها شعر داويتْ بالفضول لتجاوز الحاجز الأمني ورؤية المسجد عن قرب.

«تعالوا لأريكم كنيسة القيامة».

تأخر داويتْ في اللحاق بالمجموعة التي استجابت لنداء المرشدة، وقد انتبه إلى محل فلسطينيّ لبيع الملابس، تصدرته قمصان تمجّد الجيش الإسرائيلي، وأخرى تباهي باستقلال إسرائيل، وثالثة يحتلها شمعدان كبير، بينما في أقصى المحل بضعة قمصان بيضاء منزوية تحمل اسم فلسطين تتوسّطها علامة النصر.

لحق بالمجموعة وهي تسلك طريق خان الزيت، وتتجاوز عقبة التكية، لتصعد في الدرج المؤدي إلى دير الأقباط غربًا. كان داويتْ يوزّع بصره بين المرشدة التي كانت تشرح بحماسة، وبين أفواج السياح من جنسيات الأرض. انحرفوا جهة الجنوب قليلًا مرورًا بكنيسة الفرسان الأربعة وكنيسة الملاك التي أشارت لها المرشدة بشكل عابر:

«هذه الكنيسة يتنازعها الأقباط والطائفة الإثيوبية».

شعر داويتْ برغبة في أن يتوقّف عند الكنيسة الإثيوبية، غير أنه واصل مع المجموعة. في وسط الساحة التي تفتح على الكنيسة، خيّرت المرشدة الفريق بين أن يمضوا برفقتها، أو يسيروا منفردين، على أن يعودوا سريعًا. برّرت ذلك بالروحانية التي قد تستوجب العزلة أحيانًا. وافقها داويتْ فورًا، بينما سار الآخران معها وهما

يرمقانه بنظرات استغراب. كان يشعر برغبة عارمة أن يحجب الوسطاء بينه وبين المكان. لا يكاد يسعفه النظر ليحيط بما حوله، يودّ لو يُشرك حواسّه كلها في التعرّف على تفاصيله؛ رائحة بخور كثيفة تختلط بروائح فتلات الشمع التي يتمّ إشعالها وفاء بالنذور. جدران خشنة تُشكّلها صخور مربعة ضخمة، تتفاوت في القِدم، وسلّم خشبي قصير يتوسّط واجهة الكنيسة في محاولة للربط بين حافة صخرية ونافذة زجاجية ضخمة. بدا المشهد عابقًا بالحنين. لا السلم قادر على الوصول إلى النافذة ولا النافذة تستطيع الدنو إليه. زادتْ دهشته حين سمع شخصًا إلى جواره يخبر مجموعة ترافقه أنّ السُلّم على حاله تلك منذ ثلاثمئة عام.

***

حين أراد داويتْ إزاحة الحقيبة الأخيرة عن سريره لم ينتبه لكونها مفتوحة، فاندلقتْ محتوياتها على الأرض. هنا التفت له الرجل شبه العاري بحدّة، قبل أن ينهض ويلمّ أغراضه بحركة متوترة. اعتذر داويتْ بارتباك، وهو يجلب حقيبته القابعة قرب الباب. أراد أن يحشرها أسفل سريره غير أنه وجد المكان عامرًا بحقائب أخرى. فكّر أن يسأل الرجل شبه العاري غير أنه أحجم حين وجده على ملامحه الغاضبة. لم يمرّ وقت حتى دخل آخر يلفّ منشفة على وسطه، تفاجأ قليلًا من وجود داويتْ لكنه سرعان ما تظاهر بالعكس، وانخرط في حديث مع الرجل الجالس أمام التلفزيون. طال تجاهل الرجلين لداويتْ. هو بدوره لم يحاول التقرّب أكثر. بدا الأمر مفهومًا له وقد مرّ به عشرات المرات. أعجبه هذا الاستغناء على محدوديته. دخل في لعبة مع نفسه؛ راهن أنهما شديدا التركيز معه، وأنهما لن

يتحمّلا هذه اللامبالاة دون أن يقرصهما الفضول، وهو ما حدث أخيرًا، بمجرد أن بدأ في فتح حقيبته وتقليب محتوياتها:

«هل تحتاج لمساعدة يا... لم تُخبرنا باسمك يا أخي».

شكر داويت الرجل شبه العاري وهو يخبره عن اسمه، دون أنْ يستطيع حرف بصره عن الحقيبة. تحلّق الرجلان حول الوافد الجديد وأغراضه، وأخذا في إمطاره بأسئلة لا يبحثان عن إجاباتها بقَدْر ما تُتيح لهما البقاء قريبًا. انتبه صاحب المنشفة للساعة ذات الإطار المعدني الأسود اللامع، فانتزعها وارتدّ خطوة إلى الوراء وهو يسأل عن قيمتها، ومكان شرائها. مال عليه صاحبه لكنّه حرمه النظر فيها وهو يقيسها على معصمه، ويعيد الأسئلة على داويت الذي وافق اهتمام الرجل زهدًا لديه في الساعة فاختصر إجابته بأن منحها له. هاج الآخر وهو يطلب شيئًا مماثلًا، ودون أن ينتظر ردًّا بعثر الحقيبة وخرج بالقميص الذي أهدته إياه سابا. حاول داويتْ أن يعترض، أن يمنحه شيئًا آخر عوضه، غير أن الرجل شبه العاري كان كمن ينتقم من حظّه العاثر الذي فوّت عليه الساعة، بأن يأخذ شيئًا أثيرًا عند صاحبه. تركه يُقلّب في القميص وهو يسترق النظر بغيظ مكتوم إلى الساعة ذات الإطار المعدنيّ اللامع، وهي تُزيّن معصم صاحبه. لم يمرّ وقت حتى علتْ أصواتهما وهما يتبادلان الشتائم كل يصف صاحبه باللص. حينها فقط عرف داويت أسماءهما؛ محاري الذي ظفر بالساعة، وآرون الذي قبل القميص على مضض. في نهاية اليوم، وقبل أن يخلدوا إلى النوم استعدادًا ليوم طويل في المدينة القديمة، دسّ داويتْ ما يملكه من مال في جيب سرواله الداخلي، واستلقى على بطنه يحمي الشيء الوحيد القيّم الذي بقي معه.

***

«يبدو أن افتراقنا لم يكن فكرة جيدة».

طأطأ داويتْ رأسه وهو يرى نقمة المرشدة التي انتظرته طويلًا برفقة محاري وآرون، فيما كان غائبًا عن الوجود يغوص في نفسه التي لمستْ شيئًا مبهمًا في كنيسة القيامة.

لم يستطع أن يُزيح بصره عن السُلّم الخشبي المعلّق على واجهة الكنيسة، إلا بدخولها. بدا الأمر كأنّه يحاول رؤيته من الداخل، فهم سرّ جَلَده وانتظاره الذي لا ينتهي. أُخذ بالقباب المزخرفة بالصلبان والأيقونات، فيما الثريّات الذهبية والفضية العملاقة تتدلّى منها. بالكاد وجد مكانًا لخطواته، ومع هذا كان متوحّدًا مع روحه، يشعر برحابة غامضة. على يساره أناس يتحلّقون حول إناء يغرسون فيه الشموع، أمامه نساء يبلّلن أرديتهنّ وحقائبهنّ بالماء المبارك المتدفّق عبر شقوق قطعة رخامية مستطيلة. تقدّم بصعوبة ليجد طابورًا حلزونيًّا ممتدًا ينتهي عند غرفة صغيرة بمدخل واطئ عرف أنها مرقد اليسوع. لوهلة انتبه أنّ الناس يخدشون بهاء المكان وهم يتمسّكون بطقوسهم السياحية المعتادة؛ الأصوات العالية وكاميرات التصوير، السراويل القصيرة والقبعات الدائرية الكبيرة. كل هذا كان يُشبه طقس السياحة في غوندار، ذلك المرور الكثيف على سطح الأشياء دون الانتباه لعمقه. السائح لا يتوقف، وإن فعل فإنه يفعل ذلك بكثير من النَّزق، هو معنيّ فقط بجمع الأدلة على مروره بالمكان، لكنه لا يمنحه شيئًا من روحه، ولا يأخذ منه إلا ما ندر، وهو يظنّ العكس. تمنّى داويتْ لو يُترك وحده في كنيسة القيامة، لو يُنصت بإجلال للأصوات المنبعثة من بين الشقوق، ويمسح بيديه دموع القطعة الرخامية المستطيلة، لا ليتبرّك، لكن ليواسيها على شعور الاغتراب، فالناس غير الناس بكل تأكيد، حتى لو ظلّ المكان على حاله.

بحث عن فُرجة تصله بالطابق العلوي، بالنافذة التي يستقرّ تحتها السُلّم الخشبي القصير، أخبروه أنه لا يستطيع فعل ذلك. تفاقم إحساسه بوجع السُّلّم. لعلّ كثيرين حاولوا قبله مدّ العون ووجهوا بهذا الرفض الصارم. نظر حوله، وجد سياجًا حديديًّا يفصل قاعة كثيرة النقوش عن بقية المبنى، وفي طرفها كوّة تفتح على سلالم صخرية حلزونية. لا بدَّ أنّها المنفذ إلى النافذة الزجاجيّة المطلة على السُّلّم.

تلفّتَ حوله، وحين لم يجد من يترصّده تسلّل بخفة وعبر الكوّة إلى السلالم الحلزونية. توقّف قليلًا، مال على الصخور تحته، ومسح عليها. شَعَرَ بها بوغتتْ لكن دون استياء. أخذ يخطو برفق خشية إيلامها، وهي التي قد تكون نسيتْ كيف تتكيّف مع إكراهات البشر. حين وصل إلى مدخل الغرفة المطلّة على الساحة الخارجية كانت النافذة الكبيرة تستقرّ أمامه خاشعة. اقترب منها فلم تعترض، اقترب أكثر حتى كاد يلتصق بها. مال برأسه إلى الأسفل، كان السُلّم الخشبي رافعًا رأسه بتوسّل. حين لمح داويتْ ارتجّ وصدر عنه أنين مكتوم. مثله كانت النافذة ترجو الزائر المفاجئ أن يُنهي رهق الانتظار، أن يجسِّر المسافة بينهما، أن يُدني النافذة أو يرفع السُّلّم، أن يفعل شيئا، حتى لو زاد المسافة بينهما. خطر لداويتْ أن السُّلّم حزين لهذا السكون أكثر منه لعدم الوصول.

لكن ماذا لو فعلها؟ ماذا لو فتح النافذة ومدّ يده إلى الأسفل لينتشل انتظارًا عتيدًا. كاد يفعل لكنه خشي الناس في الأسفل. خشي أن يخدش اعتيادهم، الألفة التي صنعوها مع هذه المسافة الظالمة، حتى أصبحتْ تعنيهم أكثر من التحام السُلّم بالنافذة. عاد خطوة إلى الوراء

فكادتْ النافذة تبكي. استدار وتركها خلفه. علا نشيجها. هنا قرّر أن يكون المخلِّص حتى لو انتهى به الأمر مصلوبًا. فتح النافذة فأصدرت صريرًا عاليًا. أطلّ منها على الجموع التي استدارتْ تجاهه قبل أن يعلو لغطها حين رأته يمدّ يده نحو السُّلّم الخشبي القصير. كان يُوزّع نظره بين الحشود التي تزداد أعدادها أسفل النافذة وبين السُّلّم الذي اقتربتْ لحظة خلاصه. مال بجسده أكثر كي يهزم المسافة، لكنه كان يقاتل وحده. فقد شَعَرَ بالسُّلّم ينكمش كلما كاد يلامسه. تُراه عدَلَ عن غايته وقنع بالمسافة الجائرة. هل كانت غايته حقيقة أم أنها سبب بقائه فحسب؟ زاد الضجيج في الأسفل. ارتبك داويتْ. استغلّتْ النافذة ذلك ودفعته حتى سقط على رأسه وسط الساحة الصخرية. ضحك الناس، وشاركتهم النافذة ذلك، لكنّ القهقهة العالية صدرتْ عن السُّلّم الخشبي القصير حتى ابتلعتْ بقية الأصوات.

داس داويتْ على قَدِمَ مُسنّة فأخرجه صياحها من خيالاته، ومن الكنيسة كلّها.

سار باتجاه نقطة الالتقاء مع المجموعة معطيًا ظهره للسُّلّم الخشبي المعلّق أسفل النافذة الزجاجية. تجنّب الالتفات خلفه، كأنّ خيالاته المسرفة قد استحالتْ حقيقة تمشي على قدمين. لوهلة زاره خاطر قبل أن يتمكّن منه تمامًا؛ ثمّةَ مسافة روحيّة بين الكنيسة من الخارج والعالم بداخلها، واجهتها الصخرية متجردة تبذل فيضًا من الروحانية لكل زائر تبقى معه حتى يغادر. هو إذن لم يؤخذ بالقباب المزخرفة بالصلبان والأيقونات، ولا الثريّات الذهبية والفضية العملاقة تتدلّى منها، بقَدْر ما كان لا يزال يحمل الشعور الأول الذي قذفته الواجهة الصخريّة في قلبه.

لمح قسّا إثيوبيًا محدودب الظهر، يلج مبنى غير معتنى به فأثار فيه فضولًا ليتبعه.

وقف أمام المدخل الواطئ مترددًا بعض الشيء، وهو يرى على بعد خطوات إلى الداخل سياجًا حديديًّا مصبوغًا بالأخضر. عاد وقد غلبه الفضول كأنّه إزاء مغارة مهجورة. تقدَّمَ خطوة فوجد على يمينه القسّ على كرسيه الخشبي بملابسه السوداء الفضفاضة، مغمضًا عينيه، ومسندًا رأسه بيد فيما الأخرى تحمل مسبحة بنية طويلة، وأمامه يستقر إناء صغير فيه عملات معدنية. لم يشأ أن يزعجه فطاف بعينيه من مكانه في الحجرة الضيقة؛ تجويف القبة متآكل، تتدلّى منه ثريّا غير متكلّفة، وأمامه ما يشبه الغرفة تُسيّج إناءً يحمل شموعًا وأيقونات للسيد المسيح، وفي طرف الغرفة سلالم حجرية داكنة. لم يحتج داويتْ لأكثر من ذلك ليرى كل ما تحويه الكنيسة الإثيوبية. استدار خارجًا بالحذر نفسه الذي دخل به، فوجد باب الكنيسة الخشبي يتوسّطه قفل حديدي، وقد علته لطخات سوداء كما يحدث للأبواب التي تعاني من كثرة الطرق. انتزعتْ المفارقة الفاقعة ابتسامة من داويتْ وهو يغادر ليلحق بالمجموعة عند مدخل الساحة الصخريّة.

(20)

«حين وقفتُ مجددًا أمام الضابط بعد انقضاء حبسي الانفرادي، كان يرمقني بنظرات حادة، كأنَّه يفحص أثر الأيام العشرة عليّ. لا بدَّ وأني قد غدوتُ أكثر هزالًا وبوجه شاحب صدم جنديًا يعرفني مررتُ إلى جواره في طريقي إلى مكتب الضابط.

«هل ستعيدها؟»

نظر في عينيّ مباشرة وهو ينتظر جوابي، بينما أعادني سؤاله إلى الزنزانة الضيقة، إلى لياليها الطويلة، ونهاراتها المضجرة، إلى عائشة التي لم تفارق وحدتي البتةَ، إلى أسئلتي الجارحة؛ ترى هل نسيتني؟ كم استغرقتْ قبل أن تعود إلى حياتها العادية؟ هل نسيتني فحسب، أم أنها انتظرتني كثيرًا قبل أن تصل إلى قرارها هذا؟ هل اكتفتْ به أم أنها تكرهني الآن؟

احتقنت عينيّ بالدموع، فارتختْ نظرة الضابط، وامتدتْ ابتسامته، وقد اعتبر ذلك جوابًا مكتملًا على سؤاله. أشار لي بالعودة إلى غرفتي للاستعداد للغد، بعد أن اكتستْ ملامحه بمسحة أبوية زائفة.

كنا في منتصف اليوم، حيث تخفّ الحركة في المدرسة قليلا، وينال الجنود شيئًا من الراحة، قبل العودة إلى جدولهم المزدحم.

استغللتُ هذا التراخي، نثرتُ حقيبتي على السرير، ووضعتها في مكان بارز في طرفه، ومضيت بخطوات واثقة إلى الخارج. في طريقي كنتُ أحيّي كلّ مَن يمرّ إلى جواري. أستجيب لمَن يستوقفني لأحكي له سريعًا عن قسوة الغرفة الانفرادية، قبل أن أواصل طريقي بالثبات نفسه. عند البوابة رمقني الحارس بنظرات متشكّكة، فأشرتُ له بكفّي بعد أن صلبتُ الأخرى أسفلها. هزَّ رأسه موافقًا وقد فهم أني مرسل لشراء علبة تبغ لأحد الضباط. تهلّلتْ ملامحي ارتياحًا وأنا أعبر البوابة قبل أن أنتبه لنظراته وأعاود ارتداء انكسار يلائم الخارج لتوّه من عزلة مؤذية. حين ابتعدتُ قليلًا بدأتُ في الركض. كنتُ أركض بكل طاقتي دون أن أنظر خلفي. كنت أهرب من مدرسة الثورة، لكني كنت أهرب إلى عائشة أكثر.

لم أتوقف إلا على الرصيف المقابل لمحل والدتها الذي عادة ما تكون عنده في مثل هذا الوقت. بينما أنتظر ظهورها انتبهتُ إلى أني لم أجهّز حكاية غيابي. بدتْ مهمة عسيرة أرهقتْ ذهني وأنا أحاول أن أجمع شيئًا مقنعًا. خطر لي أنّها بمجرد رؤيتي ستنسى حتى أن تسألني، لكنّي أيقنتُ أن ذلك سيأتي مهما تأخر. وأنا في قلب حيرتي ظهرتْ عائشة على الرصيف المقابل، وهي تمشي مطأطأة الرأس صوب المطعم. خطواتها الثقيلة كانت تطبع همّا تلو آخر على قلبي. أعرف عائشة حين تحزن؛ هي تفعل ذلك بكل طاقتها، تُخلص له حتى لا يعود شيئًا غيره أمامها. أردتُ أن أناديها، أن أستوقفها قبل أن تصل إلى المحل، لكنّي لوهلة شعرتُ أني غير جاهز لأتلقّى كل هذا الحزن دفعة واحدة. تركتها تدخل، وقد ازدادتْ حاجتي لاختراع أسباب غياب وجيهة، وقبل ذلك قادرة على صدّ هذا الأسى المتدفق أو حرف مساره حتى يضرب بعيدًا.

طال مكوثي في انتظار ظهورها مجددًا، لكني أصبحتُ أكثر هدوءًا وقد أمسكتُ بطرف الخيط الذي سيصل بي إلى حكاية متقنة. سأكذب بكل الصدق الذي أستطيعه، سأقول كل ما جرى لي، تمامًا كما كان. لكني سأبدّل آخر قطعة بغيرها، بحيث تمضي القصة في اتجاه مغاير للذي مضت فيه. سأخبرها بقصة الحبس الانفرادي، بعذابي فيه دون وجهها، بالهزال الذي ضرب روحي قبل جسدي. لكنّي سأضع سببًا لهذا العقاب، وليكن اعتدائي على جنديّ ضايقني في الطريق. هذا التبديل البسيط لن يخدش كل الصدق الذي سأكذب به.

لكنّ عائشة لم تظهر أيضًا.

من مكاني كنتُ ألمح مَنْ يتحرّك في الداخل. ظهرتْ الأم مرارًا. مثلها العاملون. لكنّ عائشة كانت كمن ابتلعها المحل وغيّبها في تجويفه العميق. لم أجد بدًّا من الاقتراب رغم خشيتي من الأم. عبرتُ إلى الرصيف الآخر، ومررتُ بجانب المطعم وأنا أحاول استراق النظر، لكني أدرتُ وجهي بعيدًا ما إنْ لمحتُ الأم قريبة من الباب. انتظرتُ قليلًا علّها تخرج، لكنها لم تفعل، فعدتُ للعبور وهذه المرة مع تركيز أكبر ساعدني عليه انشغال الأم بدفاترها. كانت عائشة تجلس في طاولة منزوية وهي ساهمة في الجدار المقابل، قبل أن تسند رأسها على ذراعيها المستندين على الطاولة. انتظرتُ أن ترفع رأسها وأنا أوزّع بصري بينها وبين أمها في واجهة المحل. بتثاقل عادتْ إلى جلستها السابقة، لكنها هذه المرة طافت بنظرها في المكان بضجر بادٍ، حتى اصطدمتْ بي. جرى كل شيء ببطء شديد؛ رفعُ رأسها، إسناد ظهرها على الكرسي، حركة عينيها في الأرجاء. وحده الاصطدام كان مُدوّيًا، كأنَّه بمعزل عن كل ذلك

البطء. فتحتْ عينيها بذهول. مثلها فعلتُ، وأنا من كان ينتظر تلك العينين حتى ترسو أخيرًا عندي. لا أعرف كم مرّ من الوقت حتى أدركتْ أنني أقف قبالتها، وأنها تجلس قبالتي. بالبطء نفسه أخذتْ ملامح الذهول تنسحب لصالح أخرى غاضبة. ضاقت عيناها فاحتدّتْ النظرات المصوّبة نحوي. لكنها لم تصمد أيضًا، ليستولي الحزن على الجسد كله. رأيتُ عائشة تنهار في مكانها، يهبط جسدها ويرتطم بالقاع، دون أن تتحرك من مكانها. كنتُ الوحيد القادر على رؤيتها حين تنزلق في الحزن دون إشارة واحدة ظاهرة. هزّتْ رأسها رافضة، ثم أشاحتْ بوجهها عني. انتظرتُ أن تعود لكنها لم تفعل. لم أشعر بنفسي إلا وقد اقتحمتُ المطعم واتجهتُ فورًا صوبها. رفعتْ الأمُّ رأسَها باستغراب، مثلها فَعَلَ الزبائن والعاملون، وظلّتْ عائشة على حالها. جثوت على ركبتي أمامها. وضعتُ يدي على ركبتها وأنا أتطلّع إلى ملامحها، لكنها ظلّتْ على حالها. ملتُ بجسدي حتى قابلتُ وجهها فصرفَتْه في الاتجاه الآخر. أمسكتُ كتفيها بقسوة وجذبتها نحوي. هنا كأني سمعتُ أمها تصرخ بأن أترك ابنتها، فيما اقترب أحد العاملين ليبعدني.

«ماذا تريد؟»

كفّتْ الأم عن الصراخ، وتوقّف العامل، بمجرد أن نظرتْ عائشة نحوهم، والدموع تملأ عينيها، لكن مع ملامح صارمة. لم أجد جوابًا. اكتفيتُ بالتحديق في وجهها الغاضب الحزين. هي أيضًا لم تكن تبحث عن إجابة، كانتْ تريد وجهي أمامها لتخوض معه حديثًا طويلًا صامتًا. سلّمتُها إياه، وتنحّيتُ جانبًا. مدّتْ يديها وأمسكتْ بوجهي. كنت أراها تزداد غضبًا، ثم تهدأ قليلًا، ثم تمتلئ بنظرات

حنونة، قبل أن تتدارك ذلك وتقشّرها لتسفر عن أعين حاقدة. أفلتتْ وجهي، وأشاحتْ مجددًا. عاد لي قلقي، وازداد وأنا أراها ترجع بملامح باردة محايدة. وقفتْ أمامي تمامًا، بدتْ كمن يتهيأ لقبلة طويلة. ارتختْ عضلات وجهي وأنا أشعر بمرور العاصفة. امتدتْ ابتسامتي، وقبل أن تصل لمداها، صفعتني بقوة أحدثتْ طنينًا متتابعًا من مركز الصفعة في خدي الأيسر إلى أعمق نقطة في دماغي.

ساد صمت مرتبك في المكان. الكل يُصوّب نظره نحوي، بينما أنظر لعائشة التي تحدّق فيّ وابتسامة ارتياح تأخذ مكانها بوضوح في وجهها.

«الآن بإمكانك أن تكذب عليّ كما تشاء».

سحبتني من يدي إلى الخارج وهي تُخبر أمها أنها قد تتأخر قليلًا، وخرجت متجاهلة نداءات الأم كي لا تغادر. سرتُ خلفها ولم أفق تمامًا من صفعتها. حين ابتعدنا بما يكفي مالتْ بي إلى شارع جانبي، وأسندتني على الجدار ووقفت قبالتي تنتظر أن أبادر بالحديث.

لا أعرف لمَ شعرتُ أني عارٍ تمامًا أمامها، كلماتي المزيَّفة تموت قبل أن تخرج لتصطدم بنظرتها الفاحصة. ضاعت كل محاولاتي لاسترجاع ثباتي، فآثرتُ الصمت، والغيظ يكبر داخلي. ليتني أستطيع إخبارها بعضويتي في ثمار النضال، وأغادر هذه الزاوية الخانقة التي تحشرني في دور المذنب دائمًا. أصبحتْ حياتي تشبه تلك الحكاية الصادقة جدًا، بينما إدخال كذبة وحيدة عليها يحرف مسارها كلّه. لكن، ويا للسخرية، لا قيمة لكل ذلك الصدق دون تلك الكذبة التي تحفظ كيانه وتحقنه بالحياة. لا أودّ حتى التفكير في ما سيحدث لو عرفتْ عائشة أني مقطوع النسب والانتماء، وأني لا أعرف إلا الثورة أبًا وأمًا.

«داود... تلك الصفعة كانت لأنك لم تفِ بوعدك. لو عدتَ ثانية للغياب، لن أجد ما يمحو فعلتك».

«لن أفعل... وهذا الوعد بكل يقين أملكه».

لم أتعرّف على صوتي وقد خرج بعد طول احتجاب، لكنّ روحي كانت تدفع تلك الكلمات بإصرار. لهذا ربما عادتْ عائشة التي أعرفها وهي تبتسم بحنوّ، قبل أن تُسارع إلى احتضاني وهي تبكي. أعدنا مشهد العودة الأول؛ نبكي ونحكي لبعضنا طعم الغياب المرّ، قبل أن نضيع في قبلة طويلة امتزجتْ فيها ملوحة الدمع الخفيفة بريق عائشة، وأعادتْ لنا شعور الاطمئنان بعد زعزعة الأيام الفائتة».

صمت ديفيد قليلًا كأنّه عاد قليلًا في الزمن ليتأمل ما جرى عن قرب. رفع موثق الجلسة رأسه وأطلق تنهيدة، وهو يفرك أصابعه التي وهنت لفرط ما تلاحقت حكاية الشاب أمامه. وحده الأوروبي كان يطلب المزيد، ويُبدي الضيق لأي انقطاع في خيط الأحداث. عاد ديفيد للحديث بعد أن امتلأ بالاهتمام الذي رآه في وجه الأوروبي:

«حين حلّ المساء جهدتُ في إقناع عائشة بالمغادرة كي لا تثير قلق أمها. تركتني وهي تأخذ مني الوعد تلو الآخر ألّا أغيب.

سرتُ في شوارع أسمرا دون هدى. نصفي مبتهج بعودتي إلى عائشة والنصف الآخر منشغل بما سيحدث لي حين يُكتشف هروبي. بدأتْ الحياة في المدينة تخفتُ شيئًا فشيئًا، دون أن يطغى نصف على الآخر. فكّرتُ في العودة إلى مدرسة الثورة، واللحاق بآخر الوقت المتاح أمامي قبل دخول اليوم الجديد. زاد إلحاح الفكرة وأنا أسترجع أيامي القاسية في الحبس الانفرادي. لكنها عادتْ لتضعف وقد زاحمتها فكرة فقدان عائشة إلى الأبد. في الطريق المؤدي إلى

مدرسة الثورة، تنازعتني الفكرتان بقوة أكبر كطرفي حبل يشدّاني بكل قوة في اتجاهين متعاكسين حتى كدتُ أتشظّى. لكني في النهاية اخترتُ أن أعطيها ظهري وأتجه صوب المجهول.

قادتني خطواتي نحو منزل والد أحد أصدقائي. ترددتُ قليلًا وأنا أجهّز كذبة تبقيني لديه بعض الوقت حتى أتدبّر أموري. طرقتُ على الباب، ففتح ونظرة الاستغراب تعلو محيّاه. لم أجهد كثيرًا وأنا أقنعه بالإجازة التي حصلتُ عليها بالاتفاق مع الضابط الذي أسديتُ له بعض الخدمات، ونقلتُ له تشديده بألّا أذيع الأمر حتى لا يعلم بقية زملائي الجنود.

حين وضعتُ رأسي على الفراش الذي أعدّه لي الرجل على عجل، عادتْ الأفكار المتناقضة لتضرب رأسي بشدة. يتعالى صوت حركة عقرب الساعة أمامي، كأنّه يصرخ بالعدّ التنازلي لاعتباري هاربًا من الخدمة العسكرية في مدرسة الثورة. أحاول الإمساك بفكرة مكتملة، بقرار أضع عليه قلبي وأرتاح، لكنّ الأفكار تحت ضغط الوقت تبهتُ وتتناثر، وتحيط بها الهالات، حتى يصعب الإمساك بها. ليتني أستطيع الجمع بين عائشة وتجنّب العقاب، ليتني أستطيع أن أختار بينهما دون أنْ يعتبرني الآخر مارقًا».

«ماذا كنتُ ستفعل لو كنتَ مكاني؟»

تفاجأ الأوروبي بسؤال ديفيد. استغرق بعض الوقت ليستوعب أنه خرج من أجواء حكايته ليسحبه إليها. كاد أن يجيب، أحبّ ذلك في الحقيقة، لكنه لوهلة أدرك أنه إزاء ورطة يملك الخيار في الاقتراب منها، لكنه لن يكون كذلك إذا أراد الانسحاب. للحكايات باب

واحد، نلج منه ثم ندور في عالمها إلى الأبد. لا نجاة من الحكايات التي نتورّط فيها، حتى لو اعتقدنا خلاف ذلك.

«لا. لا... أودّ لو أكتفي بالاستماع لك».

ابتسم ديفيد وهو يرى الأوروبيّ يرفع قدمه عن الحفرة المعدّة له ويتفاداها رغم فضوله تجاهها، وعاد لحكايته:

«لا أعرف متى استسلمتُ للنوم، لكنها بدتْ لحظات سريعة قبل أن أصحو مذعورًا على صوت طرق شديد على الباب. كان الضوء قد تسلل إلى الغرفة، والساعة تشير إلى التاسعة. حاولتُ اللحاق بصاحب البيت قبل أن يفتح الباب، لكنه كان قد سبقني إليه. اقتحم الأمن المنزل، وتجاوزوا الرجل إليّ وسط ذهوله، قبل أن يقتادوني ويغادروا مسرعين. كنتُ أتوقع شيئًا كهذا، لكني لم أظنه يأتي بهذه السرعة. في العربة المكشوفة جلستُ مقيّدًا إلى جوار شرطيين، وثالث في الجهة المقابلة. لم يعتدِ عليّ أحد، أو يتحدث إليّ، وإن أمطروني بنظرات متجهمة.

بدأ الندم يتسلّل إليّ ويكبر؛ لو كنتُ عدتُ إلى مدرسة الثورة قبل الفجر لنجوتُ من هذا المصير. ها أنا ذا أقاد إلى عقاب لا أعرف مدته، دون أن أحصل على عائشة. وكأن الكلفة مضاعفة. هذا ما يحدث حين نرغب في امتلاك كل الأشياء في آن معًا، نفقدها ولا شك.

بدأتُ أنتبه إلى أننا لم نصل بعد إلى مدرسة الثورة، وقد مضى أكثر من الوقت اللازم. نظرتُ للخارج، كان المسار مختلفًا. خطر لي أنهم سيدهمون أشخاصًا آخرين قبل أن يعودوا بنا إلى الضابط كصيد ثمين، لكنّ عربة الشرطة بدأتْ تخرج من المدينة باتجاه الضواحي.

ملتُ على الجندي وسألته عن وجهتنا بكل اللطف الذي استطعتْ. دوّتْ ضحكته وهو يُخبر البقية كيف أنني لا أعلم عن وجهتنا إلى الوادي الأزرق.

اخترق الاسم صدري واستقر في قلبي كجمرة حارقة. حجبتُ وجهي بكفيّ، وملتُ به بين فخذيّ، وأنا أتخيّل المصير الذي أُقاد له. لم أكن أدرك أنّ التغيّب عن مدرسة الثورة سيكون عقابه الزجّ بي في أكثر معسكرات التأديب قسوة. كنتُ أفاضل بين عائشة والحبس الانفرادي، لكنّ دخول الوادي الأزرق كان سيطيش بأي شيء يقابله. أردتُ أن أبكي، أن أصرخ، أن أستجدي الجنود ليتركوني على قارعة الطريق. الآن فهمت سرّ هدوئهم، وعدم تعدّيهم عليّ. لا شيء يفوق الوجهة التي نقصدها ألمًا وتعذيبًا. لا بدَّ أنهم استغربوا استكانتي ورضوخي.

بدأتُ أستعيد حكايات الجنود في الجبهة عن هذا المكان، وخشيتهم من المرور به. أذكر كيف كانتْ الثورة تبعث بالخونة والمارقين إليه قبل إعدامهم، وكيف ربَّى سُمْعَته على رصيد كافٍ من الأشلاء وصرخات التوجّع والإهانات. حين كنتُ أسمع الاسم أشعر بالرهبة تهزّ جسدي، لكنها رهبة الأشياء البعيدة، تلك التي تحدث لغيرنا، تُثير خوفنا واشمئزازنا، لكننا لا نتخيل أنفسنا فيها. الوادي الأزرق كان كالوحش الذي يحكي عنه الجميع دون أن يروه. لم يسبق لي أن رأيتُ عائدًا من هناك. ربما لأن من يذهب إليه لا يعود.

ملتُ على الجندي مجددًا، لكنّ هذه المرة سألته بصوت أعلى، بائس لكن محتجّ، غاضب، لكن باحث عن النجاة بأي ثمن:

«لماذا أنا؟ ماذا فعلتُ؟ هل أصبح الوادي الأزرق عقاب من يتغيّب عن مدرسة الثورة؟»

نظر الجنديّ إلى رفقائه، ثم عاد إليّ بنبرة قدّرتْ قليلًا شعوري بالهلع:

«تعرف أننا نطبّق الأوامر فقط دون الخوض في أسبابها. حين نصل بإمكانك أن تسألهم هناك».

عدتُ إلى دسّ رأسي بين فخذي، وأنا ألعن عدم تقديري للأمور. خطرتْ لي عائشة فلعنتها أيضًا، لعنتُ عائلتها، لعنتُ تلك اللحظة التي خرجتْ لي فيها بين الجموع، اللحظة التي تبعتها، حادثتها، أعجبتني، أعجبتها، أحببتها، أحبتني. لعنتُ كل تلك اللحظات وتمنيّتُ لو اختلّ ميزانها قليلًا لأنجو.

ماذا لو لم أنزل من الشاحنة المكشوفة مع احتفالات الاستقلال؟ ماذا لو لم أسعَ كي يحملني الرجل على كتفه ويرقص بي بين الحاضرين؟ ماذا لو تركتها تختفي عن ناظريّ؟ ماذا لو لم ألحق بها مرة وأخرى حتى أطوّقها؟ ماذا لو استمرّ غضبي عليها حين رأيتها برفقة شاب آخر؟ ماذا لو فكّرتُ في الإهانة التي تُحيطني بها أمها كلما رأتني؟ ماذا لو رضختُ لتهديدات الضابط والتزمتُ بتدريبي في مدرسة الثورة؟ ماذا لو لم أتورّط في عينيها الناعستين، وشفتها السفلى المكتنزة، وحبة الخال التي تتوسط نهاية عنقها، وأصابعها الناعمة، وشعرها الأسود القصير؟

ماذا لو؟ ماذا لو تغيَّر شيء واحد فقط في هذه السلسلة الطويلة؟ كنتُ سأنجو ولا شك. حلقة واحدة كانت ستفي بالغرض، وتحرف مسار ذلك القَدَر المحكم ليوصلني إلى مكان آخر غير الوادي الأزرق.

لا شيء ينفع الآن.

ظلّتْ الكلمة الأخيرة ترنّ في رأسي، وأنا أرى العربة تهدئ من سرعتها لتدخل في طريق ترابيّ جانبي، بينما أخذ الجنود يتأهبون لترجّل قريب».

أحاط ديفيد وجهه بكفيه، ودسّها بين فخذيه، كأنّه يجسّد ما كان يحكيه الآن. سأله الأوروبي إن كان بحاجة للراحة قليلًا، لكنه هزّ رأسه نافيًا. شرب القليل من الماء وواصل حديثه.

(21)

في طريق العودة، التفتتْ المرشدة إلى داويتْ ورفيقيه وهي تسألهم عن أبرز مكان علق في أذهانهم بين الثلاثة التي تمت زيارتها. أجاب الاثنان دون تردد:

«كوتل».

ودّ داويتْ لو يقول كنيسة القيامة، قبل ذلك، ودّ لو يصحّح لها أنهم لم يزوروا المسجد الأقصى وإنما وصلوا إلى أقرب نقطة فيه. حين وجد الثلاثة ينتظرون جوابه سارع بتكرار إجابة رفيقيه عقب أن لاحظ ابتهاج المرشدة بها: «الحائط الغربي».

لم يترك الحائط الغربي في نفسه الأثر الذي فعله في صاحبَيه. ربَّما لأنَّه جاءه مستنزفًا من كنيسة القيامة، وربما لأن الزيارة كانت سريعة وجماعية لا وقت فيها للتأمل. لا يعرف، غير أنّ الأمر تم بشكل آلي حين غادروا الساحة الصخرية للكنيسة باتجاه المنطقة الغربية المحاذية للمسجد الأقصى، ليجدوا الحائط الصخري الضخم يستقر بين باب المغاربة جنوبًا والمدرسة التنكزية شمالًا.

كان المكان شبه خالٍ إلا من مجموعات صغيرة متناثرة، بين متعبّدين وسيّاح. لم يستطع داويتْ أن ينسجم مع المكان، شعر

بالأربعين مترًا التي تصل بين الأرض وقمة الجدار حائلًا روحيًا لا يفهم سببه. هو ربما لا يريد شيئًا يهابه، بقَدْر ما يبحث عن جدران حنونة قريبة كتلك التي وجدها في كنيسة القيامة.

ذكّرتهم المرشدة بالطقوس، فانطلق الثلاثة فورًا ليلتصقوا بالجدار، ويستحلبوا الدمع أمام الأثر الوحيد المتبقي من هيكل سليمان، حدادًا على خرابه. وقبل المغادرة كتب كل واحد منهم أدعيته وأمانيه في ورقة ودسّها بين شقوق الجدار. هذه اللحظة غيّرتْ قليلًا من شعور داويتْ تجاه الحائط. رقّ قلبه لتلك الشقوق التي لا تكف تستقبل أمنيات الناس ودعواتهم.

في الشقة 18 من الطابق الخامس في البناية السابعة من المربع اثنين وعشرين من مستوطنة بيسغات زئيف، كان محاري يُلحّ على رفيقيه أن يخبراه بالأماني التي كتباها بعد أن بدأ بنفسه:

«رجوت الله أن يهبني مالًا وفيرًا وزوجة صالحة تُنسيني وجوهكم الكالحة».

كرّر آرون أمنية محاري بكلمات مختلفة، قبل أن يتوقّف عند مواصفات الزوجة التي يريدها:

«في الحقيقة لم أطلب من الله أن تكون صالحة، فلدينا منهنّ الكثير. أريدها أن تُسعدني بالذي تعرفون وحسب. عدا ذلك فإن صلاحها لوالديها».

علتْ الضحكات، قبل أن يلتفت الاثنان إلى داويتْ الذي حاول أن يتملّص وهو يُخبرهما أن الدعوات لم توضع في الشقوق إلا لتكون بين المرء وخالقه، وأنّ السِّريَّة تضمن وصولها إلى المبتغى

دون تشويش. لكنّ محاولاته تبخّرتْ أمام إصرارهما، خاصة أنّهما لاحظا أنه قضى وقتًا طويلًا في الكتابة، فاضطر أخيرًا للحديث:

«قسّمتُ أمنياتي بين ما يخصني وما يخصّ قومنا. طلبتُ من الله أن يمدّ في عمري وأن يمنحني الصحة لأعوّض ما فات من عمري بعيدًا عن أرض الميعاد. دعوته أيضًا أن يكتب الخير لهذه الأمة وأن يلمّ شتاتها بعد طول عذاب. هل ارتحتما الآن؟»

بدا التأثر على محاري وآرون، وأمامهما شاب يصغرهما في العمر، لكنّ قلبه لا يضيق بأمنياته وحده. في هذه اللحظة بالذات كان داويتْ يسترجع ورقته الفارغة التي تظاهر لوقت طويل بالكتابة عليها، قبل أن يلتفت حوله، ويغرسها عميقًا في شقّ منزوٍ، بعد أن وضع في سطرها الأخير كلمة واحدة تجمع كل أمانيه:

النجاة.

حين ارتمى كل في سريره، كان داويتْ يُحدّق في السقف، ويسترجع صباحه الطويل. تلك المعاني التي بذرتها كنيسة القيامة في روحه. تعجّب أن يتعلّق بأثر ديني، وهو الذي لم يمارس طقسًا دينيًا في حياته. لكنّ تعجبه عاد ليخفّ وهو يقول لنفسه إنه أُخذ بالمكان، برائحته العتيقة، بالروح التي تسكنه، وليس بما يعنيه للآخرين.

هذه الخاطرة قادته للتفكير في إحساسه المحايد بالأديان، لا هو يُحبّها ولا يكرهها. هي على هامش حياته فحسب. حتى الأسماء التي اختارها لنفسه لتحيله إلى دين بعينه، لم تبعث فيه أي انحياز. في أعمق نقطة لديه كان لا يزال أدال، ذلك الشاب المنتمي للجبال والأودية وحدها، للأماكن المنبتّة عن كل صلة، رغم ما أصبح يثيره هذا فيه من حزن وإشفاق على نفسه. لا يعرف إن كان هذا جيدًا أم

سيئًا، كل الذي يعرفه أنه أصبح على هذه الحال دون أن يكون له خيار فيه. يشعر الآن أنّ الوقت قد فات ليكون منتميًا، والانتماء يحدث في جانب منه لأمور قلبية صِرْفَة تتشكّل في البدايات فحسب.

عاوده فضوله لرؤية الأقصى من الداخل. ذلك السياج من حوله بعث شوقًا غريبًا في نفسه. لكنّه لا يعرف كيف يفعل ذلك، كيف سيطلب من المرشدة أن تعبر به. وحتى لو ذهب وحده، كيف سيدّعي أنه مسلم دون أن يثير شكّ الحراس من حوله. صرف الفكرة لبعض الوقت قبل أن تعود أكثر إلحاحًا. نهض من فراشه وقد استولتْ الفكرة عليه تمامًا. ارتدى ملابسه وهو يتعمّد ألا يثير جَلَبَة توقظ رفيقيه من قيلولتهما. قصد محطة الحافلات فوجدها جميعًا تحمل الرقم 44، احتار قليلًا قبل أن يسأل أحد المارة ويعرف أنها جميعًا ستقصد البلدة القديمة، وأنّ الرقم يُشير إلى المسار الذي ستتبعه الحافلة للعودة إلى بيسغات زئيف.

كانت الساعة عند الثانية ظهرًا، حين ترجّل داويت في محطة الحافلات المركزية بالقرب من شارع السلطان سليمان القانوني، وهي تضجّ بالعابرين في كل اتجاه. لم يكن بحاجة ليسأل واللوحة أمامه تقوده إلى وجهته.

وقف مجددًا أمام باب العامود وقد انتبه هذه المرة إلى أسواره الشاهقة المزخرفة كأنّه بقايا قلعة حصينة. نزل العتبات، وهو يحشد التشجيع لنفسه كي يبدو عاديًا، بينما ينتشر الجنود من حوله. جهد كي يرفع رأسه وينظر في عين أحد الجنود، وحين مرّ الموقف دون متاعب، رفع رأسه، وملأ صدره بالهواء، واعتدل في مِشْيَته بعد أن صار شعوره أكثر ثباتًا.

سلك طريق الواد بعد أن رأى لوحة تقول إنه ينتهي بالمسجد الأقصى. كان كثير الشبه بالمسار الذي سلكه صباحًا برفقة المجموعة. لم يكن على يقين ما إذا كان هو نفسه أم آخر لا يختلف عنه؛ ضيق الطريق، وازدحامه بالمحال والناس، والقباب التي تظلّل المارة. مرّ جواره جنديّ إثيوبيّ هزّ ثباته قليلًا، لكنّ داويتْ عاد سريعًا إلى سكينته حين هزّ رأسه للجندي فردّ تحية مماثلة لكن بملامح جامدة.

حين اقترب الطريق المتعرّج من نهايته، كان قد استعدّ جيدًا ليجيب على سؤال الجندي، قبل أن تستوقفه أنغام حنونة، اخترقتْ ضجيج المكان، ووصلتْ إليه من محل للآلات الموسيقية. من مكانه لمح في الداخل فتاة تعطي المدخل ظهرها، وتمسك بآلة العود. اقترب وهو لا يدري الآن إن كانت الموسيقى هي ما يواصل جذبه، أم شعر الفتاة القصير الفاحم. بعد قليل تردد ثمَّ دخل المحل، فرفع البائع الذي يواجه الفتاة رأسه، ثم عاد ليتابع العزف. هذه اللامبالاة التي قوبل بها، شجَّعته ليقترب أكثر كأنّه شخص غير مرئيّ. هو أيضًا انخرط في اللعبة نفسها، وهو يمشي ويُقلّب بصره في الآلات الخشبية والنحاسية المتزاحمة على الجدار دون أن يلتفت ناحية الفتاة. حين وصل إلى الزاوية استدار لتصبح العازفة قبالته. هنا عبأ بصره بملامحها مستغلا انشغالها بالعود؛ في أوائل العقد الثالث، وجه أبيض يميل إلى الطول، يُحيط به شعر متموّج، عينان حادّتان أقرب إلى الشراسة، تعلوهما حواجب كثيفة، ونظارة طبية دائرية العدسات بدتْ جزءًا أصيلًا من الوجه لا يمكن تخيّله دونها. هبط داويتْ بنظره إلى يدها، إلى تلك الحركة الرشيقة التي تبدو عبثية لولا الأنغام المنسابة التي تنتج عنها.

لم يفرغ داويتْ من تأمل الفتاة، حتى انتبه إلى البائع الذي يرمقه باستغراب. تزامن ذلك مع انتهاء العزف، فرفعتْ الفتاة رأسها كلّه لترى الوافد الجديد. اجتمعتْ عليه النظرات، فخرج مرتبكًا دون أن ينطق بكلمة واحدة. عند الباب استدار ليسرق نظرة أخرى، فوجدها تبتسم وهي تتابعه ببصرها.

على مقربة من الجندي، انزوى ليحظى ببعض الوقت حتى يغادره ارتباكه، لكنه حين رأى مجموعة تعبر باتجاه المسجد اندسّ وسطها، وتجنّب السؤال الذي كان يخشاه. بمجرد أن تجاوز الجنديّ افترق عنهم وقد توقفوا عند مجموعة فلسطينية تتأكد من ملاءمة الملابس النسائية للمكان.

مرّ داويتْ بلوحة تُشير إلى ضريح وليّ الله الأمير علاء الدين البصيري، التابعة لدائرة الأوقاف الفلسطينية، ليجد نفسه في قلب باحة كبيرة، مقسّمة إلى طرقات صخرية تنتشر فيها شجيرات وقباب صغيرة، ومن خلفها تخطف القبة الذهبية الشاهقة الأنظار. تقدّم داويتْ نحو الجامع بخطى وجلة، صعد سلالم صخرية أوصلته إلى الساحة التي تُطلّ عليها القبة مباشرة. توقّف يتأملها، بدتْ متعجرفة للغاية، ومزهوة ببريقها، وهي تطلّ على كل شيء من عَلِ. كان عليه أن يرفع رأسه بمشقّة ليطالعها. لا يروقه هذا الإخضاع المبالغ فيه. هذه القبة تعرف أنها جميلة، وسامقة، وهي تعتاش على ذلك. تمنّى لو أدرك ذلك قبل أن يصل، حينها كان سيتجاهلها، سيتجاهل هذه اللعبة التي تلعبها بأشعة الشمس لتشير إلى نفسها بسفور، سيتجاهل تشوّفها لكل قادم جديد كي تملأه بالدهشة والإكبار. كان سيمرّ من أمامها وهو يُحدّق في القباب الصخرية الصغيرة، قبل أن يقترب من

طلائها المقشّر ويمسح عليه بكل حنوّ يستطيعه. وحده هذا السلوك كان سيمنح القبة الذهبية ما تحتاجه لتراجع غرورها المكشوف.

لكنّ الآوان كان قد فات.

اقترب أكثر. بمحاذاة الجدران تتناثر مجموعات صغيرة من النسوة، يفترشن المساحة المظللة، ويمضين الوقت في تبادل الأحاديث برتابة. دار داويت حول المكان حتى وصل إلى مدخله. رأى حراسًا فلسطينيين. لفته أنهم ملتحون، وفي الوقت عينه تبدو هيئتهم أقرب إلى نظرائهم الإسرائيليين، غير أنهم بلا أسلحة؛ قصة الشعر التي تُبقي على جانبه العلوي فقط، والأكمام المطوية لتظهر عضلات اليدين، وأجهزة اللاسلكي المعلّقة على الأكتاف لتنتهي أسفل الظهر، ونظارات بوليس الرياضية القاتمة التي تختبئ خلفها الأعين المتوجسة.

أطلّ من مكانه فلم يرَ في الداخل سوى النساء أيضًا، تتوزّع بينهنّ حارسات بسترات بنيّة تتوسطها صورة القبة الذهبية. هي تطارده إذن أينما حلّ.

وجد مدخلًا آخر اتجه إليه، فوجده أكثر امتلاء بالنساء. لكنهنّ هنا يتجمّعن حول سلالم صخرية تقود لما يُشبه القبو الصخري. داخَلَهُ فضولٌ ليعرف ما يجري في الأسفل، لكنه خمّن أن المكان مخصص كلّه للنساء.

أعطى الجامع ظهره وتبع لوحة تقود إلى المسجد الأقصى. من مكانه يستطيع أن يرى شيئًا مختلفًا. بناءً صخريًّا أنيقًا دون تكلّف، تعلوه قبّة فضية. حين بلغ المدخل خلع حذاءه وعبر دون تردّد. سار على البساط الأحمر المزيّن بالأصفر. لم يكن جديدًا، لكنه نظيف.

أمامه يمتد المسجد لخمسين مترًا تقريبًا قبل أن يصل إلى المحراب. من سقفه المزخرف بالآيات القرآنية تتدلّى الثريات النحاسية، وعلى أعمدته تنتشر المراوح السوداء من ماركة فينتا. تقدّم أكثر فوجد محرابًا بنيًّا مسيّجًا وعلى واجهته تحذير من اعتلائه كي لا يسقط. بدا هذا المحراب ملائمًا جدًا للمسجد، فهو مهيب دون تعجرف، قديم لكنه يقف على قدميه، خاشعًا دون تصنّع. انتقل الخشوع إلى روحه. كاد يبكي، وقد أحسّ برغبة في أن يظلّ هنا إلى الأبد. يحتضن المسجد ويحميه ويحنّ عليه، وينعم في الحين عينه بحمايته وحنوّه. أحبّ هذه العلاقة التبادلية. أحبّ أن المسجد لم يُلغ وجوده. أنه نظر إليه وعرف بوجوده. كان كمن يُخبره بصوت عالٍ أنّه يريده ويحتاج إليه أيضًا. خطر له أن يُصلّي، كانت تلك هي المرة الأولى التي يزوره فيها هذا الخاطر، لكنّ جهله التام بما ينبغي فعله صرف الفكرة عن ذهنه.

حين غادره، قطع أكثر المسافة بينه وبين مدخل باب العامود، وهو ينظر إليه. لم يُعطه ظهره إلا مضطرًا. وقبل أن يخرج تمامًا، مال على شجرة وحيدة، قبّلها، وغرف شيئًا من التراب الذي تغوص فيه، ودسّه في جيبه.

عاد إلى ضجيج الناس في الطريق الضيّق. ودّ لو أنه ينأى بروحه المبتلّة بعيدًا عن الناس، أن يحرسها كي لا تجفّ من جديد. تمنّى لو يرى وجهه، شعر به مبْتَلًّا هو الآخر، لذا تعمّد ألّا يُحدّق في شيء بعينه. كان يمضي في طريقه يتحسّس وجهته كالأعمى، وكانت روحه تلك العصا التي تتحسّس الأرض بحذر، وتُجنبّه الاصطدام بالناس والأشياء من حوله.

لكنّ هذا التغافل زال فجأة حين مرّ أمام محل الآلات الموسيقية. لم تلمحه العين، بل الروح المبتلّة ذاتها رفعتْ رأسها والتفتتْ إليه كأنَّ خاطرًا غير مفهوم قد مسّها بلطف وغادر.

مال على المحل بحيث لا ينكشف تمامًا لصاحبه. وجد البائع يعزف لعدد من السيّاح، لكنه لم يجد الفتاة. بدا العزف متقنًا جدًّا لكنَّه جافٌّ ومتوقَّع. كان قادرًا على رؤية وجهة الموسيقى دون عناء، هي تعلو وتهبط دون أن تفعل ذلك في قلبه، كانت تتقافز حسب، بينما مشاعره جامدة في مكانها، لا يروق لها أن تبكي، ولا تضحك حتى.

أكمل سيره، خشية أن يتسرّب خشوعه القديم. أسرع في خطاه، رغم أنه يمضي للأمام تاركًا الأشياء التي أحبّها خلفه. حين بلغ نهاية الطريق وخزه قلبه. شعر بالمكيدة التي يُدبّرها له باب العامود وهو ينوي تسليمه إلى بقعة أخرى، لا رابط بينها وبين الأقصى. تحسّس طعم الاسم للمرة الأولى؛ كيف للأقصى أن يتوسّط شعوره إلى هذا الحد، أن يسكن عمق إحساسه ويتشبث به. لكن ها هو المسجد ينزوي عنه بعيدًا، وسيذوي بمجرد أن يعبر إلى ضوضاء شارع السلطان سليمان القانوني.

على العتبات الصخرية لباب العامود لمح الجنديّ الإثيوبي مجددًا. هذه المرة نظر في عينيه دون وَجَلٍ، لم يبادر بتحيته. الجندي بدوره اكتفى بالتحديق في داويتْ، قبل أنْ يميل على زميله ويخوض في حديث باسم. صعد السلالم بخفّة قبل أن يتوقّف فجأة وهو يرى الفتاة جالسة على العتبات تعبث في هاتفها المحمول، وإلى جوارها يتمدّد العود وقد ارتدى حُلّة جلدية غامقة.

لا يعرف لِمَ أحسّ أنه عاد إلى قلب الأقصى من جديد. عاد البلل يمسح قلبه ووجهه برقّة أكثر. حار ماذا يفعل. لم يكن قادرًا على المغادرة، ولم يجد طريقة للاقتراب منها. بقي في مكانه يلعن المسافة التي تفصله عنها. ليته انتبه لها وقد حاذاها، ليته اصطدم بها، تعثّر بالعود. ليته لم يحتج ليتقدّم أكثر، ليته وصل قبل أن ينتبه. ما أسوأ الانتباه قبل الأوان، ما أسوأه بعده. لا يعرف لِمَ لا ينتبه العابرون لوجودها، لم لا تتوقف هذه الحركة النزقة من حولها. لأول مرة يشعر بالتسامح مع الانتباه، وقد خصّه دون سواه. بدا الأمر كأنّه وجد عملة في وسط طريق قصده الآلاف قبله دون أن ينتبهوا لها. لا يعرف مَنْ تواطأ مع الآخر، لكنه ممتن على أيِّ حال.

دسّت الفتاة هاتفها في جيب الجينز الضيّق، ورفعتْ رأسها بضجر، وهي تعبث بخصلات شعرها المتموّج وتعيده إلى الوراء، لترى داويت متخشّبًا يتأملها. احتدّ بصرها وهي تنظر إليه كمن يتأكد من لقاء شخص يعرفه. كل ذلك جرى ببطء شديد، لكنه لم يسمح له بتفادي الافتضاح أمامها. سرى ارتباك في جسده سعى لإخفائه وهو يصرف بصره عنها، لكنّ قدميه ظلّتا في مكانهما، كأنّهما تتجاسران عليه وتقفان ضده. عاد إليها فوجد حدّة بصرها قد خفّت، واستولى على وجهها نصف ابتسامة محيّرة.

قامتْ من مكانها، عدّلتْ قميصها الأبيض بعد أن كشف شيئًا من جسدها. لمح الصدرية تحته بوضوح. حملتْ العود، واتجهتْ صوبه، وقد اتسعتْ ابتسامتها. كاد يتراجع ويهرب من مكانه. ها هي تفعل ما عجر عنه، تجسِّر المسافة اللعينة. لكنّ أكثر ما كان يرغب فيه، هو أكثر ما يخشاه الآن.

«هل أنت سودانيّ؟»

باغته سؤالها، كأنّها هبطتْ أمامه فجأة، وكأنه لم يلمحها ابتداء وهي تعبث في هاتفها النقّال، وكأنها لم ترفع رأسها بضجر وتلتفت إليه بنصف ابتسامة محيّرة، وكأنها لم تقم من مكانها وتحمل عودها وتتجه صوبه. وكأنه لم يعش كل ذلك بالبطء الكافي للإمساك بكل لحظة، وتوقّع التالية.

أربكها صمته، فعدّلتْ سؤالها بالإنجليزية هذه المرة:

«هل أنت إرتريّ؟»

هزّ رأسه إيجابًا، قبل أن يعود وينفي بنفس السرعة. علتْ الحيرة وجهها، قبل أن يُجيب بنبرة أرادها أن تخرج واثقة:

«أنا من بيتا إسرائيل».

زمّتْ شفتيها وهي تعتذر، وتستدير لتغادر. أحسّ بالمباغتة. لا يريد لهذا اللقاء أن ينتهي سريعًا. لم يشعر بنفسه إلا وقد استوقفها بكذبة متعجّلة حرص أن تكون بالعربية:

«لكني عشتُ في إرتريا والسودان، ولي أصدقاء كثر من هناك».

«امم... لكنّي أبحث عن لاجئين من إرتريا والسودان لتطبيق بحثي الدراسيّ. هل يُمكنك أن تدلّني على أحدهم؟»

ارتدّتْ عليه كذبته بورطة لم يكن جاهزًا لها. خطر له أن يدّلها على يعقوب ليستبقيها، لكنه لن يكون جسرًا لأحد، يريد أن يكون وحده الوجهة والطريق.

خطر له أن يتراجع ويُخبرها أنه إرتريّ، وأنه يصلح تمامًا لبحثها الذي تمناه طويلًا ومعقّدًا، لكنه خشي أن يُهدر سرّه هكذا دون ضمانات:

«أستطيع ذلك، لكني لا أعرف إن كانوا راغبين في التعاون معك... تعرفين كيف يتوجّس اللاجئ من الغرباء».

بدتْ كذبته هذه المرة محكمة أكثر من سابقتها، وهو يرى تهلّل وجه الفتاة التي أخرجتْ بطاقة بيضاء من بنطالها ومدّتْها إليه:

«كل الأمور ستجري في سرية تامة، ولن يُكشف عن هوياتهم. هنا رقم هاتفي وأتمنى أن أسمع منك قريبًا».

غادرتْ الفتاة بالبطء نفسه الذي قدمتْ به، لكنّ داويتْ تفاجأ به أيضًا. ظلّ ممسكًا بالبطاقة حتى اختفتْ عن ناظرَيه. خلا المكان من الناس، خلا من الضجيج. أصبح وحيدًا في عتبات باب العامود. عادتْ روحه للخشوع بقسوة أكبر. هذا الخشوع الذي كان يطلبه، أصبح ينخر داخله في طريقه إلى أعمق نقطة فيه.

في فِراشه كان لا يزال ممسكًا بالبطاقة، يتحسّسها، يتمعّن فيها، يُقرّبها من أنفه. أراد أن يُشرك أكبر قَدْر من حواسه في الشعور بها. وقبل أن يغمض عينيه تمامًا كان يُردد الاسم المحفور على واجهتها بلذة لا ينتقص منها التكرار:

«سارة... سارة... سارة...».

(22)

«نزل الجنود، بينما بقيتُ في مكاني. صرخ عليّ أحدهم. تبعتهم وأنا أقلّبُ بصري في المكان؛ أرض قاحلة محاطة بالجبال، تتناثر فيها حاويات حديدية بعضها فوق بعض، بينها مسارب في الأرض. تسلّمني جنديّ بعد أن وقّع على ورقة. وضع أصفادًا في يديّ وقدميَّ، وسحبني من سلسلة صدئة أحاط بها رقبتي، وهو يتوعدني بأيام كالحة. لم أنطق. كنتُ منفصلًا عن المكان، غائرًا في نفسي. غامتْ الأشياء من حولي، بدتْ نقاطًا معتمة ضئيلة. كل شيء كان يحدث داخلي، يكبر ويصغر، يتحرك في كل الاتجاهات، ثم ينتهي قبل أن يصل إلى ملامحي.

إلى جواري مرّ شابّ يجرّ بعناء عربة تتمدد عليها صخرة ضخمة، وكلما رغب في التوقف لسرقة لحظات استراحة يقذفه جنديّ بالحجارة من بعيد. خرجتُ من شرودي وتوقفتُ أتابع الشاب ببصري، فاستفزّ ذلك الجنديّ الذي يرافقني ليشدّ السلسة بقوة وهو يبتسم بلؤم. شعرتُ بالألم في رقبتي كوخز خفيف مرّ أثره على وجهي سريعًا. بدا الجنديّ في ضيق من حالتي، جرّب يشتمني، يركلني، يعاود شدّ السلسلة، دون أن يتغيّر شيء. لم أكن قادرًا على

التوجّع. تمنّيتُ لو أستطيع منحه ما يريد؛ أن أصرخ مثلًا أو أبكي، أو أرجوه أن يرحمني. كل ذلك كان فوق طاقتي.

أنزلني الجندي إلى حفرة بدتْ فوهتها واسعة لكنها أخذتْ تضيق كلما أوغلتُ فيها حتى استقررتُ في جوفها وأنا أكاد أزحف. بقيتُ على...».

قاطع الأوروبيّ ديفيد بضيق:

«أعرف كل تفاصيل الوادي الأزرق. لقد حفظتها من فرط ما سمعتها هنا. تجاوز هذه التفاصيل المقرفة إذا لم تكن تحمل شيئًا مختلفًا».

همّ ديفيد أن يدافع عن روايته، أن يقول إنها مختلفة تمامًا. أراد أن يُخبره كيف كسره الوادي الأزرق وهشّم يقينه في كل شيء من حوله، أراد أن يُخبره كيف قضى الليالي وهو يتمنّى الخلاص بالموت. فكّر أن يُخبره أنه يتذكّر الآن بكل بوضوح كيف رأى يوهانس يبتسم بشماتة وهو يمرّ إلى جواره، فيما كان يئنّ من التوجّع دون أن يفهم سبب تلك السعادة.

أراد أن يحكي ويحكي ليفرغ فواجعه على الطاولة، غير أنه اكتفى بكلمة واحدة:

«هذا كل شيء».

تنهّد الأوروبي وهو يلتفتُ إلى مرافقيه. صمت قليلًا وهو يستجمع فكرة في ذهنه قبل أن ينطق:

«حسنًا... لا بدَّ أن أعترف أنك أبرع حكّاء في إنداغابونا كلّه. لم يسبق لي أن استمتعتُ بحكاية مسليّة كل هذا القَدْر. قضيتُ وقتًا

طويلًا وأنا أجترّ بنفاد صبر تلك الحكايات السخيفة التي يتناقلها اللاجئون دون أن يفكّروا ولو لمرة واحدة أن يأتوا بأخرى غيرها، أو يُدخلوا عليها تعديلًا ولو طفيفًا. لكنك شخص مختلف. أحييّ فيك هذه المبادرة، لقد صنعتَ يومي بحكايتك المتفرّدة. لا أعرف حقيقة كيف أكافئك. سأوصي بأن يتم استثناؤك من قرارات الإبعاد إلى إرتريا. ليس هذا وحسب، سأطلب تحسين ظروف إقامتك في المخيّم، سأجعلهم يقدّمون لك طعامًا أفضل، وربما يسكنونك في خيمة قريبة من العيادة، وستكون لك الأولوية في حال احتجتَ أن تتقدّم مرة أخرى لطلب التوطين في بلد ثالث، فمثل حكاياتك لا يمكن تفويتها. لكن إياك أن تُعيد سرد الأحداث نفسها، أريد شيئًا مختلفًا في كل مرة».

مدّ الأوروبيّ بملف ديفيد إليه بعد أن دمغه بختم الرفض الأحمر، وهو يتمنّى له التوفيق في حياته وسط إنداغابونا. لمح ديفيد وهو يغادر ابتسامة سعادة غريبة على وجهَيْ المترجم وموثّق الجلسة. خرج مطأطأ الرأس، فلم يحتج المنتظرون خلفه لسؤاله عن النتيجة. حين بلغ الباب، سمع نداء على الشخص التالي، لتذهب الأعناق باتجاهه وتترك ديفيد وحيدًا.

(23)

مرّ يومان على زيارته للبلدة القديمة، لم يستطع داويتْ خلالها أن يتآلف مع أجواء الضجيج التي تصدر عن محاري وآرون في الغرفة، تارة في تعليقاتهما على حلقة معادة من المصارعة الحرة، وأخرى أثناء لعب الورق بعد أن جلبا شخصين آخرين ليكوّنا فريقًا ضدهما، دون أن يمنعهما ذلك من التلاسن عند كل نقطة تُسجّل للفريق الخصم، وثالثة في المراهنات العبثية على كل شيء مستقبليّ، بدءًا من أحوال الطقس المتوقعة في الغد، ومرورًا بوجبة الغداء التي سيرسلها مكتب التموين للبناية، وليس انتهاء عند ألوان الملابس الداخلية التي سترتديها السيدة الدميمة التي تسكن الغرفة المجاورة، حين تمرّ بهم وقد تعمّدتْ أن تضع عليها ملابس شفافة.

كان يمكن أن يجاريهم تمضية للوقت على الأقل، لولا أنه كان مشغولًا بعازفة العود، يسترجع ملامحها، عزفها، وذلك الحوار القصير الذي أعاد تمثّله عشرات المرات وهو يضيف عليه ويعدّل حتى غدا حكاية لا تنتهي. وفي كل مرة يتوقّف عند نقطة محيّرة ويُعيد الحوار من البداية. لا يعرف سرّ انجذابه السريع لها، قد تكون ملامحها؛ الشعر القصير وتلك النظارة الطبية دائرية العدسات، وقد

تكون حالته التي خرج بها من البلدة القديمة وقد أصبح جاهزًا للتعلّق بأي شيء يلتفتُ إليه، أو ربما وجد فيها موضوعًا مغريًا للاستدعاء في خلواته الكثيرة. لكنه مع هذا ما إن يذهب في اتجاهها بكليّته حتى يجد ما يعرقل اندفاعه. هو لا يعرف كم سيطول الأمر قبل أن يرتدّ عليه حزنًا أو غضبًا. لم يشعر في حياته بدائرة آمنة تجمعه بفتاة. هل سيتراجع إذن؟ لا. لن يفعل بالتأكيد.

خطر له أن يبحث عن لاجئ إفريقي ويقدمه لها، لكن بعد أن يشترط عليه إخبار الفتاة برغبته أن يرافقه داويتْ في كل مرة يلتقيها كي يُشعره بالأمان. بدتْ فكرة مقنعة لكنها ليست مضمونة العواقب، فهو لا يدري إن كانت ستقبل الاشتراط، هذا إذا لم يبعه اللاجئ بعد المرة الأولى. في المقابل ليس من السهل عليه أن يخاطر ويخلع الرداء الذي يتدثّر به مرة واحدة، وهو لا يدري إن كانت صادقة في ضمان السِّريَّة، لكنّ الذي يعرفه على وجه الدقة أنه لا يستطيع مقاومة الرغبة في القرب منها أيًا يكن شكله، والطريق المؤدية إليه.

بدا أنه لم يكن محتارًا بقَدْر ما كان يبحث عن تطمين لروحه القلقة. جازم أنه ينوي الخطو نحوها لكن يتمنى ذلك بأقل قَدْر من الخسائر. حين أتعبه التفكير، وجد نفسه يتساءل، وماذا لو كان الأمر محفوفًا بالأشواك، هل سيتراجع؟ كان جوابه قاطعًا؛ لا. فهو منقاد للقائها بقوة خفيّة لا يملك إزاءها إلا التسليم. أخرج هاتفه النقّال، وضغط على الأزرار بسرعة أدهشته. كان قد حفظ رقمها لفرط ما تأمل البطاقة البيضاء.

أجابه النداء الآلي بصوتها، يُخبره أنها مشغولة الآن، وتطلب منه أن يترك رسالة بعد سماع الصافرة، إذا كان الأمر ضروريًا. هزّ الصوت داخله، شعر به ينساب في عروقه ليصل إلى الأطراف.

أعجبه الأمر. أعاد الاتصال، أعاده أكثر من مرة، وهو يبستم بحبور طفل يُجرّب لعبته الجديدة. لا يعرف عدد المرات التي سمع فيها صوتها ترجوه أن يترك رسالة بعد الصافرة إذا كان الأمر ضروريًا. أحبّ طريقتها في محادثته، كانت كمن يخاطبه وحده، ترجوه وحده. حقنه هذا التهذيب باشتهاء متصاعد. تخيّلها ترجوه أن يأتيها بعنف أكبر، يسندها على الجدار، يُمسك بشعرها القصير، ويخترقها لينتزع تأوهًا مكتومًا. تجسّدتْ الصورة أمامه حتى كادتْ تبتلعه. حمل الهاتف وغادر الغرفة إلى الحمام. أعاد الاتصال، وقد تجهّز ليفرغ احتشاده على وقع صوتها، لكنّ المفاجأة كانت أنها ردتْ من المرة الأولى. تلعثم، ورفع سرواله كأنها تراه، وبجُمَل جهد كثيرًا لتُخفي اضطرابه أخبرها أنه وجد ما تبحث عنه. لم يسمع إجابتها، فهم فقط أنها فرحة، اختصر المكالمة وأغلق السماعة. تعرّق بشدة، وقد هربتْ الرغبة، وحلّ محلها ألم حاد أسفل بطنه.

عند باب العامود، حضر قبل موعده بساعة. جلس على العتبات الصخرية، وقد أدرك كم تبدو متواطئة مع العشّاق. انتبه أنها تصلح كمقاعد تطلّ على مسرح أسطوري يحكي مشاهد غرام، أكثر منها بوابة لأماكن عبادة. تأكد من تأنقه وقد غافل آرون ليلة الأمس، واستعاد قميصه الأزرق المقلّم الذي أهدته إياه سابا.

من بعيد لمحها قادمة. استغلّ خروجه عن دائرة رؤيتها بالتمعّن في مشيتها المتكسّرة. كان الأمر يُشبه عزفها على العود. قدماها تحملان الموهبة نفسها، تعزف على العتبات الصخرية برشاقة أصبح يعرفها تمامًا. أخرجتْ هاتفها، وهي تتلفّت حولها. تركها تتصل به. كان شَرِهًا في احتياجه، لا يودّ تفويت صوتها حتى قبل أن تأتي.

ردّ على الاتصال وهو يتظاهر بالبحث عنها قبل أن يُشير لها وهو

يراقب تسارع خطواتها نحوه. مدّتْ يدها، فاحتضنها بيده. أبدتْ استغرابها لوجوده وحده. انتظرتْ أن يشرح لكنه كان مشغولًا بتأمل وجهها. سألته عن اللاجئ، فتذكّر حينها ما قدمتْ من أجله. هو يعرف ما جاء من أجله فقط. انتظرها حتى تجلس إلى جواره. افتقد العود، افتقد قميصها الأبيض وقد استبدلته بأزرق غامق لا يُظهر صدريتها. تمنّى لو يسألها عن العود والقميص. كان يبحث عن الصورة الكاملة في ذهنه للقاء الذي انتظره.

«وجدتُ لاجئًا مناسبًا تمامًا، لكنه يريد فقط أن يتأكد للمرة الأخيرة أنه سيكون بمأمن معك».

منحته تطمينًا جادًا، وقد احتدّتْ عيناها. عرف أنها طريقتها في بذل الاهتمام. اعتدل في جلسته، سحب هواء ملأ به صدره، ونطق:

«أنا... أنا ذلك اللاجئ الإفريقي المناسب».

بدا عليها الضيق، وهي تُعيد عليه أنها تبحث عن لاجئ، وليس مهاجرًا من يهود الفلاشا».

بدأ يحكي لها أنه إرتريّ، وأنه اضطر للتظاهر بكونه من اليهود الفلاشا، حتى ينجو مما هرب منه. لم يكن ينوي أن يحكي لها كل شيء، لكنه أُخذ بقسمات وجهها وهي تتلقّى كلماته. أسهب في الحكايات، شعر بالزهو وهو يستأثر بوجهها كله. الأعين المحتدة، والشفاه المزمومة، والحواجب التي تتحرك ارتفاعًا وانخفاضًا مع كل حكاية، واليد التي تتحرك بتلقائية لتندسّ وسط شعرها المتموّج وتعيده إلى الوراء.

حين انتهى، شهقتْ مندهشة:

«هذا ما أريده بالضبط... أنت هبة الله التي لا تفيها كل الصلوات».

ابتسم بحبور طفوليّ. خطر له أن يذهب بعيدًا، أن يُدخل على قصته ما يزيدها إثارة. أحبّ كيف أصبح يملكها بصوته. لكنه قبل أن يبدأ وجدها تنطلق في الحديث:

«اسمع. سنبدأ فورًا. بحثي يتعلّق بتأثير معاناة اللاجئين في مجتمعات لا تتقبّلهم بسهولة على حياتهم الجنسية، ولن أجد أفضل منك لأختبر كل فرضيات علم النفس. أنا واثقة أن ورقتي ستكون حديث الكلية كلّها».

أخرجته كلماتها من استرخائه، وأوقعته في حفرة جديدة. أية حياة جنسية تبحث عنها عنده؟ عن ماذا ستسأله، وكيف سيجيب؟

شعرتْ بارتباكه، فعاودتْ تطمينه أنها وحدها من يعرف هويته. زادتْ أنّ البحث يشترط ذلك. لم تستجب ملامحه القلقة لمحاولاتها من المرة الأولى. احتاج بعض الوقت ليزيل عن داخله رهبة الموضوع. بدا غريبًا كيف يتقلّب في استيهاماته الجنسية كلما خلا بنفسه، بينما يصبح عسيرًا عليه مجرد التفكير في أنه سيبوح لها بذلك.

«حسنًا... موافق».

نطق بها بصعوبة. سيجد حلًا بكل تأكيد. المهم أن يبقى إلى جوارها، يتحدث معها، ويسمع صوتها، وما عدا ذلك تفاصيل صغيرة. هكذا تحايل على نفسه، وهكذا قبلتْ نفسُه هذا التحايل المفضوح. تَوَاطُؤٌ لم يكن ليحدث غيره، وللفتاة هذا التأثير غير المفهوم عليه.

«لننطلق إلى البيت إذن، تشرب قهوتي ونتحدث».

مضى معها إلى حيث أوقفتْ سيارتها، وهو يحاول أن يُخفي أثر دعوتها على نفسه. كان يتمنى مجرد رفقتها، وها هو يسير معها إلى

بيتها ليتحدثا عن حياته الجنسية. تمنى أن يكون الموضوع كلّه حيلة منها كي تنال منه، أو ينال منها بالأحرى.

طوال الطريق إلى السيارة، كانت تعتذر له لاضطرارها الوقوف بعيدًا، فيما كان ينتبه لنفسه وقد تجاوزها، فيعود ويُبطئ من خطاه ليمشي بمحاذاتها. بدأتْ تحكي له عن دراستها لعلم النفس في الجامعة العبرية، فيما كان مشغولًا بلذة المشي إلى جانبها، يتطلّع إلى المارة، إلى أعينهم، ليرى أثر هذه الرفقة فيها، وقد استأثر بها. كثرتْ الأعين من حوله، التواء الأعناق تجاههما، بعض الهمس غير المسموع. بدأ يشعر بعدم الارتياح، وقد جلب من الاهتمام أكثر مما يحتاج. لم ينقذه من ذلك سوى وصولهما إلى سيارتها الستروين الزرقاء، والانطلاق شمالًا نحو حيّ الشيخ جرّاح.

لم تكن المسافة بعيدة بين البلدة القديمة ومنزل سارة. حين مرّا بمحاذاة بناء ممتد، أشارتْ إلى جامعتها، وانحرفتْ يسارًا إلى شوارع جانبية أخذت تزداد ضيقًا، إلى أن وصلتْ إلى شارع أخذهما صعودًا لينتهي على تلّة، حيث أوقفت السيارة. طاف داويتْ بعينه في المكان الذي يطلّ على أجزاء واسعة من الحيّ. سألها عن التفاوت الواضح في البنايات.

«هذا حيّ عربي قديم لكنه محاط بمنشآت إسرائيلية، الجامعة العبرية في شرقه كما رأيت، وتلك في الشمال هي مستوطنة رامات إشكول، ولولا جبل المشارف من الشمال لحوصر الحيّ أكثر وأكثر. لعلّك لاحظتَ براميل المياه السوداء على الأسطح. هذه لن تجدها إلا فوق بيوت الفلسطينيين لشحّ الماء الذي يصلهم على خلاف بيوت اليهود».

رنّ هاتفها. أجابتْ وهي تُشير إلى داويتْ أن يتبعها. على باب البيت الأبيض القديم مسحتْ على قطة صغيرة، وهي تبحث عن المفتاح، وتعتذر لمحدثها عن المجيء لانشغالها ببحثها الدراسي. أنهتْ المكالمة مع دخولهما، وهي تردد «حبيبي... حبيبي». تبعتهما القطة، قبل أن تتحرك في المكان بألفة.

بدا البيت من الداخل مغايرًا. صالة واسعة بجدران بيضاء سميكة وحوافّ زرقاء. نوافذ غائرة في الجدار. لوحات وخرائط لفلسطين وصور موزعة بازدحام مقصود. جلس داويتْ على أريكة مطرَّزة بالأحمر والأسود، وأمامه طاولة عتيقة بأرجل على هيئة وجوه شائخة، بينما دخلتْ سارة إلى المطبخ وهي تسأله عن قهوته. على الأريكة المقابلة كان يتمدّد العود مرتديا حلته الجلدية. جاءه صوتها من الداخل وهي تُدندن لحنًا لم يتبيّن كلماته. نهض من مكانه إلى دولاب بواجهة زجاجية ممتلئ بتذكارات ومنحوتات خشبية. سألته إن كان يُحبّ أن يتناول قهوته في مكانه أو عندها. عبر الممر الضيّق الذي يفصل الصالة عن المطبخ وغرفة النوم. جلس إلى طاولة دائرية صغيرة. بدا المطبخ فوضويًّا ومحتشدًا بالأواني. جلستْ قبالته بعد أن مدّتْ له بقهوته المرّة. عاوده الارتباك، وقد أحسّ ببدء المهمة التي يتفاداها، لكنها، وخلاف توقعه، أخذتْ تتكلّم عن أمور أخرى. حدثته عن بيتها الذي تسكنه وحدها، وقد استأجرته من مغترب يخشى أن يفقده إذا تركه مغلقًا. حكتْ له عن الحيّ الذي تتآكل أطرافه المستوطنات التي يراد لها أن تربط بين شرق المدينة وغربها. كان كلما انسجم مع حديثها يُعيده الخوف من أن تكون جملتها التالية مفتتحًا لبحثها.

حين أنهيا القهوة، انتقلا إلى الصالة مجددًا. هنا، وكأنها شعرتْ باضطرابه، خلعتْ عن العود غطاءه الجلديّ، وكأنها تخلع معه تلك الجدية المؤقتة. سألته إن كان يحبّ أن يستمع إلى عزفها. بدأتْ تضبط أوتار العود وهي تحتضنه بحنوّ ملفتْ. رفعتْ رأسها فجأة لتسأله:

«بالمناسبة... بأيّ أسمائك تودّ أن أناديك؟»

حار في السؤال. هل يقول لها داود، مع كل ما يحمله هذا الاسم الهرم من هزائم وخسارات؟ أم يختار ديفيد، وهو أصغر سنًا دون أن تقلّ تجاربه المريرة؟ أم تراه يستقرّ على داويت الرضيع، وهو لا يعرف على وجه الدقة إن كان يحمل فرقًا عن سابقيه. لم يستطع أن يخلع عن الاسم حمولاته. كل واحد منها كان ثقلًا يجرّه خلفه كخزانة من الذكريات لم يفتها كرب إلا وقد احتفظتْ به. لا يعرف إن كان هو مَن منح الاسم شكله وملامحه البائسة أم العكس. الذي يعرفه أنَّ أسماءه الكثيرة كانت تشبهه، تليق به، وبحياته المبتورة. هذه الأسماء التي جاء بها لتنقذه، استحالتْ عبئًا عليه. خطر له أنه لو استمرّ في التنقّل بين كل الأسماء، لن يُغيّر ذلك من مصيره. هنا شعر بالتسامح قليلًا معها، فالنحس ملازم لقدره، وما الأسماء إلا أسمال لا يمكنها أن تحجب مصائره. خرج من حيرته أنْ ترك لها مناداته كما تشاء.

«حسنًا... سأتنقل بينها، إلى أن نستقرّ معًا على اسم واحد».

بدأت تعزف. أخذ داويتْ يسترخي ويستسلم للأنغام وهو يتبع حركة أصابعها. يُنقّل بصره بين العود ووجهها. لا يعرف إن كانت تعزف بالأصابع، أم بهذه الملامح التي تتفاعل مع كل جملة لحنية.

بدا أن أصابعها تنقاد للعين المحتدة تارة، وللشفاه المزمومة تارة أخرى، أو ربما لخصلات الشعر التي تتبع اهتزاز الرأس كراقصة متماهية في كل حركة مع الموسيقى.

حين انتهتْ رفعتْ رأسها، وهي تبتسم بخجل. سألها عن سرّ إتقانها البديع للعزف. تحدّثتْ طويلًا كيف نشأت في بيت موسيقيّ، وكيف سقاها والدها الموسيقار هذا العشق قبل أن يرحل باكرًا، فغدتْ الموسيقى رابطتها الأبدية به، وكيف أنها لم تشأ أن تحترف الموسيقى، لأنها تعرف كيف تستهلك الواحد وتأخذه عن محبيه. أرادتْ أن تبقى على هامش هذا العشق، بحيث تصطلي منه بالقَدْر غير المؤذي. هذه المسافة تحفظ لها القرار، تتقدّم متى تشاء وتُحجم متى تشاء. أخبرته أنّ الموسيقى أنانية، لا تقبل بالشركاء، حين تتمكّن منّا، تُزيح خصومها من قلوبنا واحدًا تلو الآخر.

بدأ يتعرّف على طريقتها في الكلام، وعلى نظرتها للأمور. يُحبّ هذه الحكمة المختفية تحت جمالها بتواضع غريب. لو كان محلّها لاستعرض مهارته الكلامية على الملأ، لأخبر الجميع كيف يُحسن توصيف الأمور وصبغها برؤى شخصية ملفتة. لهذا ربما لن يكون مثلها. هكذا انكفأ على نفسه بغيظ.

«ما رأيكِ أن نبدأ؟»

هكذا فجأة قرّر التقدم نحو ما يخشاه. هل هو الاسترخاء الذي بثّته الموسيقى في نفسه، أم تراها تلك الكلمات الواثقة التي خرجتْ من فم سارة؟ أم عدم استعجالها في نيل ما تشاء، حتى أحسّ أنها صديقة قريبة، وأنه ليس مجرد غرض في طريقها.

جلبتْ سارة أوراقها الصفراء المخططة وجهاز تسجيل صغير وضعته أمامها على الطاولة.

«حسنًا لنتفق على التالي قبل أن نبدأ؛ أريدك أن توقّع على هذا الإقرار بالموافقة على الاشتراك في البحث. هنا كما ترى فقرة تقول إنك استجبتَ لإعلان قرأته يبحث عن متطوّعين. هذا أمر روتيني فقط ضع علامة الإيجاب أمامه. وهناك أمر أخير، لا أود أن يعرف أحد أنّ المقابلة جرتْ في بيتي. هل هذا مفهوم؟»

هزّ داويتْ رأسه، فضغطتْ سارة فورًا على جهاز التسجيل وظلّتْ تنتظره. لم يعرف كيف يبدأ. سألها، فأخبرته أن يحكي أي شيء عن نفسه ابتداء، وحين لاحظتْ حيرته، اختارتْ أن تكون أكثر تحديدًا:

«لنقل مثلًا: ماذا يعني لك الحب؟»

همّ بالكلام، لكنه أحس بثقل السؤال. ماذا يقول؟ كيف يصف شيئًا يعرفه إلى هذه الدرجة لكنه عصيّ على التجسّد؟ لكنه قرّر الخوض في التجربة وقد بدأ يشعر بإثارة غامضة:

«حسنًا... لا أدري ما هي الإجابة المناسبة، لكني سأقول ما يرد بخاطري وعليكِ أن تستوقفيني إذا كان جوابي بعيدًا عن السؤال.

لم يغب هذا الشعور عن نفسي لحظة. أفكّر فيه دائمًا، أبحث عنه في كل العيون التي ألتقيها. غالبًا ما أعود خائبًا من رحلة البحث هذه، أنكسر قليلًا، ألعن حظي العاثر، لكنّ الغريب أني لم أفقد الأمل يومًا. أعرفه تمامًا؛ ملامحه وطعمه وحتى صفاته السيئة. كان قريبًا بحيث لو مددتُ يدي لأمسكته، وبعيدًا بحيث يستهلكني العمر كله كي أصل إليه.

كنتُ كثيرًا ما أسأل نفسي عما ينقصها لتجد هذا الحب. أدرك بعض الأمور، أغيّر في نفسي دون أنْ يتغيّر شيء. في النهاية اهتديتُ إلى متعتي الخاصة...».

صمتَ قليلًا، كأنّه ندم على اعترافه الأخير.

«بإمكانكَ تجاوز هذه النقطة إذا أردتَ».

تنحنح وهو يزن تعليقها قبل أن يقرر مواصلة الحديث:

«لمّا استعصى عليّ أن أجد من تقبل بي، كنت أنتقم بطريقتي. كل فتاة تعجبني أجلبها إلى مخبئي، أعرّيها، وأستلذّ بإخضاعها لرغباتي. مع الوقت أصبح هذا الأمر أكثر إمتاعًا مما لو كان حقيقة، وأقل كلفة مما لو حدث بالفعل. كل ما يتطلبه الأمر نظرة خاطفة لوجه جميل، أو مؤخرة بارزة، أو شفاه مكتنزة،... أو... أو صدر نافر، لأكمل الأمر في مخيلتي. فعلتُ هذا مع كثيرات؛ مجندات، طالبات، نادلات، وسائقات حافلات.

لا أدري لِمَ كنتُ أتلذَّذ أكثر كلما كانت بعيدة المنال، أو سيئة التعامل معي، أو مغرورة. بدأ الأمر مع الجميلات، ثم اتسعتْ الدائرة لتشمل القبيحات والمسنات. كثيرًا ما خطر لي أنهنّ لو علمن بما يحدث لهنّ معي لأحببنه. أنا متأكد من ذلك، فقد كان الأمر ينتهي بشكل يفوق الأمنيات».

كانت سارة منكفئة على أوراقها الصفراء، تُسجّل ملاحظاتها، وتضع دوائر وأشكالًا هندسية، وأسهمًا، بينما يستوقف ذلك داويتْ ليلقي عليه نظرة خاطفة ثم يعاود الكلام:

«سيحببن ذلك لأنهنّ معي يكنّ في أجمل حال. يقتربن من

الكمال. في حضرتي يُصبحن أميرات، وهو أمر لا يحدث لهنّ في حياتهنّ الحقيقية».

رفعتْ سارة رأسها فجأة، وباغتته بسؤال:

«هل حدث هذا معي؟»

تلعثم قليلًا، وهو ينظر في عينيها، في يدها الممسكة بقلم الرصاص، في شفتيها، في شعرها القصير الفاحم، في نظارتها دائرية العدسات، قبل أن ينفي بشكل قاطع. رسمتْ ابتسامة غامضة لم يعرف معها إن كان الجواب قد جاء على مرادها أم لا، قبل أن تسأله:

«هل يُشبهنَ بعضهن؟ أقصد هل يصبحن معك على هيئة واحدة؟»

كانت هذه أول مرة ينتبه فيها لهذا الأمر. جميعهنّ كنّ بشعر قصير، بنظارة طبية دائرية العدسات، ومؤخرة بارزة، والأهم، أنهنّ كنّ يمتلكنَ صدرًا نافرًا. هذا الأخير الذي يُدوّخه من الجولة الأولى.

كاد ينطق، لكنه انتبه أنه لو فعل لقام بوصفها تمامًا. لذا آثر أن يُموّه إجابته:

«يحدث ذلك أحيانًا لكنه ربما يكون خاضعًا لمزاجي وقتها. ألا تشعرين أنهنّ لو كنّ على هيئة واحدة سيثير ذلك ضجري، ويقلّص متعتي. العالَم أوسع من شكل واحد ننام ونصحو عليه».

على خلاف مقصده، أطالتْ سارة في كتابة ملاحظاتها على الورقة. كانت تكتب وتحيط كلمات بعينها بالدوائر. تمنّى لو يستطيع من مكانه أن يرى ما كتبتْ، لكنها كانت تجلس قريبة بما يكفي ليسمعها بوضوح، وبعيدة، بحيث لا يمكنه أن يقرأ كلماتها. حين توقفتْ، نظرتْ في السقف، قبل أن تعود إليه بسؤال جديد:

«وماذا عن الأسماء؟ أفترض أنه لم يكن ليتاح لكَ أن تعرف أسماءهنّ... هل كنتَ تمنح عشيقاتك أسماء، أم تكتفي بالأجساد؟»

«لم أفكّر في الأمر من قبل. لم يكن الأمر يقتصر على الجسد. كنّا نتحدث قبله وأحيانًا بعده. هناك لذة كبيرة في أن يبدو الأمر عسيرًا في البداية قبل أن أنال غايتي، لذا يحدث أن أطلق عليهنّ أسماء أثناء الكلام، لكني لا أتذكّرها بعد ذلك».

«هل حدث أن التقيتَ مجددًا بمن عشتَ معها هذه الحالة؟ أقصد كيف تشعر تجاهها حينها؟»

«في البداية أحاول تجنبّها، ثم يخطر لي أنها مَن يجب أن تفعل ذلك، فأنظر في عينيها مباشرة بثقة كبيرة، أتأمل بجرأة جسدها الذي بتُّ أعرفه تمامًا. لا أعود حينها راغبًا فيها ولا منشغلًا باهتمامها. أقرأ اندهاشًا في وجهها، وأتركها على هذه الحال. ثمَّةَ انتصار يضاعف متعتي في هذه التفاصيل، وأود أن يبقى كآخر ما أتذكره».

أخذتْ سارة تعبث بالقلم الرصاص في يدها، وهي تُمرّر بصرها على ما خطّته بشكل سريع، قبل أن تعود إلى داويتْ، وقد تذكّرتْ شيئًا:

«لنعد قليلًا إلى الوراء... سألتك عن الحبّ، لكنّ حديثك أغلبه كان الجنس. ألا يبدو ذلك غريبًا؟ أقصد لماذا لم تكتفِ في خيالاتك بالحصول على الفتاة كمحبوبة، وقد بدأ الأمر على هذا النحو كما تقول؟»

أُخذ داويتْ بالسؤال، شعر بالمباغتة، وهو يبحث عن إجابة تُخرجه من هذا المأزق. شعر لوهلة كأنه يجلس في الكرسيّ المقابل،

في كرسيّها، وينظر إلى نفسه وقد انفصل عنها، ليعرف لمَ رأتْ الأمر على هذا النحو.

طال صمته، قبل أن يقذف بكلمة واحدة:

«لا أعرف. لا أعرف».

«حسنًا... لنقل الأمر بطريقة مختلفة... لو وجدتَ حبّك في الحياة، هل ستفعل معها كل ما أملته عليك تلك الخيالات؟»

«لا. لا بكل تأكيد».

لم يسمع تعليق سارة بعد ذلك. تردّد صدى نفيه القاطع في داخله حتى بدأ في التلاشي، ليجد السؤال منتصبًا أمامه. هو لا يعرف ما إذا كان يقود تلك الخيالات أم تقوده، لا يعرف ما إذا كانت كل تلك التفاصيل هي طريقته في الحب، أم في الانتقام، لا يعرف ما إذا كان يريد أن يُحبّ لينتقم من الأساس. حين لاحظتْ سارة شروده وضعتْ أوراقها الصفر جانبًا. أطفأتْ جهاز التسجيل، وقامتْ لتعدّ له كوبًا جديدًا.

استرجع سريعًا ما نطق به. أكثر ما يُحيّره هو وجهها المحايد تجاه كلامه. باستثناء خربشاتها على الورق، لم يكن يصدر عنها أي انطباع. لا يعرف إن أحبّتْ ما قاله، أم كرهته. كانت تبتلع كلماته حسب. شعر أنه يمضي إلى وجهة مجهولة. اعتاد أن يَحرف كلامه سريعًا وفق ما يقرؤه في وجه مستمعه، وهي تحجب عنه تمامًا هذه الموهبة. لا يريد لاعترافاته في نهاية الأمر أن تحيد عن مقصدها، أن تكرهه الفتاة أو تحتقره.

عادتْ بكوبَيْ قهوة، وهي تسأله إن كان يودّ المواصلة أم التوقف للراحة.

«نواصل».

نطق بها وقد بلغتْ اللعبة ذروتها. يمنح الخوف الأشياء إثارة غريبة. نتجنّبه لكنّه في الوقت نفسه يشعرنا بلذة أن نخاطر، أن نقترب من حافة الأشياء، من حدّها المهلك. ثمَّةَ متعة في البقاء قريبًا من مكامن الخطر لكن شريطة أن ينبض الأمل داخلنا دومًا بإمكانية النجاة، وهذا ما يحدث مع داويتْ الآن.

«متى سمعتَ كلمة قضيب، أو جنس، أول مرة، وبمَ شعرت حينها؟»

ارتفع منسوب الخطر، شعر أنه بالغ في التقدّم بحيث خفت لديه أمل النجاة. شعر باللذة تتلاشى رغم أنّ هذا بالذات هو مقصده آخر المطاف. فكّر أن يُعيد عليها الحكاية التي اختلقها أمام المرشدة النفسية في تل أبيب، عن أمه وجاراتها، لكنه عدل عن ذلك وقد شعر بسذاجة الحكاية حين تُلاك لأغراض شتى. أراد أن يُخبرها عن الجبهة التي يمرّ فيها الوقت الفائض عن القتال في الحديث عن الجنس، عن المجندات اللاتي يقاتلن بمؤخراتهن، عن الجنود الذين يعوّضون خسارة المعركة نهارًا بانتصارات ليلية رخيصة. لكنّه عِوَض كل ذلك لجأ إلى منقذه الدائم، إلى الذاكرة التي ينتقي منها ما يشاء:

«لا أذكر حقيقة. يبدو الأمر وقد جاء معي، لكن متى بالضبط، لا أدري».

أحبطها الجواب قليلًا فطلبتْ هذه المرة التوقف دون أن تستشيره. استغلّ ذلك ليقترح عليها أن تعزف له اللحن نفسه الذي

سمعه أول مرة في محل الموسيقى. حملتْ العود بحماسة أقلّ، وهي تحاول التذكّر، قبل أن تشرع في العزف، بينما ذهب داويتْ بعيدًا في استيهاماته؛ أسندها على الجدار، شدّ شعرها القصير، أمرها بتثبيت نظارتها دائرية العدسات، وهو يتلذّذ بسماع تأوهها المكتوم.

(24)

كان يوهانس في انتظاره، والقلق يأكله.

«ها... طمنّي... كيف جرتْ المقابلة؟ لماذا تأخرتَ كل هذا الوقت؟ أخبرني، هل أفادتك حكايتي؟»

حاول ديفيد التماسك. تمنّى لو يستطيع أن يحكي له عن الخيبة التي تجرّعها في الداخل، عن إحساسه الكبير بالاقتراب ليجد جدارًا ضخمًا في وجهه آخر المطاف. عن الحكاية التي أخرجها من أعماقه، دون أن يمنعه ذلك من أن يضيف أو ينقص منها. عن ذاته المثلى كما يُحبّ أن تكون، عن عائشة التي حضرتْ كما كانت؛ خجولة صادقة ونقية. وحضرتْ كما أراد؛ قوية متشبثة بقصتهما. وحضرتْ كما أراد الأوروبي؛ جريئة متهتّكة قريبة المنال. عائشة التي تشكّلتْ صورتها في ذهنه من كل ذلك، حتى لم يعد يعرف على وجه الدقة، أي جزء في حكايتهما حدث فعلًا، وأي جانب تسلّل إليها خيالًا ورغبة أو محض خوف وتحرّز. هو لا يعرف إن كانت ستغضب مما فعل.

هو الآن لا يعرف إن كانت حقيقية بما يكفي لتغضب منه، أو زائفة تمامًا ليأسى على نفسه أن أذاقها كل هذا الرهق وهي لديها منه ما يفيض عن الحاجة.

هو الآن يشعر بويل الحكاية حين يتقمصها الراوي بحيث تختفي أبعادها، تذوب وتتلاشى في ذاته حتى لا يعود يعرف تمامًا إن كانت شيئًا أصيلًا منه أم جسدًا طارئًا حلّ فجأة وغادر بالحال نفسها.

عائشة... يشعر بصدق هذا الاسم، بتفاصيله، بالهالة التي تحيط به. لكنه لا يعرف إن كان كل ذلك حقيقيًا أم محض استيهام غادر منطقته الآمنة حيث الجنس إلى مرقى صعب ومؤذٍ كاد يُهلكه، هو الحب.

كان يودّ لو يقول كل ذلك ليوهانس، لكنه يرى في وجه صاحبه الآن كل الشرور. تذكّر كيف أقنعه بحكاية مستهلكة سبق له التقدّم بها دون أن يخرج بنتيجة. تذكّر وجهه الشامت في الوادي الأزرق. أراد أن يلكمه ليفرغ بعض غيظه، لكنه عوض ذلك هزّ رأسه بأسى:

«لقد نسيتُ تفاصيل هامّة أخبرتني بها. لولا ذلك لحصلتُ على قرار التوطين. إنها غلطتي».

بدا الاستغراب على وجه يوهانس، قبل أن يرسم على وجهه ملامح حزينة ويبدأ في مواساة صاحبه بمشاعر مفتعلة.

كان ديفيد -على فراشه- يُحدّق في سقف الخيمة، وهو يتجاهل إلحاح رفيقه ليقصّ عليه ما جرى بإسهاب. وعده أن يفعل حالما يتجاوز إرهاقه. كان ذهنه محتشدًا بأفكار متضاربة؛ هل سيقضي بقية عمره في إنداغابونا؟ وماذا في ذلك، طالما أنه آمن ويأكل وينام؟ لكن ماذا لو لم يفِ الأوروبي بوعده وقرّر إعادته إلى إرتريا؟ غامتْ الأمور من حوله. انعدمتْ الخيارات، لا يملك إلا انتظار أقداره لتقوده حيث شاءتْ.

«سأخبرك بسرّ إذا وعدتني أن تحتفظ به».

لم يعرْ كلام يوهانس أي اعتبار. لم يلتفت له حتى. كان لا يزال يعوم في أفكاره.

«سأخرج من إنداغابونا قريبًا. سألحق بآخر فوج ليهود الفلاشا يتم نقله إلى إسرائيل».

مال ديفيد برأسه ناحية صاحبه، وقد اتسعتْ حدقتا عينيه. شعر يوهانس بالأهمية، فبدأ يتكلّم ببطء مستفز:

«وجدتُ مهرّبًا سينقلني إلى غوندار، وهناك يتم تسجيليّ كيهوديّ مقابل عشرة آلاف بر. كنتُ أتمنى لو نغادر سويًا، لكني أعرف أنك لا تملك هذا المبلغ الآن».

لم ينم ديفيد ليلته، وهو يقلّب الأمر في رأسه. لا يعرف لمَ بدا الأمر كأنّه مرسل إليه بالذات. أحسّ أنَّ طريقًا انفتحتْ أمامه كي يُجرّب النجاة من المخيم. لكنه في المقابل لا يملك شيئًا من هذا المبلغ الضخم، ولا يعرف طريقة لتحصيله. خطرتْ بباله فكرة، فأيقظ يوهانس فورًا:

«اسمع لديّ فكرة، ما رأيك أن تستغني عن المهرّب ونذهب إلى غوندار سويًا، بينما أحاول هناك أن أقنعهم بقبولي بأي طريقة».

قبل أن يذهب في النوم، مال يوهانس على الجهة الأخرى، وهو يُخبر ديفيد أنه لا يستطيع الاستغناء عن المهرّب في طريق وعرة وغير آمنة كهذه.

تكرّرتْ محاولات ديفيد في الأيام التالية؛ كلما طرأتْ له فكرة سارع إلى عرضها على يوهانس وهو يرجو أن يقبلها. لكنّ صاحبه كان يرفض وكما كل مرة، بلا مبالاة يستلذّ بها.

عشيّة مغادرة يوهانس، كان ديفيد قد يئس تمامًا، وبدأ في معاونة رفيقه على تجهيز أموره. عرف كل التفاصيل، اسم المهرّب، ومكان لقائه، وخط المسير. عرف أشياء عن غوندار وناسه. وقبل موعد المغادرة، كان ديفيد في طريقه إلى غوندار ومعه المال الذي سرقه من يوهانس بعد أن ضربه بعصا وجهد أمام جسده الضخم ليطرحه أرضًا. شعر بقوة مضاعفة تقوده ليتجاوز بنيته النحيلة، ويربط صاحبه إلى الشجرة التي كان يخبئ تحتها كنزه.

طوال الطريق كان يزوره الندم على فعلته، لكنه سرعان ما يحشد شرور يوهانس أمامه فيخفّ شعوره، قبل أن يتلاشى حين يحدّث نفسه عن اضطراره؛ إما النجاة، أو العودة إلى جحيمه في إرتريا. بدتْ طريقة ملائمة، أخذ يلجأ لها كلما عاوده الإحساس نفسه.

بدا له أن الذهاب دون دليل يعرف الطريق مجازفة خطرة، لكنه أراد أن يستأثر بكل برّ يملكه لتسجيل اسمه في غوندار. خطر له أن المهرّب لن يكون معنيًا بمن سيقوم بتهريبه بقَدْر رغبته في المال، وأنه سيقبل بديفيد عوض صاحبه، لكنه تذكّر كيف كان يوهانس يتحدث عن المهرّب كأنّه يعرفه. كانت تلك طريقته في الادعاء، لكن قد يكون صادقًا هذه المرة. استقرّ على أن يمضي وحيدًا. كان لا يكفّ يطمئن على موضع ماله في سرواله الداخلي. يُمرّر يده فيشعر بالدفء وقرب تحقيق نجاته.

استفاد كثيرًا من الرعاة الذين التقاهم في طريقه، وصوّبوا له وجهته حتى عرف من آخر راعٍ سأله أنه على مشارف المدينة. شعر بالفرح وبنشوة لم يعرفها. لكنّ شعوره بالانتشاء سرعان ما تبخّر بعد

وقت قليل إذ وقع في يد قطّاع طريق أفرغوه من كل ما لديه وهم يمنّون عليه أن أبقوا على حياته.

عاد كما كان، معدمًا، غير أنه على خلاف كل ما مضى، أصبح قريبًا للغاية من غوندار؛ من حلم النجاة.

(25)

أمطره محاري وآرون بالأسئلة بمجرد رؤيته.

بدا غريبًا أن يغيب لساعات عن بيسغات زئيف وهو حديث عهد بالقدس. لم يكن هذا السبب الوحيد، فقد عاد شاردًا، لا يُعرف ما إذا كان مبتهجًا أم حزينًا. هو أيضًا لم يكن على دراية بشعوره الحقيقي. كان مزيجًا من هذا وذاك. طوال الطريق إلى المستوطنة كان ينتظر أن يخلو بنفسه، بعد أن وجد الحافلة 44 عامرة بالصخب والأحاديث الضاحكة للعائدين من البلدة القديمة. خاب ظنه حين وجد رفيقيه في انتظاره يكاد الفضول يقتلهما. لم يكن قد أدرك بعد أن مجرد مشاركة الغرفة معهما تعني أحقيتهما في معرفة كل شيء. تهرّب قَدْر استطاعته، لكنه في النهاية اضطر للخضوع وإسماعهما حكايات أساسها حقيقي، لكنّ التفاصيل مختلقة بالكامل.

حكى لهم كيف عاد إلى البلدة القديمة وقد أراد أن يزور الأماكن المقدسة وحده ويقضي فيها أطول وقت دون تحكّم من المرشدة. أخبرهم أنه لم يتجاوز باب العامود حتى استوقفه جنديّ ليسأله عن أوراقه الثبوتية التي نسيها في الشقة، وكيف أنه تعرض للاحتجاز ساعات طويلة، ولولا لغته العبرية الجيدة ووصفه الدقيق لسكنه في

بيسغات زئيف لتعسّرتْ أموره أكثر. كان محاري وآرون يستمعان باهتمام كبير، يسألان عن التفاصيل، يوقفان سرده المسترسل للاستزادة من تفاصيل هامشية، وكان في كل مرة يتورط أكثر في تشييد قصته بكثير من الإضافات غير الضرورية. لا يحب هذه الطريقة عادة، فهي لا تجعله مالك الحكاية وسيدها، بل تذهب به ليكون مُلكًا لمن يستمع له، والحكاية لعبة خطرة قد تفلت من أيدينا في ذروة ما نعتقد أننا نملكها. ومع هذا فقد شعر أنّه أمام اختبار جيد لِمَلَكَتِهِ في الحكي، في الاختلاق بالأحرى. وما الحكي إلا اختلاق، عدا ذلك هو محض تقليد رديء لساعي البريد. بدأ يتحدى نفسه، ويستجيب لكل انعطافة تأخذه الأسئلة لها. غادر تململه وانغمس تمامًا في اللعبة المفروضة عليه حتى بدتْ لعبته الأثيرة.

حين انتهى كان قد استُنزف وبدأ ينتظر أن يُترك وحده، غير أنّ آرون خيّب رغبته حين بدأ يعاتبه على أخذ قميصه الأزرق المقلّم. بدا جادًا وهو يقرّع داويتْ على عدم استئذانه، فلم يملك إزاء ذلك إلا أن اعتذر مرات ومرات وهو يتعهد بألا يعود إلى ذلك البتةَ.

لم ينجُ من هذا الحصار إلا حين تظاهر بالنوم، وغاص في استرجاع ما حدث في منزل سارة حين انتهتْ من المعزوفة التي طلبها واستدعتْ استيهامه اللذيذ. لم ينتبه إلا وقد وضعتْ العود جانبًا وهي ترصد ردة فعله. بصعوبة خرج من حالته الداخلية ليعرب لها عن إعجابه بما سمع. ضمّ قدميه كي لا يُفصح جسده عن المسافة التي قطعها في خيالاته.

عادتْ إلى أوراقها الصفراء، خطّتْ بضع كلمات حتى ظنّ داويتْ أنها وجدتْ شيئًا في إعجابه بموسيقاها، قبل أن يرتعب لفكرة أن

تكون قد انتبهتْ لما ذهب إليه بالفعل. لم يخرج من حيرته إلا حين بادرتْ بسؤاله:

«قبل أن تهتدي لحيلتك الأخيرة، عمّ كنتَ تبحث بالضبط، هل كنتَ تريد أن تحبّ أم أن تكون محبوبًا؟»

لم يسبق لداويتْ أن انتبه لرغبته بهذه الدقة. فكّر قليلًا لكنه لم يستطع أن يفك الارتباط بين الأمرين، وعوض أن يُجيب سألها:

«وما الفرق؟ أعتقد أنّ الأمر واحد، أن تحبّ يعني أن تكون محبوبًا... أليس كذلك؟»

أطفأتْ سارة جهاز التسجيل فعرف داويتْ أنها بصدد خرق قوانين بحثها بالتحدث على الأقل:

«ليس دائمًا... أحيانًا نبحث عن كوننا محبوبين أكثر من أي شيء آخر، ولهذا قد نبحث عن الحب فقط لنحصل على هذه النعمة. بل دعني أذهب أبعد لأخبرك أننا قد نظنّ أننا نفيض بالمحبة على الغير بينما لا يتعدى الأمر أن نكون مجرد مستقبلين. بداية التفريق بين الأمرين تضبط طريقتنا الفوضوية في الحب، وتدلنا على ما نريده بالضبط».

استقرّ الكلام في رأسه، بعثر أفكاره، عاد يحفر في شعوره، في مبتغاه الحقيقي. لم يكن الأمر سهلًا. جَهُد يبحث عن الخيط الفاصل بين الأمرين دون جدوى. حين أدركتْ عجزه حاولتْ مساعدته، لكنها هذه المرة بعد أن ضغطتْ على جهاز التسجيل:

«حاوِل أن تتخيّل معي، لو أعجبتك فتاة، وعبّرتَ لها عن شعورك بأي طريقة، هل كنت ستقنع بمجرد الإفصاح عن ذلك أم يهمك للغاية أن تجد لديها شيئًا مماثلًا؟»

«لا أعرف. ربما أجد بعض الرضى حين أحاول كشف ما أشعر به تجاهها، لكن على الدوام كان هناك شيء ناقص. الآن أستطيع القول إن مجرد البوح بإعجابي لم يكن كافيًا، وأني كنتُ أنتظر مقابلًا لذلك. لكن في الوقت نفسه لم أجرّب أن يحدث العكس لأرى إن كان هو وحده كافيًا أم لا. قد أحتاج للكثير من التفكير حتى أفكّ هذا الالتحام».

عادتْ سارة إلى أوراقها الصفر قبل أن تضع القلم لتترك مجالًا لفكرة بدتْ طارئة:

«حسنًا، وماذا عن خيالاتك، هل كانت النسوة تُعجَب بك أم أنك من يبادر أيضًا؟»

صمت داويت قليلًا، وقد أمسك بطرف الخيط. أراد ان يُعبّر لها عن دهشته من أسئلتها التي تنخر دواخله وتستخرج أشياء لم ينتبه لها، لكنه عاد وركّز في ما طرأ له:

«لم أكن أعبث في ملامحهنّ فحسب، كنتُ أمنح نفسي شكلًا مختلفًا كل مرة. أبدو وسيمًا واثقًا وأقل اسمرارًا. الآن أتذكّر أني لطالما تمنّيتُ لو أكون خفيف السُمرة. كان الأمر يبدأ عادة بنظرة إعجاب منهنّ أقابلها ببعض التجاهل الممتع، وأترك مساحة ليتقدمنَ أكثر، قبل أن تأتي استجابتي أخيرًا. كنتُ أتغذّى على إطرائهنّ الدائم لشكلي ثم لفحولتي. لا أتذكّر أن واحدة مرّت بي دون أن تُمطرني بكلمات الإعجاب».

ابتسمتْ سارة وهي تخطّ كلماتها على الورق، كمن حصل على ما يريد، قبل أن تُخبره بانتهاء جلسة اليوم، على أن يلتقيا في الغد إذا كان مناسبًا. هزّ رأسه بالإيجاب، وقد زاد فضوله لقراءة ملاحظاتها، الكلمات الأخيرة على أقل تقدير:

«بماذا خرجتِ؟»

«كما توقعتُ، جلسة مفيدة ولا شك. أشكرك كثيرًا، واعذرني إذا كنتُ قد أرهقتك».

لم يكن هذا الجواب الذي ينتظره. كان يبحث عن رأيها فيه. لا يعرف إذا كانت قد أساءتْ فهمه، أم أنها تراوغ لتبقيه بعيدًا عن خلاصاتها. بدا غريبًا أن يحتاج لها كل هذا القَدَر ليعرف نفسه. فكّر كم هي النفس غائرة أكثر من قدرتنا على الوصول إلى قاعها وكشف أغطيتها. شعر بنفسه مُلتفًا على ذاته، كلما قشّر طبقة أبانتْ عن أخرى أكثر سماكة.

على فراشه الآن يصل إليه شخير رفيقيه، فكّر في الطبقات التي تحتجب خلفها أرواحهما. تساءل إن كانا يعرفان ذلك من الأساس. أغمض عينيه، وقد عزم أن يجهد في الوصول إلى قاعهِ. بدا الأمر خليطًا من فضول وحاجة، وقبل هذا كله، غيظ من تلك الحُجُب التي تفصله عن نفسه.

صحا بتثاقل على صراخ آرون يستعجله كي لا تفوتهما الجولة في المقبرة الوطنية. شعر أنه لم ينم إطلاقًا، بقَدْر ما أغمض عينيه لثوانٍ قبل أن يفتحهما من جديد. ومع هذا استطاع الإمساك ببقايا حلم كان يعيشه بكليّته لولا هذه الاستفاقة المفاجئة. يذكر أنه كان يسير وحده في أرض شاسعة مشغولًا بالبحث عن وجهة لا يستحضرها الآن. بلغ ما يُشبه الواحة، شجيرات كثيفة تُحيط بجدول صغير. تقدّم وقد أنهكه العطش. لكنّ خطاه بدأتْ تعانده، يرفع قدمه بصعوبة، يشعر بالأرض من تحته كالكلاليب تُطبق على رِجْله ولا تُفلتها إلا وقد نهشتْ منها ما استطاعتْ. حين بلغ الجدول كان نافد القوى. نزل على ركبتيه، مال برأسه لكنه اصطدم بالرمل. تلاشى الماء مرة

واحدة. غرس يده وبدأ في إزاحة الرمل. كان طيّعًا ينساب طبقة تلو أخرى دون ظهور الماء. بدا الرمل كأقمشة متطابقة مطروحة فوق بعضها، كل قطعة تُبين عن الأخرى دون أن تمنح شعورًا بتغيير ما. لا يعرف ماذا حدث بعد ذلك، لا يعرف إن كان قد وصل إلى الماء أم أنّ رحلة بحثه قطعها صراخ آرون.

ارتدى ملابسه على عجل وهو يتمنى ألّا تطول الجولة.

حملتهم الحافلة، ضمن موكب حافلات، إلى قمة جبل هرتزل على مدخل القدس. جلس جوار رفيقيه رغم أنه حاول أن ينزوي عنهما في البداية. خفت ضجيج الركّاب ما إن بدأ المرشد في شرح برنامج الزيارة. لاحظ كيف أن آرون ومحاري يتعمّدان إظهار تأثّرهما مع كل كلمة ينطق بها المرشد وهو يتحدث بإجلال عن الخدمات التي قدمها المدفونون في المقبرة الوطنية لدولة إسرائيل. تكرر الأمر حين بدأوا الطواف على القبور الرخامية المغطاة بطبقة من العشب. وجد داويتْ نفسه يتبع طريقتهما كلما وقعتْ عين المرشد عليه. شعر أنّ منظمي الجولة يبحثون تحديدًا عن هذا الأثر في عيون المشاركين، فقرّر منحهم إياه تحسبًا لأي تبعات غير محسوبة. للسبب نفسه كتم سؤالًا طرأ على باله عن هوية القادة الذين يرقدون في جبل هرتزل، وقد لاحظ أنّ المكان أشبه بمقبرة عائلية.

في مسار العودة إلى الحافلة كان قريبًا من رفيقيه. ازدحم مخرج المقبرة بالزوار فتوقفتْ الحركة عنده تمامًا. مال بعينه إلى الجهة اليمنى لتلتقي بعين العجوز صاحبة زوج الأسنان الوحيد الذي يتوسّط فكها العلوي. رسمتْ ضحكتها اللئيمة نفسها، بينما لم تُفلح محاولاته في الفرار بعيدًا، قبل أن يلجأ للتظاهر أنّه لم يعرفها.

انتهتْ الجولة في موعدها، لكنّ قلقه ظلّ على حاله، فالتهرّب من صاحبيه أصبح يستنزف طاقته، وينذر بتفويت موعده. تأخّر فتحرّكت الحافلة قليلًا، والسائق ينتظر صعود المرشد الذي كان منخرطًا رفقة آخر في حوار بدا جادًا. كان داويتْ يوزّع بصره بين هذا المشهد وبين الساعة المعلقة على الزجاج الأمامي، وهو يتمنى أن ينتهي الحوار سريعًا. صعد المرشد وصاحبه إلى الحافلة وهما يرمقان داويتْ، قبل أن يتهامسا ويشيرا إلى السائق بالتحرّك. ارتبك قليلًا، وحار في فهم تلك النظرات. حاول إقناع نفسه أنّه قد يكون متوهمًا غير أن رفيقيه مالا عليه وهما يسألانه إن كان قد قام بفعل ما استدعى هذه الاهتمام.

ما إن توقفتْ الحافلة، حتى نزل فورًا، وهو يُخبر آرون ومحاري أنه سيعود سريعًا. تجاهل أسئلتهما وانطلق نحو موقف الحافلات. لم يغادره الموقف الأخير. أفرغ ذاكرة اليوم بأكملها دون أن يجد شيئًا يستدعي ذلك التهامس.

أوصلته الحافلة 44 إلى البلدة القديمة، ومنها استقلّ الحافلة 37 لينزل منها عند مدخل الجامعة العبرية. قطع الشارع باتجاه الغرب، وسار عبر البنايات وهو يضع عينه على أعلى التلّة التي يستقرّ عندها بيت سارة. لم يتأخر كثيرًا لكنه كان يخشى أن يُفوّت دقيقة من موعده. لو لم يكن ذاهبًا إليها، لتوقّف كثيرًا عند هذه الطرقات الملتوية، كل واحد منها يُسلّمه إلى آخر. شعر بحميمية الحيّ تتسلّل إليه. ها هو يعرف عن نفسه شيئًا جديدًا؛ هو يُحبّ الشوارع الضيقة التي تأخذه صعودًا أو تميل به للنزول. لا يحب تلك المستقيمة وكأنها عمر من المسير بلا آخر.

حين وجد الستروين الزرقاء رابضة أمام الباب تنفّس بارتياح.

خطف نظرة في مرآة السيارة الجانبي، عدّل هندامه، واتجه صوب الباب، ليفاجأ بها تفتحه قبل أن يبادر إلى طرقه.

«هل تُعجبكَ السيارة؟»

ارتبك لتعليقها وقد فاته أنّ النافذة الغائرة في الجدار تكشف المساحة المحاذية للبيت بالكامل. انتظر أن تدعوه للدخول غير أنها خرجتْ وهي تُخبره أنهما بصدد القيام بأمر قبل العودة إلى عملهما. ركب إلى جوارها وهو لا يفهم شيئًا. انطلقتْ مسرعة، وهي تُلقي عليه أسئلة دون أن تلتفت صوبه؛ رأيه عن جلسة الأمس، وكيف قضى صباحه، وما إذا كان متحمّسًا للقاء اليوم. بدأ يُجيب بجدّية قبل أن يفتر وهو يلاحظ انشغالها بهاتفها تارة، وبتعديل موضع أوراقها الصفر التي جلبتها معها دون أن يفهم سبب ذلك.

خرجتْ إلى شارع رئيسيّ، لكنّ عربة شرطة كانت تُغلق مدخله. انحرفتْ إلى آخر جانبي، سارتْ فيه قبل أن تجد عربة أخرى تعترض الطريق. أخبرها الجندي أن كل الطرق إلى مبنى الكنيست في «جبعات رام» مغلقة أمام السيارات. أوقفتْ السيارة جانبًا، حملتْ أوراقها الصفر، وطلبتْ من داويتْ الترجّل بسرعة. هنا فقط بدأتْ تشرح له، وهو يحاول اللحاق بخطوتها السريعة على غير العادة:

«سنشهد مظاهرة للاجئين الأفارقة احتجاجًا على قرار الحكومة إبعاد عدد منهم إلى أوطانهم. أريدك أن تحتفظ بهدوئك. لا تتحدث مع أحد وخصوصًا اللاجئين، وإذا ما سألك الأمن، أخرج لهم أوراقك الثبوتية فقط».

أبدى داويتْ ارتباكه، وهو يتمنى لو أخبرته كي ينتظرها في البيت

حتى تعود، لكنها طمأنته أنّ الأمر عادي، وأنّ تعليماتها من باب الاحتراز فقط.

بلغا الساحة المواجهة للمبنى الأصفر ذي الأعمدة الرخامية الضخمة التي تزيّن واجهاته، وقد امتلأتْ بالحشود. وقعتْ عينه فورًا على علم بلاده، وصور رئيسه تُغطّيها بقع حمراء، فيما يبدو في صور أخرى وقد التفّ حول رقبته حبل المشنقة، قبل أن ينتبه إلى لوحات تطالب الحكومة بإعادة النظر في قرارها. كانت سارة تحاول الوصول إلى أقرب نقطة مطلّة على المحتجّين، بينما كان داويتْ يتمنى لو يبقى يراقب من بعيد. لم تتوقف إلا حين حاذتْ الجنود الذين يطوّقون المتظاهرين.

من مكانه كان داويتْ يرى كل شيء بوضوح. السحنات التي يعرفها جيدًا، الهتافات التي وقفتْ في حلقه كثيرًا دون أن يتمكن من إخراجها؛ «الموت للشعبية... الموت للشعبية». أعاده المشهد إلى الميدان الذي نشأ فيه، إلى كمشتاتو، إلى مدرسة الثورة، وإلى الوادي الأزرق. شعر بحرارة تلسع قلبه، وتبعث فيه كل العذابات التي ظنّ أنها دُفنت عميقًا حتى نسيها.

أمامه كان جندي من بيتا إسرائيل، يُمسك سلاحه الرشّاش، ويُمضي الوقت وهو يشتم الأوغاد الإرتريين الذين لحقوا به إلى إسرائيل، ويتمنّى أن تطردهم الحكومة إلى بلادهم البائسة، بينما يضحك زميله الأشقر على شتائمه الحانقة.

انهمكتْ سارة في تسجيل ملاحظاتها، بينما تفشل محاولاته في تجنّب تعليقات الجنديّ المتواصلة، إلى أن أخرجته من انشغاله، وهي تسأله:

«ماذا ترى في وجوه اللاجئين، الإرتريين منهم تحديدًا، هل هم غاضبون أم مصابون بخيبة أمل؟»

لم يستطع أن يكون دقيقًا إلى هذا الحد. تفحّص الوجوه التي يعرفها وهو يجهد كي يرى ما خلفها. طرأتْ على باله فكرة لطالما زارته؛ الإرتري لا يعرف الغضب، هو يحزن وينكسر وينزوي فقط، لكنه لا يغضب. الغضب ترف عند المغلوبين، بينهم وبينه سياج من الإذلال والإخضاع. الغضب فعل إرادة، والمغلوب منزوع الإرادة والقرار. أراد أن يشرح لها كل ذلك لكنه اكتفى بكلمة واحدة:

«هم كل ذلك».

أخذتْ سارة تلتقط صورًا للمتظاهرين، لوجوههم تحديدًا، بينما عاد داويتْ إلى حوار الجنديّ الإثيوبي وزميله الأشقر. تجرّأ أن يقترب وقد منع الضجيج من حوله وصول كلماتهما إليه بوضوح. رمقه الجنديّ بنظرة متشكّكة، قبل أن يعود إلى صاحبه.

اقترب متظاهر من السياج الأمني، فوجّه الجنديّ كعب رشّاشه نحوه، تراجع وهو يُطلق سبابًا مكتومًا وكأنه يُحدّث نفسه. انتبه لداويتْ فنقل إليه حنقه من الجندي وأشهر له إصبع يده الأوسط، قبل أن يختفي وسط الحشود.

عاد الجنديّ الإثيوبي إلى استرخائه دون أن يلاحظ مرور ضابط أبيض إلى جواره. ألقى الجنديّ الأشقر بالتحية العسكرية مبتسمًا قبل أن يعود إلى مراقبة الحشد، بينما كان الأوان قد فات لينتبه زميله. وكز الضابط الجنديَّ الإثيوبي في كتفه دون أن ينطق، فانتصب مذعورًا، وهو حائر بين أن يرفع رأسه لدواعي التحية العسكرية، وأن يُخفضها ليظهر احترامه للضابط.

مرّ الضابط، بينما بقي الجنديّ يتابعه قلقًا بطرف عينه. شعر داويتْ بانتشاء، وهو يلحظ تعرّقًا في وجه الإثيوبي. مسح الضابط شيئًا من غيظه، كأنّه يردّ سريعًا على تلك الشتائم الحانقة.

استدارتْ سارة وهي تطلب من داويتْ أن يتبعها. سار قليلًا قبل أن يلتفتَ صوب الجنديّ المنشغل عنه، ويُطلق سبابًا مكتومًا كأنّه يُحدّث نفسه. لحق بسارة لكنه توقّف فجأة وقد تذكّر شيئًا. تأكد من انشغال الإثيوبي مع زميله، ضمّ أصابع يده، ثم فرد الأصبع الأوسط ووجهه تجاه الرجل سريعًا، قبل أن يواصل سيره وقد غمره الارتياح.

في منزل سارة جلس على الكرسي نفسه، بينما ذهبتْ لتبديل ملابسها، وعادتْ بكوبَيْ قهوة. ظلّ ينتظر فراغها من مشاهدة الصور التي التقطتها، وتدوين ملاحظات سريعة. بدتْ أكثر جدية اليوم، جلستها، ملامح وجهها. افتقد تبسّطها معه، تلك المقدمات المريحة التي أذابتْ ارتباكه. كان مشتاقًا لتعزف له، لكنّ طلبًا كهذا بدا بعيدًا والحال هذه.

حين انتهتْ رفعتْ رأسها نحوه. أطلقتْ تنهيدة ارتياح، ورسمتْ ابتسامة وهي تسأله عن انطباعه عن الجلسة السابقة. كتمَ غيظًا وهو يهمّ إخبارها أنه أجاب عن هذا السؤال في السيارة، قبل أن يتراجع.

«عدتُ ممتلئًا بالأسئلة أكثر مني بالإجابات. لا أعرف. ربما لأني أدخل عالمًا لم أعرفه من قبل. فكّرتُ طويلًا لِمَ اخترتِ أن تبحثي عن الحياة الجنسية للاجئين، هل هذه هي أقصر الطرق لفهم نفسياتهم؟»

ضحكتْ سارة وهي تُشيد بسؤاله:

«أرى تقدمًا ملحوظًا. هذا السؤال في حد ذاته يعني أنك بدأتَ

تنخرط في حديثنا بطريقة جيدة. لكني على أيِّ حال لا أريدك أن تنشغل بهذه الأسئلة، تجاوب معي وهذا كاف للغاية لتحقيق المراد».

أراد أن يسألها أي مراد تقصد، أراد تذكيرها بسؤاله الذي أشادتْ به، لكنها تركتْ كل ذلك وبدأتْ في طرح الأسئلة بعد أن أدارتْ جهاز التسجيل:

«حسنًا لو افترضنا أنك أحد المشاركين في مظاهرة اليوم، هل ستميل إلى شتم الحكومة على قرارها، أم ستفضّل أن تستعطفها للعدول عنه؟»

شعر داويتْ بالغيظ، وهو يراها تعيد عليه السؤال حول وجوه اللاجئين بكلمات أخرى، في الوقت الذي تتجاهل فيه أسئلته. هنا قرّر أن يبدأ العبث:

«لا أعرف ما إذا كنتُ سأشارك من الأساس، لكن لو فعلت، ربما سأقوم بالأمرين معًا، أو ربما لن أشتم أو أستجدي، ربما سأسير صامتًا بين الجموع، ربما سأحمل لافتة ما، وربما لا. لا أعرف على وجه التحديد».

أطالتْ سارة التفكير وهي ممسكة بالقلم. كتبتْ شيئًا ثم عادت لشطبه، وداويتْ يراقب ذلك باستمتاع. ليته فعل ذلك من البداية، ليته لم ينجرف في البوح عما في دواخله، طالما أنها ستعامله بهذه الطريقة. حين أعياها الإمساك بشيء مما قاله، كرّرتْ المحاولة بطريقة أخرى:

«حسنًا... لنجعل الأمر أكثر تحديدًا... لو كنتَ قد انتهيتَ الآن من خيالاتك، وخرجتَ بعدها في مظاهرة كهذه، هل ستميل إلى الصراخ والشتم، أم ستكون مسترخيًا وتعرض مطالبك بهدوء أكبر؟»

«وهل هناك علاقة بين الجنس، والطريقة التي أعبّر بها عن نفسي؟ فقط أريد أن أفهم كي أستطيع الإجابة».

قذف داويتْ بسؤاله، وعاد ليستند على الكرسيّ. بدأ يلعب معها اللعبة نفسها. سيعطيها بقَدْر ما تعطيه. زفرتْ سارة بضيق قبل أن توقف التسجيل وتُجيب باقتضاب:

«نعم. هناك من يردّ كل انفعالاتنا أو بعضها إلى مكبوتاتنا الجنسية. بقَدْر ما عجزنا عن التنفيس عنها يكون التعبير عن بقية الأشياء مضطربًا ومبالغًا فيه».

ابتسم داويتْ وهو يشعر بلذة إخضاعها، قبل أن يعود لتأدية الدور المطلوب منه في اللعبة:

«أغلب الظنّ أني لن أشارك في الاحتجاج... سأكون مسترخيًا للدرجة التي لا أستطيع معها فعل شيء كهذا، وإذا خرجتُ...».

رنّ هاتف سارة، فقاطع استرسال داويتْ. غادرت الى الداخل لترد على المكالمة. أمسك داويتْ بهاتفه فوجد اتصالات عديدة من آرون ومحاري. كان وحده إذن من تقيّد بكتم صوت الهاتف. عادتْ سارة إلى كرسيّها، وهي تطلب من داويتْ المتابعة. لم تعتذر. هذا أول ما خطر له، وهو يُخبرها أنه أتمّ جوابه.

قضتْ بعض الوقت لتسترجع مزاجها، قبل أن تواصل:

«الآن بغضّ النظر عن طريقتك في التعبير عن نفسك في المظاهرة... إذا افترضنا أنك كنتَ تحمل لافتة أو صورة، هل كنتَ ستعود بها إلى بيتك، أم تتخلّص منها؟»

لم يفهم داويتْ مغزى سؤالها، وقد أصبحتْ هذه طريقته؛ تسأله،

فيسأل نفسه: وما عساها تريد بهذا السؤال، قبل أن يجيب على أساسه. هذا السؤال بدا غائمًا وعديم الجدوى. وَدَّ أن يسأل بوضوح لكنَّه تجنّب إثارة غضبها، وعمد إلى أول إجابة خطرت له:

«سأحملها معي إلى البيت. ربما ستبعث فيَّ شعورًا طيبًا كلما رأيتها بعد ذلك».

تبسّمتْ سارة بلؤم، كأنَّ صنارتها عادتْ بصيد ثمين، بينما يرى داويتْ كل ذلك بقلق، وهو يعاود تقليب السؤال في عقله.

«هل كنتَ تحرص على الاحتفاظ بمتعلّقات الفتيات اللائي يتغذى عليهنّ خيالك؟»

هنا انتبه داويتْ للحفرة التي اقتادته إليها سارة دون مقاومة. استعاد استيهاماته، وجد أكثرها حضورًا تلك التي ارتبطتْ بالأشياء التي انتزعها من الفتيات؛ منديل، وقلم، وقرط، وخاتم، وجوارب، ونظارة، إلى آخر ما استطاع الوصول إليه سرقة واحتيالًا. تذكّر كيف أنّ مجرد رؤية الغرض أمامه يُشعره بالتهيّج إلى أقصاه، ولا يستطيع لمسه إلا وقد أوصله إلى ذروة اشتهائه. استعاد كل تلك الصور، لكنّه لم يشأ أن يضع أقدامه في الحفرة المنصوبة طواعية، واختار عوض ذلك إجابة بعيدة، وهو يتجنّب النظر في وجه سارة:

«لا بكل تأكيد».

لو كانت سارة لطيفة معه كما اليوم الأول، لأخبرها بكل وضوح أنّ جمع أغراض النساء تقابل متعته. كان كمن يردم فجوة كبيرة في روحه بكل تلك الأشياء. يجمع ويجمع ولا يكتفي. كان تجميع أغراض النساء طريقته النافذة ليشعر بالأمان. لكنّ شيئًا واحدًا منها

يوصله للذرى سريعًا. إنها النظارة الطبية دائرية العدسات، وقد استطاع أن يسرق واحدة ويحتفظ بها دائمًا في مخبئه. كلما تخيّل فتاة ألبسها تلك النظارة فعادتْ أكثر اشتهاء وتهتكًا.

«ماذا يرد لذهنك إذا جاءتْ سيرة والدتك؟ كيف تصفها لي؟»

مجددًا تلج سارة منطقة معتمة. أين هي والدته ليحكي عنها، أو يصف إحساسه بها؟ ليته يعرف شيئًا عنها. لا. لا يريد أن يعرف شيئًا. هكذا قضى ما مضى من حياته، وهكذا سيستمرّ. ربما هو الفضول وحده الذي يقوده ليتساءل عن والدته بين كل النساء اللاتي قمن برعايته. الآن يتمنى لو كانت أمه هي تلك المجندة الأكثر حنانًا وإشفاقًا، تلك التي كانت تحتضنه بقوة فيغوص في صدرها ويستنشق رائحتها، قبل أن تتجاهله دون سبب وتهتمّ بغيره رغم محاولاته الكثيرة لاستعطافها. السيدة ذات الشعر الأسود القصير والنظارة الطبية دائرية العدسات. لا يتخيّل أُمًّا سواها، ولا يريد، رغم حنقه عليها.

حين أعادتْ سارة سؤالها، ترك داويتْ كل ذلك خلفه، ترك المجندة الحنونة والقاسية في الآن نفسه، التي يُحبّها ويكرهها في الوقت عينه. ترك صدرها الذي احتضنه بقوة، قبل أن يُفلته إلى الأبد. ترك رائحتها التي لم تفارقه يومًا، ترك نظارتها الطبية دائرية العدسات، وصدرها النافر، ومؤخرتها البارزة. ترك ذلك كله وراح يحكي عن أُمٍّ متخيّلة، منحها صفات كثيرة، لكن دون أن يشعر تجاهها بأيِّ عاطفة. حين انتهى اللقاء، أوصلته سارة إلى الباب وهي تشكره بطريقة آلية، بينما قاوم ليطرد ارتباكه وهو يتجنّب النظر في عينيها متمنيًا أن تنقضي لحظات التوديع بأسرع ما يمكن. ما إن

أغلقتْ الباب خلفه، حتى شعر بالانتشاء وهو يُخرج من جيبه النظارة الطبية دائرية العدسات التي استطاع في غفلة من صاحبتها أن يستلّها من مكانها على الطاولة. امتلأ بحبور يعرفه تمامًا، ثمة فجوة في عمق روحه سُدّتْ بهذا الغرض الجديد.

(26)

في طريق العودة إلى بيسغات زئيف حاول الاتصال برفيقيه فلم يردّا.

يعرف أنّ اتصالاتهما المتكررة لا تتجاوز مجرد الفضول في معرفة مكان غيابه. عاد إلى يومه مع سارة، إلى أسئلتها المصوّبة بدقة إلى أشيائه التي عاش حياته كلّها يُخفيها عن الناس من حوله، وعن نفسه قبل ذلك. تلك التي اختلقها أو التي جرت بالفعل. هو الآن يستطيع أن يضع خطًّا فاصلًا بين الأمرين، بين ما عاشه حقيقة أو خيالًا. لكنه لا يودّ التوغّل أكثر في الفصل بينهما. ثَمَةَ راحة في هذه الحدود الغائمة، وهي تمنحه فرصة أن يختار جهته التي يُحبّ.

من جديد كانت المصاعد معطّلة، فارتقى الطوابق الخمسة مستخدمًا السلالم، وهو يتمنّى ألّا يجد بعد كل هذا التعب صاحبيه في انتظار شرح وافٍ ليومه الطويل. مرّ بسكّان شقة في الطابق الثاني على وشك مغادرتها، ألقى عليهم التحية، لكنهم لم يردّوا واكتفوا بنظرات لم يفهمها.

وصل إلى شقته. وقف يستعيد أنفاسه، قبل أن يعبر بابها المفتوح دائمًا متجهًا إلى غرفته. التقى بالسيدة الدميمة التي تسكن الغرفة

المجاورة، وقد تعمّدتْ أن تضع عليها ملابس شفافة، لكنها وعوض أن تفتح معه موضوعًا لا قيمة له كما اعتاد أن يجدها، تجاوزته كأنّها لم تره. حين اقترب من الغرفة مغلقة الباب، لم يتناه إلى مسمعه شيء، وهي عادة ما تكون ضاجّة في مثل هذا الوقت. بدا الأمر غريبًا أن يخلد رفيقاه إلى النوم باكرًا، لكنه ابتهج للأمر دون رغبة في تفسيره. فتح الباب ليجد آرون ومحاري يتهامسان بملامح مضطربة لم يتوقف عندها، وقد سكتا بمجرد دخوله. ألقى التحية وارتمى في سريره سريعًا وهو يرجو أن تمرّ ليلته خفيفة. حين لم يصله تعليق رفع رأسه ببطء ليتبيّن الأمر. كانا يُحدّقان فيه، قبل أن يصرفا أنظارهما. اعتدل في سريره وهو يسأل إن كان ثمة شيء، فلم يُجبه أحد. كرّر المحاولة فطلب منه آرون أن يسأل نفسه. يعرف أنّ فراره أزعجهما، غير أنّ هذه المرة بدتْ مختلفة. أخذ يعتذر لهما، وهو ينسج حكاية جديدة أراد لها أن تنزع دهشتهما وتُنسيهما هذا الغضب. لم يجد التجاوب الذي يعرف، أمضيا الوقت وهما ينظران إلى بعضهما، قبل أن يُقاطعه محاري:

«لا داعي لكل هذا. لقد عرفنا كل شيء».

سأله داويتْ عمّ يقصد، وقد بدأ يقلق بالفعل. رجا محاري أن يُخبره، مال على آرون. نهض من سريره وجلس بينهما على الأرض. حينها فقط نطق محاري:

«لقد عرفنا أنك مندسّ بيننا، وأن لا علاقة لك ببيتا إسرائيل. للأسف أننا وثقنا بك واعتبرناك أخًا».

هزّ الكلام داويتْ، وصمت ينتظر أن يظهر أي شيء يُبدّد حقيقة ما يجري. أن يكون قد ذهب في النوم مثلًا، وهذا ليس إلا حلمًا مزعجًا،

أن يكون واعيًا، لكنه يعيش شيئًا من خيالاته التي اعتدتْ على مساحة الحقيقة عنده. أن يكون أي شيء إلا ما سمعه الآن.

حين لم يظهر شيء من ذلك. سأل بصوت مبحوح إن كان الأمر قد انتشر بين الجميع أم أنه يقتصر عليهما. لا يعرف لمَ لمْ يسأل أسئلة أخرى من نوع كيف عرفا؟ من أخبرهما؟ لماذا صدقاه؟ بل إنه لا يعرف لمَ لمْ ينفِ التهمة ابتداءً.

أخبراه أن لا حديث في البناية إلا عن قصته، وأن الأمر قد لا يكون توقّف عند المربع الذي يسكنونه. وصلتْ الرسالة داويتْ بأوضح ما يكون. عاد إلى سريره، وبدأ يلمّ أغراضه. اعترضه آرون وهو ينصحه بلؤم أن يهرب خفيفًا بينما يترك لهما شأن الحقيبة. رآها ثمنًا تافهًا مقابل سكوتهما. خرج من الشقّة، لم يتبيّن ما إذا كان المصعد قد عاد إلى العمل. قفز السلالم طابقًا تلو آخر حتى وجد نفسه في الشارع. ركض باتجاه موقف الحافلات وهو يرجو ألا يستوقفه أحد حتى يخرج من بيسغات زئيف. استقرّ عند النافذة في الكرسي الأخير من الحافلة 44 وهو يغطّي ملامحه تارة بيده، وأخرى بياقة قميصه. بدا الأمر معادًا بتطابق مذهل؛ كيف لرحلة المجيء إلى إسرائيل أن تُشابه رحلة هروبه هذه؟ لم كُتب عليه أن يتنقّل من بلد إلى بلد ولا وطن في الطريق؟

غادرتْ الحافلة شبه الخالية المستوطنة في طريقها إلى الموقف الرئيسيّ في البلدة القديمة، بينما تعبر معظم الحافلات في اتجاهات العودة وقد حلّ المساء. هنا بدأ يعصر دماغه؛ من تراه وشى به؟ هل هي جارته في إنداغابونا العجوز صاحبة زوج الأسنان الوحيد الذي يتوسّط فكها العلوي، وقد رأته هذا الصباح في المقبرة الوطنية؟

لكنها لم تفعل طوال ما مضى من وقت وهي تعرف أنه جاء معها إلى إسرائيل. أم تراه يكون يعقوب، وقد غلبه الحسد والرغبة في ألا يكون الخاسر الوحيد؟ أم تحدث المفاجأة وتكون سارة هي من أخبرتْ عنه بعد ان انتهتْ حاجتها إليه؟

لا يعرف. شعر أن رأسه تموج بالاحتمالات، وكل واحد منها يحمل أساسًا لوجوده.

بدّل حافلته بالحافلة رقم 37 ونزل منها عند الجامعة العبرية. كان يقطع الشوارع الملتوية ركضًا. شعر بها فارغة من كل ما حملته في المرة السابقة؛ لم يعد يُحبّ الشوارع الضيقة التي تأخذه صعودًا أو تميل به للنزول، تمنّاها مستقيمة رتيبة لا يستوقفه شيء فيها.

طرق الباب بقوة. لم ينظر في مرآة الستروين ويعدّل ياقته. فتحتْ سارة وقد احتدّ نظرها استغرابا. دخل دون أن يستأذنها، وهناك أخبرها بما جرى، وهو يتفحّص تعبيرات وجهها. تفاجأتْ لكن ليس بالقَدْر الذي توقعه، حزنتْ لكن أقل ممَّا كان ينتظر، وبدأتْ تبحث عن حل لكن بطريقة لا تخلو من استرخاء.

لم يكن قادرًا على استبيان موقفها تمامًا. لا شيء يُثبتُ أنها الفاعلة، ولا شيء ينفي في الوقت عينه. اضطر أخيرًا أنْ يواجهها بهواجسه. ثارتْ عليه وهي تصفه بالمجنون. سألته عن مصلحتها في فعل ذلك وهي لم تنته بعد من بحثها، أعادتْ تذكيره بوعدها الذي قطعته على نفسها. انزوى وأطرق في الأرض قبل أن يعتذر محاولًا تبرير جنوحه. جلستْ على الأريكة. أشعلتْ سيجارة وبدأتْ تنفث دخانها بعصبية. جلس مقابلها وهو يكرّر اعتذاره. أشارتْ له بيدها فصمت. بدتْ غارقة في التفكير. كان يتمنى أن تجد له حلًا، أن

تعرض عليه أن يختبئ عندها. لا يدري إن كانت تملك فكرة أخرى. صرف كل ذلك وبدأ يستمع لها بانتباه ما إن بدأتْ تتحدث:

«لم أكن أتوقع أن يحدث هذا مطلقًا، وإلا كنتُ قد قطعتُ المسافة في زمن أقصر. صحيح أني أنجزتُ الجانب الأهم، لكنّ ما تبقى ليس هامشيًا أيضًا».

لم يكن داويتْ يعرف عمّ تتحدث، كان يبحث في كلماتها عن شيء يخصه، عن المكان الذي سيؤويه، عن الحل الذي سيصرف فكرة عودته مطارَدًا من جديد. عادتْ للحديث بعد أن صمتتْ لثوانٍ:

«على العموم سأجد حلًا بكل تأكيد».

نهضتْ من مكانها إلى غرفتها، بينما تركتْ داويتْ وقد بعثتْ فيه شيئًا من الأمل. ها هي أخيرًا تلتفتُ لمشكلته بجدية. لعن الساعة التي شكّ في كونها الواشية، لعن نفسه لأنه تهوّر وأفصح عن هواجسه.

عادتْ وهي تمدّ له مبلغًا من المال دون أن تجلس.

«لا تقلق... سأجد طريقة لإكمال البحث رغم صعوبة ذلك. أشكرك كثيرًا على تعاونك معي. أفادني ذلك كثيرًا».

نهض داويتْ من مكانه مذهولًا. هزّ رأسه وسار باتجاه الباب بخطى وئيدة. لم يكن يليق بأي كلمة أن ترافق هذا المشهد. كان الصمت ملائمًا للغاية. الصمت دائمًا ما يأتي على مقاس أشيائنا، بينما يندر ألّا يكون الكلام فائضًا عن الحاجة.

حين بلغ الباب، التفتَ لها وقد مطّ شفتيه قَدْر ما يستطيع ليبدو مبتسمًا. في تلك اللحظة اشتهى وبشكل غريب أن يسمع شيئًا أخيرًا، أن يغادر وبيده شيء آخر غير الخمسمائة شيكل التي أعطته إياها.

سألها إن كان يستطيع أن يعرف رأيها فيه، أن تُخبره بخلاصاتها عن شخصيته. طلب كلمة واحدة، لكنها لمّتْ ابتسامتها وقد احتدّ نظرها، وزمّتْ شفتيها، وأرجعتْ خصلات شعرها الأسود المتموّج إلى الوراء. ها هي تفعل كل تلك الأشياء التي يُحبها فيها، تفعلها بالإتقان نفسه دون أن يجدها مغرية وجاذبة. لا يعرف من أين انطلق الاشتهاء أول مرة؛ من عقله وقلبه، أم من كل تلك الأفعال التي فقدتْ معناها الآن.

أغلقتْ الباب خلفه، وقد اعتذرتْ عن تلبية طلبه. أخبرته أنه كان غرضًا للبحث وليس للعلاج.

كان غرضًا في كل الأحوال. أخذ يردّد هذا وهو يهيم على وجهه في شوارع القدس. استغرب أن تستخدم هذه الكلمة دون غيرها، ليتها لجأتْ إلى كلمة غائمة تستبطن العديد من المعاني كي تُخفّف عنه هذا الأثر الحادّ. تذكّر الأوروبي الذي استمع لحكايته باهتمام في إنداغابونا قبل أن يضع كل ذلك جانبًا. تذكّر سابا التي ساعدته بقَدْر ما كان مفيدًا لها، وها هي سارة تضعه في الخانة نفسها؛ مجرد غرض. ما أسوأ أن تذهب بنا حكاياتنا إلى غير ما نحبّ، ما أسوأ أن تُستنزف حتى يجفّ ضرعها، ثم نجد أنفسنا، نحن أصحابها، فارغين تمامًا. كان داويتْ كحكاياته إذن، محض غرض لا يملك ترف البقاء بعد استخدامه.

حملته أقدامه عبر الطريق الوحيد الذي يعرف حتى انتهى به الأمر عند باب العامود. كان شبه خالٍ، والمحال في أطرافه على وشك الإقفال. تجنّب النظر في وجوه رجال الأمن، وهو يسير في الطريق الضيّق بينما مَن تبقّى من السيّاح يمضون عائدين في الاتجاه

الآخر. لا يعرف لمَ يواصل السير في هذا الطريق، لا يعرف على وجه الدقة، ما إذا كان يقصد الأقصى، أم كنيسة القيامة أم الحائط. إن كان سيصبح داود، أم ديفيد أم داويتْ. كل الذي يعرفه أنه فارغ من الداخل ويبحث عن شيء يستند عليه.

وجد الأمن يطلب من القلة المتبقية عند كنيسة القيامة أن تغادر، مثله كان الوضع عند الحائط، فيما سُدّ الطريق إلى الأقصى الخالي أصلًا. حتى دور العبادة بحاجة لأن ترتاح وتلتفت لنفسها بعد يوم طويل وشاق من التودّد لأفواج العابرين.

بدا كل شيء متعبًا من حوله، الوجوه والمحال والبنايات. لكنها جميعًا وصلتْ إلى لحظة راحتها. ستزيح عنها عناء اليوم كلّه، فيما عداه هو؛ لا يزال في رحلة تعب طويلة، في بدايتها على وجه الدقة.

مرّ بخمسيني أسود يغلق أبواب محله. التفتَ له الرجل وهو يتفحّص ملامحه، قبل أن يسأله بالعربية إن كان إرتريًا. بدتْ الدهشة على وجه داويتْ، وحار في الإجابة التي ينبغي عليه تقديمها. ضحك الرجل بزهو:

«لا أحد يغلبني في تمييز وجوه الأفارقة... هيا أخبرني هل قدمتَ من مصوّع أم أغوردات أم عصب؟ ملامحك لا تقول إنك من أبناء أسمرا».

أومأ داويتْ برأسه موافقًا ومتجنّبًا الاختيار بين المدن الإرترية التي استعرضها الرجل بدراية عجيبة. لم يسبق له أن شعر بأيّ مدينة في بلاده، وهو الذي لا يعرف إلا الميدان حيث ولد ونشأ.

عاد الرجل ليسأل عن المدينة بإلحاح، فلم يجد داويتْ بدًّا

من الاختيار: عصب. نطق بها وهو لا يعرف الفرق الذي ستضيفه لمعرفة الرجل.

ابتهج الخمسينيّ، وهو يؤكد لداويتْ أنه كان على يقين أنّ محدّثه مسلم، واستغرق يشرح له كيف أنّ قراءته للوجوه تصل به لديانات أصحابها، قبل أن يتوقّف وكأنه تذكّر شيئًا:

«أنت لا تُحبّ الإسرائيليين... صحيح؟»

أومأ داويتْ برأسه موافقًا دون تفكير وقد بدا أنّ الرجل لا ينتظر إجابة غيرها. زاد ابتهاج الرجل، وهو يسأل عن الاسم.

«داود».

ترك الرجل يُثني على الاسم فيما كاد يبتسم للعبة التي أقحمته فيها الحياة. ها هو يعود إلى الاسم الأول الذي اختاره، كأنّه قد عاد للدوران من جديد، دون أن يصل إلى وجهته الأخيرة. كم دائرة عليه أن يمر بها قبل أن تكتب أقداره نهاية لهذا الرهق الذي يدور فيه.

«اسمي محمد علي... أو نادني ماريل اختصارًا. زرني في دكّاني متى شئتَ».

أكمل الرجل إغلاق محله، وهمّ بالمغادرة، لولا أنّ داود بقي في مكانه مرتبكًا. سأله إن كان يستطيع مساعدته في شيء، غير أنه لم يجد إلا الصمت.

«هاكول بسيدر؟»

عاد ماريل ليستدرك ويسأل داود بالعربية ما إذا كان بخير، وقد بدا أنّ العبرية قد تسللتْ إلى لسانه دونما قصد.

ما إن عرف أنه بلا مأوى حتى أصرّ عليه أن يرافقه، وهو يذكّره أن

المسلم للمسلم كالبنيان، يشدّ بعضه بعضًا. سار وداود يتبعه. سلكا طريق الواد، ومنه انحرفا إلى شارع علاء الدين حتى وصلا إلى بناية عليها لوحة تُشير إلى «جمعية الجالية الإفريقية – القدس الشريف» لكنّ بابها كان موصدًا. وقف ماريل يفكّر لبعض الوقت وهو يردّد «لم نلحق بهم»، قبل أن يطلب من مرافقه أن يتبعه. بدا الأمر محيّرًا لداود؛ فماريل إفريقيّ تمامًا، لكنه يتحدث العربية بلهجة مقدسية صافية، ويلجأ لكلمات عبرية تُظهر إتقانه لها.

على بعد خطوات من مبنى الجالية خرجا إلى ساحة كبيرة على جانبيها تتقابل بنايتان واطئتان غريبتا الطابع، فيما تحتشد على حواف الساحة محال بملامح إفريقية كاملة. وقف ماريل ينادي على طفل يلعب الكرة مع أقرانه، فيما طاف داود ببصره في المكان؛ نساء محجبات، صور للكعبة، وجداريات تُقدّس السفر إلى مكة، وأخرى تُهنئ العائدين من رحلة الحج. رأى كتابة بخطّ عربي بدا ملفتًا، لكنه لم يستطع تبيّن المكتوب تمامًا وقد استندتْ على الجدار فتاة حاسرة ترتدي بنطالًا ضيّقًا، وهي تتبادل الضحكات مع شابّ زاده الشعر المجدول وسامة. رفع رأسه، رأى النوافذ محاطة بقضبان حديدية بعثتْ فيه شعورًا يُشبه ذلك الذي وجده في الوادي الأزرق.

سلّم الطفل على داود امتثالًا لأمر والده، ثم ركض يسبقهما إلى الدار. تبادل ماريل حديثًا سريعًا مع أحد المارة قبل أن يدخل مع ضيفه إلى البيت.

استقر داود في غرفة ضيقة وصلها بعد أن عبر دهليزًا معتمًا، انتهى إلى باب مفتوح تتوزّع الغرف يمينه وشماله. لم يمرّ وقت حتى قدمتْ امرأة ترتدي جلبابًا واسعًا وبدأتْ تضع أطباق الطعام أمامه.

«هذا ولدنا داود مسلم من إرتريا يا أم آدم».

حيّتْ المرأة داود بعربية كسيحة. أكملتْ رصّ الأطباق وغادرتْ على عجل. جاء آدم وهو يستعرض مهارته في ترويض الكرة حتى كاد أن يُسقطها وسط المائدة.

«دِرسوس».

صرخ فيه والده، فهرب فزعًا. لم يتبيّن داود اللغة التي تحدث بها ماريل، وهو يمدّ يده إلى الأطباق الإفريقية استجابة لدعوة مضيّفه الذي أخذ يعرّف بها:

«هذه العصيدة، وهذا إدام كركنجي، وهنا المديدة. لا تخجل... أنت في بيتك».

عاد آدم ليطلّ عبر الباب فدعاه والده ليشاركهما الطعام، فجلس فورًا، وهو يقتطع من عجين العصيدة قطعة كبيرة ويغمسها في السمن الذي يتوسّطها.

تسلّل الارتياح إلى قلب داود. كانتْ المرة الأولى التي يشعر فيها بالاحتفاء لذاته. لكنه عاد ليتذكّر أنه لو لم يختر دينًا بعينه، لما وجد كل هذا. هل بدأتْ الأديان تلتفتُ له أخيرًا؟ هل قرّرتْ إنقاذه بعد طول تلكؤ؟

لا يهم. ها هو يشعر بالمأوى، وقد تقلّب في فُرش كثيرة دون جدوى.

عدّل مخدّته، وهو يتمدّد في ركن غرفة أضيق، وإلى جواره أربعة من أبناء ماريل الذي تركه لينام، على وعد أن يوقظه لصلاة الفجر.

«أنت إسرائيليّ؟»

التفتَ صوب آدم، وهو يُجيب على سؤاله بالنفي.

«لكنّ أمي تقول إنك من الفلاشا».

رمى الطفل بكلمته، وتظاهر بالنوم، فيما عاد القلق لينخر قلب داود، وهو الذي ظنّ الآن أنه كُتب في خانة الناجين أخيرًا.

(27)

جلس داود مع خيوط الصبح الأولى، على كرسيّ خشبيّ في المساحة الضيّقة المحتشدة بالسُبَح في محل ماريل بباب العامود.

كانا قد فرغا الآن من صلاة الفجر، وقد اختار داود صنبورًا بعيدًا، وقضى أمامه وقتًا طويلًا حتى يُتيح لمرافقه أن يسبقه إلى الأقصى حيث لا يُجاوره ويلحظ جهله الفاضح بطقوس الصلاة.

انشغل ماريل بكنس الغبار عن رفوف المحل وواجهته، مع بدء حركة الناس في الطريق. حين انتهى مال على داود وهو يمدّ له بمسبحة بنيّة.

«هذه مصنوعة من خشب الصندل، إذا أعجبتك فهي هديتي لك، أو اختر من المحل ما تشاء».

شكر داود الرجل وهو يهمّ بوضعها حول رقبته قبل أن ينتبه ويُبقيها في يده، وهو يحاول تقليد تلك الحركة السريعة التي يُقلّب بها ماريل مسبحته.

انسجم داود سريعًا مع مزاج السوق، وقد وصلتْ فيه الحركة إلى ذروتها مع الضحى. ذهب ليجلب إفطارًا من محل مجاور، بدأ يناول ماريل سُبحًا يطلبها الزبائن، شعر بالزهو وهو يتلقّى إطراءً من

صاحبه على تفانيه في معاونته. لم يكونا قد اتفقا على شيء. انخرط داود في مهامه دون أن ينتظر شيئًا. كان يتصرّف تحت وقع الشعور بالامتنان. حين خفّتْ الحركة مع الظهر، مال ماريل على معاونه بملامح مرتبكة، وهو يُخبره أنّه كان يتمنى لو يُشغّله معه لكن المحل لا يحتمل أجرة عامل آخر، وأنه يأمل أن تجد له الجالية الإفريقية حلًا. لكنه في المقابل سيؤويه عنده حتى يُفرجها الله من عنده. كان هذا كل ما يرجوه داود الآن.

سار باتجاه طريق الواد، ومنه خرج إلى شارع علاء الدين، وهو يحمل رسالة من ماريل لأحد العاملين في الجمعية. لم يكن المبنى من الخارج يختلف كثيرًا عن محيطه الموغل في القِدَم، غير أنه من الداخل بدا من طابقين حديثين؛ رخام الأرضيات اللامع المزيّن بالنقوش، والأسقف المقوّسة الصفراء المستندة على أعمدة صخرية.

كان داود ينتظر ظهور شخص ليسلّمه الرسالة. مرّ بغرفة مكتوب عليها مشغل الخياطة، إلى جوارها ركن الموسيقى. توقّف عند لوحة تتحدث عن تاريخ الأفارقة في القدس. زالتْ حيرته وقد عرف أنّ ماريل ما هو إلا أحد أبناء المهاجرين الذين قدموا قبل قرن إلى القدس من السودان وتشاد ونيجيريا والسنغال. إلى جوار اللوحة، وجد صورة لشابّ أسود يحمل بندقية ويتحلّق حوله عدد من الفلسطينيين، مكتوب تحتها «البطل طارق الإفريقي الذي دافع عن الحارة الجنوبية من جبل المكبّر».

«كيف أستطيع خدمتك؟»

قطع موظف ببسؤاله انشغال داود. أعطاه الرسالة، فأخذ يقرأها في طريقهما إلى مكتبه. ما إن استقرّ على كرسيه حتى كان قد أتمّها.

أطرق قليلًا قبل أن يطلب من داود أن ينتظره لبعض الوقت. حمل هاتفه النقّال وغادر، فانزاح الكرسيّ عن المكتوب في قاعدة الصورة الكبيرة لشيخ معمّم «الحاج أمين الحسيني مفتي القدس 1895-1974». عاد الموظف وهو يُخبر داود بصعوبة أن يجد له عملًا أو مأوى هذه الأيام، لأنه تم صرف كل ميزانية الجمعية غير الكافية أصلًا لأبناء الجالية. قام داود يقصد باب العامود، وقد حمل وعدًا أن يُلتفت لطلبه بمجرد توفّر ميزانية كافية.

لم يكد يغادر الجمعية حتى اصطدم بشاب أسود يركض مذعورًا باتجاه الداخل. سار قليلًا ليجد مجموعة من الجنود تُقبل عليه. تملّكه الهلع، وتجمّدتْ خطواته، ولم يهدأ حتى بعد أن تجاوزوه ليقتحموا الجمعية يلحقون بالشاب.

حكى لماريل ما رأى وهو يحاول لملمة هدوئه، فلم يجده أمرًا مستغرَبًا.

«هذا مشهد يومي سنستغرب إذا لم نره يومًا. المهم أخبرني بماذا أجابوك؟»

حين فرغ من إخباره، وجد نفسه منقادًا ليعرف أكثر عن أفارقة القدس. استغلّ خلو المحل من الزبائن وسأل ماريل.

«هذه قصة طويلة ستعرفها مع الأيام، لكن يمكن أن أقول لك إننا أتينا إلى هنا لأسباب مختلفة؛ بعضنا أتى لمجاورة الأقصى وهؤلاء أُطلق عليهم المجاورون، والبعض جاء فقط ليحارب إسرائيل بمجرد أن أعلنتْ دولتها عام ثمانية وأربعين. هناك أفارقة أقدم جلبهم البريطانيون لبناء سكة القطارات، وحين عادوا إلى بلدانهم سحروا الناس بحكاياتهم عن القدس. بغض النظر عن هذا، نحن

الآن فلسطينيون للنخاع، وندافع عنها بأرواحنا، وما الشاب الذي طارده الإسرائيليون أمام عينيك، إلا أحد الذين يحتجّون كل يوم على الاحتلال بطريقة أو بأخرى».

«هل تقصد أنّ هوياتكم فلسطينية؟»

ضحك ماريل، وهو يُعيد مسبحة إلى مكانها، قبل أن يُجيب على السؤال:

«نحن خصوم لإسرائيل كما أخبرتك، لكننا مضطرون لاستخدام بطاقات هوية زرقاء تعود لها. المضحك أنها تكتب في خانة الجنسية «أردنيّ» بحكم أنّ القدس الشرقية كانت تتبع الأردن قبل أن تحتلّها إسرائيل. لكنّ الأردن يحرمنا من وثائقه لأنه يعتبرنا وافدين على المكان. ولأن اتفاق أوسلو المشؤوم يمنع السلطة من منح سكّان القدس هويات فلسطينية، لم نجد أمامنا إلا وثائق خصومنا».

جاء رجل في عمر ماريل. نهض داود يسأله عن حاجته، لكنّ الرجل ابتسم وهو يعبر إلى الداخل ويسحب كرسيّاً ليجلس عليه.

«هذا أخي التوأم محمد ياسين... وهناك ثلاثة آخرون يصغروننا ستلتقي بهم، محمد محمود، ومحمد إسحاق، ومحمد جبريل... هذا ولدنا داود من إرتريا».

تبادل ياسين التحيات مع داود قبل أن يُخبره ماريل أنه كان منخرطًا في تعريف ضيفه بوجودهم القديم في القدس.

«أكيد أنك أخبرته أننا جميعًا متزمّتون مثلك».

استغرب داود لغة ياسين، لكنّ ضحكة ماريل هوّنتْ الأمر وهو يعقّب:

«لا. لم أفعل. كما أني لم أقل له إننا جميعًا شيوعيون مثلك».

ضحك الاثنان بصوت عالٍ، وشاركهما داود الذي أحبّ العلاقة التي تجمعهما. عاد ماريل للحديث:

«لكن لا يُمكن أن ننكر أنّ أساس وجودنا هنا كان دينيًا قبل أي شيء. كما أن مفتي القدس الحاج أمين الحسيني لم يكن ليجعلنا حرّاسًا على الأقصى بعد شدة بأسنا إلا بسبب تديّننا».

«كلنا مسلمون يا رجل... لا تجعل الشاب يظنّ فينا السوء. أنا فقط أتحدث عن التزمّت. اسمع يا داود هذه الحكاية واحكم بنفسك».

اعتدل داود في جلسته وهو يُصغي إلى ياسين.

«آباؤنا وأجدادنا كانوا ملكيين أكثر من الملك. لم يكونوا يسمحون لغير المسلمين بدخول المسجد الأقصى مهما كان الأمر. وفي يوم أراد السلطان أن يُلبي رغبة الدون البلجيكي بارا بانت وعقيلته النمساوية في رؤية الأقصى من الداخل، لكن المشكلة كانت في طريقة إقناع الحراس الأفارقة في الإذعان لأمر السلطان الذي اهتدى أخيرًا لحيلة غريبة؛ لقد منح كل الأفارقة حرّاس المسجد الأقصى إجازة في يوم الزيارة، وبهذا مرّ الأمر بسلام».

تداخلتْ كلمات ياسين الأخيرة مع ضحكاته، فيما كان ماريل يبتسم وهو يهزّ رأسه معترضًا:

«هذا ليس تزمّتًا... إنه التفاني في خدمة المقدسات. تعرف ما فعله جبريل تكروري حين تلقّى رصاصة كانت تستهدف المفتي، ولهذا كافأنا الحاج برباطَيْ المنصوري والبصيري».

«تقصد هارلم الصغيرة. يا رجل... هذان المبنيان ليسا إلا سجنًا

عثمانيًّا، يُشبهان تمامًا الحياة التي نعيشها هنا. ثم لماذا لا تُخبر داود عن اسمَيْهما الحقيقيَّيْن؛ سجن الدم المخصص للمحكومين بالإعدام، وسجن الرباط لمن يقضي محكومية تزيد عن العشرة أعوام».

فهم داود الشعور الذي داهمه حين رأى تلك القضبان الحديدية التي تُطوّق نوافذ المبنيين، وأعاده إلى أيامه في الوادي الأزرق. واصل ياسين حديثه وقد اكتسى نبرة جادة:

«أخبرني ماذا كانتْ المكافأة تجاه ما فعلته النيجيرية فاطمة برناوي أول أسيرة لدى الاحتلال؟ وما فعله طارق الإفريقيّ، وعلي جدة الذي قضى في المعتقل سبعة عشر عامًا من عمره، وإنعام قلمبو، وغيرهم الكثير؟»

«لسنا ننتظر من الوطن مكافأة. نحن فلسطينيون، وهذا دورنا».

همّ ياسين أن يردّ على تعليق أخيه، لكنه استشفّ شيئًا من ملامحه المتجهّمة جعلته يُحجم، ويَحرف الحديث لوجهة أخرى:

«أخبرني يا داود، كيف تركتَ إرتريا؟ هل لديكم هناك أناس يظنون أنفسهم إرتريين، فيما أهل البلد لا يحتملون النظر في وجوههم؟»

لم يفهم داود السؤال، ولم يكن ياسين يبحث عن إجابة فقد قام متعلّلًا بانشغالٍ، وهو يطلب من داود أن يلتقيا مرة أخرى».

«ياسين حادّ الطباع كما رأيتْ. له تجربة مريرة في الاعتقال بعد أن حاول زرع قنبلة في حافلة تقلّ إسرائيليين ردًا على اغتيال عضو بارز في الجبهة الشعبية. خلافي الدائم معه أنّ الوطن ليس ملزمًا دائمًا بأن يقابلنا بمكافآت فورية. نعم هناك مشاكل تُحيط بنا، فالإسرائيليون يعادوننا بسبب موقفنا من الاحتلال، وبعض أهلنا لم يستطيعوا

حتى الآن أن يتقبّلوا لون بشرتنا. لكن لا يمكن للحياة أن تكون بلا مشاكل... أليس كذلك يا داود؟»

كان داود غارقًا في المفارقة التي يعيشها الأفارقة الفلسطينيون. لا يعرف لماذا رأى نفسه فيهم. إنها الرغوة السوداء مجدَّدًا، تطفو على السطح رغم كل محاولاتها أن تصبح في قلب المكان.

«بلى. لا حياة بلا مشاكل».

قذف داود بجوابه هذا، وقام ليلبّي حاجة زبون جديد.

(28)

أتمّ داود شهره الأول في ضيافة ماريل.

توطّدتْ علاقته بسكّان رباطَيْ المنصوري والبصيري. يناديه الجميع بداود الإرتريّ. وعوض أن يُتقن اللهجة المقدسية توسّعتْ حصيلته من لغة القرعان التشادية التي تتحدثها عائلة ماريل، مع بعض الكلمات من لغات أقوام الفلاتة والبلالة. أصبح ماريل يعتمد عليه كثيرًا في المحل، ويتركه أحيانًا بمفرده ليقضي بعض أموره. لكنّ شيئًا واحدًا كان يؤرقه؛ فهو لم يحكِ لأحد عن قصته الحقيقية، لماريل على وجه الخصوص، عن كونه هاربًا من فضيحة تقمّصه شخصية يهوديّ من الفلاشا. كثيرًا ما كان يتصرّف بطريقة غير مفهومة أمام صاحب المحل؛ يغادر فجأة دون أن يقول شيئًا، أو يداري وجهه ويُعطي الزبائن ظهره. وكان في كل مرة يجد عذرًا مقنعًا يُطفئ به هواجس ماريل الذي كان أقصى ما يخشاه، هو الحصول على مخالفة تشغيل شخص بلا أوراق رسمية.

فعل داود ذلك لأنه في مرة لمح آرون يتسكّع في طريق باب العامود، وأخرى جين ظهرتْ سارة تربط عودها على ظهرها وهي تسير بتلطّف بمعيّة شابّ إفريقي يبدو منتشيًا برفقتها. بينما كانت

بقية الحالات تتعلّق بتجنّب رجال الأمن الذين لا يكفّون يمرون في الشارع جيئة وذهابًا، وهم يرمقونه بنظرات متشكّكة، دون أن يعلم إن كانوا بالفعل يبحثون عنه أم أنهم يتسلّون فقط بإخافته.

عدا ذلك كان قد أَلِف حياته الجديدة. بدأ يعتاد عليها بالأحرى ويتقبّلها. تقبّل أكثر فكرة الرغوة السوداء، لم يعد يحاول تجاوزها. ليكن السطح هو مكانه، وماذا في ذلك؟ هو لم يُجرّب أن يستقر في عمق الأشياء، لم يُجرّب أن يكون في صلب المكان، واهتمام الناس. لا يعرف، ربما كان ذلك سيء أيضًا بطريقة أو بأخرى.

تمنّى لو وافته هذه الفكرة مبكّرًا ليختصر رحلة عذابه. لكنه عاد ليفكّر أنه لم يملك خيارًا في كل ما حدث، فقد طاردته الفواجع بضراوة. ولم يكن يطلب الكثير، كان يريد أن ينجو فقط، أن يعيش حياة عادية، يصحو وينام ويُحبّ ويُنجب ثم يموت في فراشه. لم يكن يطلب أكثر من ذلك. مرة أخرى نقض فكرته بفكرة أخرى؛ أليس هذا هو السبب، كونه يبحث عن شيء عاديّ قليل الكلفة؟ ماذا لو كان رفع من سقف آماله قليلًا، هل كانت ستتغيّر الأمور من حوله؟ خطر له أنّ الدنيا تعطي أقل مما نطلب، وهو قد طلب قعر النجاة فلم يحصل على شيء في آخر المطاف.

بدا يومه هذا رتيبًا للغاية. لم يكن يُضجره ذلك، فهو عاش أيامًا كانت فيها هذه الرتابة أقصى أمانيه. جلس قبالة ماريل الذي يُمرّر الوقت بمطالعة صحيفة بائتة مع قلة زبائن اليوم. لم يجد داود شيئًا يفعله، كان قد فرغ من تنظيف المحل، وترتيب السُبح، وإعادة ترتيبها، إلى أن جلس يُقلّب بصره في الغادين والرائحين أمامه.

ماج السوق فجأة بالصراخ والراكضين في الاتجاهين، فانتبه داود

أخيرًا لما حوله. رأى انتشارًا كبيرًا لقوات الأمن الإسرائيلية. سارع ماريل إلى إغلاق المحل، بعد أن عرف أنّ شاباً طعن جنديًا إسرائيليًا ولاذ بالفرار.

«هيا لنغادر، سيعتقلون كل من يشكّون في علاقته بالأمر».

بدأ الأمن في إغلاق الطرقات. كان الوقت قد تأخر ليستطيعا الوصول إلى البيت. قصدا مقر الجالية الإفريقية، فوجداه مغلقًا. أرادا العودة إلى المحل والاختباء فيه لكنّ طريق العودة لم تعد متاحة.

اقترح ماريل أن يفترقا حتى لا يُثيرا أي شكّ، وأن يتظاهر داود بأنه يهوديّ:

«إذا سئلتَ اختر أي اسم إسرائيليّ يخطر على بالك. لكنّ حافظ على هدوئك. لن تُنقذك إلا ملامح وجهك المطمئنة».

غادر ماريل في اتجاه الجنود، فيما بقي داود في مكانه يحاول أن يبدو متماسكًا، وهو يبحث عن رد لما يمكن أن يُسأل عنه. أدخل يده في جيبه، وأخرج بطاقة انتسابه إلى بيتا إسرائيل. طواها عدة طيّات، وقذف بها في مكبّ نفايات إلى جواره. لم يكن ليجرؤ على إظهارها وفضح نفسه. لكنه في الآن نفسه لم يجد اسمًا يستقرّ عليه غير داويتْ. ألفة الاسم ستجعله يعاود التقمّص بسهولة أكبر.

سار خطوات إلى الأمام، بدا الطريق مألوفًا كأنّه يُعيده آلاف المرات. ها هو يتخلّص من بطاقة هويته كما فعل في إنداغابونا، ويعود إلى داويتْ الذي تركه خلفه. هي الدائرة نفسها إذن، لا تكفّ تعبث معه وبه.

اخترق حشدًا من الجنود المرتبكين دون أن يلتفتَ لهم. حقنه تجاهلهم بثقة أكبر. واصل سيره ليجد جنديان يركضان صوبه وهما

ممكسان بسلاحَيْهما الرشّاش. جمد في مكانه، لكنهما عبراه، فأكمل طريقه. بدأ خوفه يتلاشى وهو يقترب من ساحة باب العامود التي ستأخذه إلى شوارع أوسع حيث يخرج من دائرة الاشتباك تمامًا.

لم يكد يطمئنّ إلى ارتياحه حتى عاوده القلق، وقد اقترب من حشد آخر يُطوّق مكان الحادث، ويسدّ الطريق إلى الساحة. استدار ليحاول الخروج من شارع جانبي.

«عتسور... عتسور».

جاءه الأمر بالتوقف حازمًا. توقّف للحظات دون أن يلتفتَ خلفه. لم يكن على يقين ما إذا كان الكلام موجّهًا له. كانتْ الحركة في كل الاتجاهات، ولم يتوقّف صراخ الجنود يطلبون التوقّف. جرّب أن يعاود السير فأصبح الصوت أكثر حدة. لم يشعر بنفسه إلا وقد بدأ الركض. ركض من كل قلبه، ركض لا يعرف وجهة، كان يريد الابتعاد فقط، النجاة بما تبقّى من جسده وروحه. كان يركض بكل قوته، لكنه يشعر مع كل خطوة أن شيئًا منه يسقط. لم يكن يملك ترف التوقّف لالتقاطه. كان كما حياته بأسرها، قانعًا بالقليل، سيكفيه أن يبقى بقدم واحدة، يد يمنى أو يسرى لا يهم، نصف وجه، قلب مهشّم، رئة معطوبة. سيبقى بما يضمن له البقاء.

اخترقتْ رصاصة صدره، فسقط على ظهره. هنا فقط استطاع أن ينظر بملء عينيه إلى الخلف. كان الجنود قد أمسكوا بشابّ وبدأوا في تقييده. لم يكن أمر التوقف إذن يخصّه، لكنَّه كان قد تعوّد على طريقة أقداره في إدارة لعبتها معه، لم تكن لتفوّتَ متعة أن تجعله المعنيّ دائمًا بكل فاجعة، ولمَ قد يظنّ أنّ الأمر مختلف الآن.

اقترب منه الجنديّ الإثيوبيّ الذي أطلق عليه النار، وقد انتبه

أنه أصاب الشخص الخطأ. أمسك برأسه وهو يسأله عن هويته، مرة بالعبرية وأخرى بالإنجليزية، قبل أن يُجرّب سؤاله بالأمهرية، وملامح بؤس احتلتْ وجهه، فيما كان بقية الجنود يهرولون نحوه.

كرّر الجنديّ سؤاله، وهو يطلب الإسعاف عبر جهاز اللاسلكي. لا يعرف داود لم شعر بتراخٍ غريب يحتلّ جسده. أخذ سؤال الجنديّ يتردد داخله ببطء شديد. يرى الوجوه من حوله متوترة، دون أن يُغيّر ذلك من تراخيه.

حاول أن يُجيب على السؤال، غير أنّ لسانه قد بدأ يثقل. تمنّى لو يستطيع خوض حوار مع الجنود من حوله. لا يريد الإجابة الآن، بقَدْر ما يودّ طرح الأسئلة.

أراد أن يسألهم عن هويته، عن اسمه إن كان داود أم ديفيد أم داويتْ. أن يسأل عن ديانته، إن كان مسلمًا أم مسيحيًا أم يهوديًا. عن جنسيته، إن كان إرتريًا أم إثيوبيًا أم إسرائيليًا أم فلسطينيًا.

ليته يجد الإجابة. كم يحتاجها الآن، والآن بالذات، حين التفت له الناس أخيرًا ليعرفوا هويته التي قضى عمره يبحث عن مستقرّ لها.

بدأ الضجيج يخفّ من حوله. غاص جسده في استرخائه. شعر بالحاجة إلى النوم. سينام قليلًا ليصحو بعدها وقد وجد الناس من حوله جوابًا لسؤاله. سيترك لهم هذه المهمة التي أعيته طويلًا.

أغمض عينيه، وقد شعر بروحه رغوة تطفو على السطح.

ترك ابتسامة على محيّاه، وهو لا يعرف على وجه الدقة إن كان سيتنبّه لها أحد.

(29)

في يوم بارد أواخر أكتوبر من العام ألفين وخمسة عشر، كان شاب إرتريّ يلوك يومه الرتيب وهو يسير بنصف اطمئنان في أحد شوارع بئر السبع.

لا أعرف بالضبط فيمَ كان يُفكّر حينها، لكن لو أردتُ أن أتقمّص حالته كإرتريّ، فسأقول إنه كان يحلم أحلامًا كبيرة. كان مثلًا يتمنى أن يجد وجباته الثلاث على نحوٍ عادي، وأن يستطيع الناس كلهم رؤيته بمحبة عدا ثلة يرجو لو يُصبح لا مرئيًا أمامهم؛ إنهم رجال الشرطة وحرس الحدود والقضاة، وأرباب الأعمال، والزوجات سليطات اللسان، والفتيات القادرات على الترك أولًا، والأطباء المتعجرفون، وحرّاس الأماكن المهمة، إلى آخر قائمة لا تكفّ تتسع بفعل الظلم أو الكِبر، أو فقط لازدياد أعداد الحمقى. أتخيّل أنه كان سيبتسم لتوصيفي هذا، ويواصل طريقه دون أن يُعلّق على كلامي.

هزّ ضجيجٌ طمأنينته فجأة.

غصّ المكان بعربات الشرطة وسيارات الإسعاف والراكضين هلعًا في كل اتجاه. لم يتبيّن ما يجري، ولم يكن معنيًا بهذا. كان يخشى فقط أن تقبض عليه الشرطة بتهمة التسلّل إلى إسرائيل، وتُعيده

إلى جحيمه في إرتريا. جرّب أن يركض لينجو بنفسه، فعاجلته طلقة أردته قتيلًا.

كان لهذا المشهد أن يتأثث بالحزن فيمنحه الجلال اللازم، لولا أنّ الشرطة الإسرائيلية بدتْ مرتاحة حين عرفتْ أنّ خطأها كان أصغر، فهو محض لاجئ، دخل إلى بلادها بطريقة غير شرعية، فيما انشغل فلسطينيون بالتساؤل: ولمَ جاء الإرتري إلى بلادنا؟

لم يستطع الشاب الإجابة. كان مشغولًا ربما بمكانه على السطح وقد تناغم معه أخيرًا. ربما فكّر قبل أن يغمض عينيه أن يطرح هو الآخر أسئلته. قد يكون فعل ذلك.

لا أحد يعرف.

ترك ابتسامة على محيّاه، وهو لا يعرف على وجه الدقة إن كان سيتنبّه لها أحد.

لروح الشابّ الإرتريّ
«هبتوم ولدي ميكائيل زرئوم»
كُتبتْ هذه الرواية.

شكر مستحق

أشعر بامتنان بالغ تجاه عدد من الأصدقاء الذين منحوا هذا النص وقتهم وعادوا إليّ بملاحظات وتصويبات ومرئيات قيّمة. شكرًا **أمير صديق** الذي يقف على يميني منذ الكتاب الأول بشكل لا أملك إزاءه كلمات تفي بجهوده، و**سامح خضر** مدير متحف محمود درويش في رام الله، حيث تعامل مع النص بجدية انعكستْ إيجابًا على صورته النهائية، ودقّق مفرداته العبرية، المترجمة والشاعرة الفلسطينية **ريم غنايم** التي أضافت ملاحظات عميقة، والروائية الكويتية **بثينة العيسى** التي أمطرتني بمرئيات غاية في الوجاهة، والناقد د. **محمد الحبيب** الذي دقّق النص وحقنه بملاحظات مهمة.

كما أشكر أستاذنا **عارف حجاوي** على تفانيه في التدقيق النهائي. والصديق الدكتور **مصطفى الحسن** الذي رعى النص منذ كان فكرة خام.

أشكر كذلك الشاعرة الفلسطينية **فاطمة نزّال**، و**طارق عسراوي**، و**أحمد شيكاي**، والقاص **أحمد صالح**، والناقد **رياض المسيبلي**، و**بشار بشير**، وميّ **جمال** على مرئياتهم بالغة الأهمية.

وأشعر بامتنان كبير تجاه الأستاذ **حسن ياغي** مدير دار التنوير على

تحرير النص بدأب كبير.

ولا يفوتني شكر وزارة الثقافة الفلسطينية، ممثلة في شخص الوزير د. **إيهاب بسيسو** ومعاونيه الذين أتاحوا لي زيارة فلسطين، وهو ما مكّنني من الوقوف على الأماكن الواردة في النص. وهنا يحضر شكر خاص للصحفية **بديعة زيدان**.

كما أشكر الصحفية **نضال رافع** التي مكّنتني من زيارة القدس والوقوف على معالمها.

وقد واكبتْ كتابة هذه الرواية **مرشدة نفسيَّة** أَثْرَتْ النص بملاحظاتها، وأرتأتْ في النهاية عدم ذكر اسمها، فلها الشكر الجزيل.

حجي جابر

رغوة سوداء

تصميم الغلاف نجاح طاهر

منطلقاً من الخلفية التي دفعت يهود الفلاشا إلى الهجرة إلى اسرائيل، يسرد حجّي جابر حكاية البؤس الذي يدفع بالشباب في البلدان الفقيرة إلى بذل كل شيء في سبيل الهجرة إلى مكان يعتقدون انه يؤمن لهم فرصة أفضل في الحياة.

يسرد لنا كيف أن الواحد منهم مستعد للسرقة ولارتكاب المخاطر، وللكذب واختراع حياة غير تلك التي عاشها... والهدف واحد: الفرار من البؤس والأمل في حياة أفضل.

هكذا يفعل، داويت الذي لم يكن يهودياً، فيخترع لنفسه شخصية جديدة، مغيّراً اسمه وتاريخه. ويفعل أقسى الممكن حتى يستطيع الخروج مع يهود الفلاشا إلى إسرائيل... وهناك تبدأ معاناة جديدة يكتشفها في المهاجرين سُمر البشرة الذين سبقوه إلى هناك، ويُدخلنا في تفاصيل حياتهم وبؤسهم ومعاناتهم... ثم في حياة وبؤس الذين هاجروا إلى أرض الميعاد مع حلم أنها ستوفّر لهم حياة كريمة...

لكن هذا الوهم يروح يتبدد، ويغير اسمه مرة أخرى ليعيش حياة أخرى... لكن كل هذا لم ينقذه من حالة الخوف التي يعيشها على حياته... ولا من التمزّقات التي يعانيها سواء بسبب لون بشرته أو بسبب كونه مهاجراً...

عبر رواية «رغوة سوداء» سنتعرّف إلى عالم نجهله، سيدخل حجي جابر إلى تفاصيله... إلى عمق أحلام وآمال "داود" ونظرته إلى الحياة والحب... والرغبة الشديدة في التخلص من حياة بائسة.

إنها رواية الأحلام المجهضة على الرغم من كل التضحيات التي يبذلها داويت... حين راح يحلم بعالم أفضل.

ISBN: 978-614-472-023-3

9 786144 720233

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس